صخرة البؤساء

اسم الكتاب: صخرة البؤساء.
اسم المؤلف: إيمان علاء ربيع.
تصنيف الكتاب: رواية.
شارك في الإعداد:
محمود ربيع
تصميم الغلاف: عبدالمنعم سيد
رقم الإيداع: ٢٠٢٢/١٥٧٨٤
الترقيم الدولي: 978-977-6974-78-4
الطبعة العربية الأولى ٢٠٢٢م

رئيس مجلس الإدارة
عبدالله إبراهيم أحمد

Mob +201064164001

Info ba0609422@gmail.com

www.Hekaya Foundation

جَميعْ حُقوقْ الطَبْعْ والنَّشرْ محـْفُوظة للناشِرْ
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزءٍ من هذا الكتاب بأي طريقة بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

تم تسجيل هذا الكتاب بالتعاون مع دار المصرية السودانية الإماراتية
القاهرة - مصر
البحيرة - أبو المطامير

صخرة البؤساء

إيمان علاء ربيع

تمهيد

أشد ما يعجبني هؤلاء الأشخاص الذين يحيُون على فطرتهم الذين وجدوا أنفسهم عليها، إنه حقًّا يتمثل في رجُل خير، ولكن هو الشر بذاته الذي يسير علي قدمَين؛ فهو ليس متكلّفًا ولا منافقًا، بل يحيا بالنفاق ويحيا بالوعظ والخير، هو يرى نفسَه كذلك، وفي الحقيقة أُعجبتُ بشخصيته؛ لأنه لا يتكلّف ليُرضِي أحدًا، بل يفعل ما أرادتْه نفسه أن تفعله، أما عن إدريس بن عبد الجبار الذي يحرم أبناءَه من حبه متظاهر بأن الحب يفسد الأخلاق؛ فلذلك لا بُدّ من القسوة؛ فهي مَن تصنع رجالًا أشداء قادرين على أن يوجهوا الحياة بقوة، ولكن أبناءَه على عكس أبيهم يرون أن القسوة لا تصنع رجالًا، بل تجعل أرواحًا تفنَى وهي ليست قابلَة للفناء؛ فهم يريدُون أن يتذوّقوا بعض الحب الذي يجعلهم يسيرون مطمئنِّين، ولكن هذا الرجل يمنّ عليهم بكلمة حتى تدوِي قلوبًا ذاقت القسوة منذ زمن، فهو حقًا إدريس بن عبد الجبار.. رجل قاسٍ لا يعرف الرحمة، كل ما يعرفُه هو طريق القهوة التي يظلّ عليه طول النهار وطول الليل يعربدُ فيه كما يعربدُ الباقون، ولا يبالي لوجود أحد سوى نفسه المريضة التي تتمرّد على أبناءه وعلى الحياة.

أما فريدة فهي ابنته، الفتاة التي أرادت الحياة يومًا، ولكن أغلقَت الحياة أبوابها في وجهها؛ فماذا تفعل سوى أن تموت كل يوم؟ فقلبها

أصبح شراذم متفرقة في تجويف صدرها لا تستطيع أن تجمع هذه الشراذم التي نبتَت به شجرة بثَّت جذورها في شرذم واهنة، وقطرت الحزن الذي أصبح أنيسًا له، أعلم قارئي أنني أثرثر كثيرًا، آسفة لذلك، ولكن أنا لم أنتهِ من ثرثرتي بعد، عزبة الصخرة مكان جعل قلوبًا تتألم وتتذوق المعاناة، ولكن على الرغم من ذلك يركضُ الأطفال عراة في الطريق دون أن يبالوا لأحد، تعلو ضحكاتهم وترتفع في السماء، تجد منهم من يركض خلف أرنبة كي يطعم أسرة فقيرة بائسة تنتظر طعامًا منذ يومين، وتجد منهم من ينزوي في ركن ويحاول أن يدخن.

لأشد ما يحزنك الأطفال في عزبة الصخرة، ولكن على الرغم من فقرهم وبؤسهم إلا أنّك تجدهم يفرحون ولا يبالون للحزن، وكأنهم خُلِقُوا لطرد الحزن من نفوسهم، بمجرد دخولك قارئي العزيز هذه العزبة تجد الأصوات مختلطة عليك، نعم لا تستطع أن تفرق بين صرخ النساء وصرخ الأطفال الذين يركضون عراة تحت المطر ويملأ الطين أجسادهم، وتصرخ أمهاتهم عليهم، إنهم أطفال عنيدون مثل الصخرة الموضوعة على أطراف العزبة الشرقية، أما باقي الأصوات فهي نهيق الحمير ونقيق الضفادع التي يعذبها الأطفال، ووقوَقَة الدجاج، كل هذا يختلط وينتج سمفونية عذْبَة من الفقر والجوع والمرض الذي يدق أبوابهم ويأخذ أفراده بدون شفقة على أصحابه، ولكن على الرغم من ذلك يحلمون بالصبح القريب الذي ينجِّيهم ممّا هُم فيه، والضوء الذي يسير بسرعة قاطع أميال الفقر والشقاء الذي يحيون به.

وأشد ما يعجبك نشدُهم وهم يعملون في الحقول بحصدِهم للقمح الذي تنتثِرُ حباته على الأرض؛ فيهلّلون وينثرون التِّبن هنا

وهنــاك، كل هــؤلاء يحيُــون في حيــاة شــقية ونحــن ســنطّلع عــلى شــقائهم وبؤســهم الــذي يقيّدُهــم بقيــود الجــوع والألم، لم أذكــر كل الشــخصيات التــي توجــد في القصــة؛ فهــم أيضًــا يريــدون ذكرهــم وذكــر حبّهــم الــذي يرجــون منــه الكــمال، ولكــن أراك قارئــي أنّــك متعجــل، فــإذا أردتَ أن تقلــب الصفحــة افعلهــا؛ لأننــي انتهيــتُ مــن هــذا التمهيــد.

***

(١)

عزبة الصخرة مترامية على الأطراف، لا تستطيع أن تحدّد في أي منطقة تقع في مصر، تشعر بأنها عالم منفرد بعيد عن الازدحام الذي نحيا فيه، حتى أفراده أيضًا تشعر بأن ملامحهم شاحبة، لا تستطيع أيضًا أن تحدّد لهم شكلًا، تكاد الرجال تشبه النساء؛ فالجميع يعمل في الحقول فلا تستطيع أن تفرق بينهم؛ فالفقر يُخفِي ملامح الوجه والشقاء يزيل جماله، وعندما تسير فيه تشعر بأنّكَ سوف تُصاب باختناق من كثرة الشوارع الضيقة التي تشبه المتاهة، ومنازله تُبنى بالطين والجريد، حتى إذا أتَت نسمة هواء خفيفة ستقلع هذه البيوت من جذورها.

تجلس النساء أمام منازلهن، منهنّ من تنقِّي عدسًا، ومنهنّ مَن تفرغ أحشاء دجاجة وتُلقيه أمام بيت الجيران كي تنتقم؛ فهم يفعلون هذا دائمًا، بينما الأطفال يصرخون ويركضون يمينًا ويسارًا، ومنهم من يجلس بجانب دجاجة ينتظر البيضة حتى يقوم بسلقها.. إنه جائع، سوف يموت إذا لم يأكُل الآن، وسرعان ما يتشنّج ويبكي عندما تنهض الدجاجة دون أن تترك له بيضة، والصِّبْية يركضون في سباق إلى الصخرة؛ فمن يصل أولًا سوف يجلبون له ساندوتش فول من عمي خميس، يركضون متخبطين في المارة إلى الصخرة التي تُوجد خارج العزبة، بينما يمرُّون بالقهوة التي توجد بالقرب من فصل المعرفة الذي يتعلم به من يريد ذلك؛ فهما ملتصقَين، وهذا يسبّب

دائـمًا إزعـاج لصاحبـه، هنـا يكـون القـرآن وهنـاك يكـون الغنـاء والرقـص.

الصبيـة الذيـن كانـوا يتسـابقون عـادوا مفزُوعِـين مـن شـدة الخـوف، يركضـون ويصرخـون قائلـين:

- حمودة سيقتلنا ويشرب دمائنا.. حمودة سيقتلنا.

بينـما يـأتي حمـودة ممسـكًا بالعصـا التـي يمسـكها دائـمًا في يـده؛ فهـو ذو قامـة مرتفعـة، تنظـر لـه وتـكاد رقبتـك تُخلَـع مـن مكانهـا؛ فهـو طويـل جدًا ولـه عينـان جاحظتـان يخيـف الأطفـال بهـما، وفي وجهـه علامـات كثـيرة، هـذه العلامـات يعتـز بهـا إنجـازه في تاريـخ الـشر؛ فهـو وغـد شريـر يفـرضُ قوّتـه عـلى جميـع أهـالي العزبـة؛ فيعمـل لـدى الملـوم الـذي شرَّد الكثـير، فهـو مثـل سـيّده.. حقـير يزعـم أنـه يحميهـم مـن الآخريـن، وقـف يرمـقُ الشـيوخ الجالسـين الذيـن يتمنـون مـن الزمـان أن يعـود بهـم يومًـا، فهـرع إلى أحـد منهـم وأخـذ مـن يـده كـوب الشـاي ورشـف رشـفة، وبـدأ يداعـب أذنـه اليمـين المشـوّهة، ثـم خرجـت لـه امـرأة بدينـة يظهـر عليهـا النعيـم؛ فرمـق المـرأة بقـوة، ثـم بصقـت المـرأة بجانبـه قائلـة:

- حمـودة، الولـد بلَّـل نفسـه مـن شـدة الخـوف، مـاذا تـرى نفسـك إذا قدَّمـت أو أخـرت، أنـت في النهايـة شـحاذ وابـن شـحاذ؛ فنحـن خـير منـك ومـن أهلـك.

لم يلبـث حمـودة كثـيرًا وبـرزت عينـاه الجاحظتـان للخـارج، واحمـرّ وجهـه الـذي يشـبه وجـه الفتـاة في نعومتـه قائـلًا:

- من الذي خيرًا مني؟! قولي ما قُلتِ مرة أخرى، أريد أن أسمع ذلك.

ردت المرأة وهي ترتجف قائلة:

- قلـت لـك نحـن، ألم تسـمع؟! مـن حقّـك أن تشـكِي مـن قلـة

السمع؛ فأنت ذو أذن مشوّه تستحق ما يجري لك؛ فأنت تفعل الشر والله يوقعك في شر أعمالك.

أشعل ذلك غيظه، جذب الصبي من يد أمه وأمسَك على يده بقوة حتى صرخ الطفل من ذلك، ورقرقَت عين أمه وركعت على ركبته أمامه متوسلة له أن يترك الطفل لأنه ليس له ذنب؛ فقال وهو يصر على أسنانه ويطبق علي يد الطفل بقوة:

- قولي الآن من هو خير مني؟

قالت المرأة وهي تلثم قدمه:

- أنت.. نعم أنت، نحن لا شيء، أنت الكل في الكل.

دفع المرأة بقدمِه وألقى الصبي في حجر أمه وكأنه حبة بطاطا، وسار وهو يلوّح بالعصا يمينًا ويسارًا ويضحك من صميم قلبه، بينما نهضت المرأة وهي تبكي على ابنه الذي تحوّلَت يده إلى اللون الأزرق؛ فوضعت يده في الماء حتى تبرد، وأخذت تنظر المرأة إلى الحقول المترامية أمامهم وتستنجد، وتطلب الخلاص من هذا الوغد.

وها هي فريدة الذي تعهّدَت على البكاء والخوف طول عمرها، وكأن هذا عهد لا بُدّ من تأديته، تفُوق من نومها على ضوء خيوط الشمس التي تتسلَّل من نافذتها التي تتركها مفتوحة طول الليل، ولا تبالي إلى نقيق الضفادع ولا إلى البعوض المزعج، تشعر أن الشمس تعهدت معها على غد مشرق مفعم بالأمل، تنهض مسرعة من على فراشها المصنوع من حجارة متراصة فوق بعضها البعض، وتهرع إلى المرآة كي تصفّف شعرها البني، ارتدت خمارها الأسود فزاد وجهها جمالًا، وعينها الزرقاء التي تشبه السماء في صفاءها؛ فعينها ورثتها من

أمهـا، كـم تعشـق لـون عينيهـا، بينـما عباءتهـا فضفاضـة تزيـد جسـدها جمـالًا وكأن هـذه الفتـاة لا تمـتّ بصلـة إلى هـذه العزبـة البائسـة، حملَـت أختهـا مُنَـى بـين ذراعيهـا وصعـدت لأعـلى كـي تطعـم الدجـاج وتبـدأ بالعمـل الـذي لا ينتهـي في المنـزل؛ فالمنـزل يشـبه جميـع المنـازل التـي توجـد في العزبـة، لا يختلـف كثـيرًا سـوى أن سُـلَّم هـذا المنـزل مصنوع مـن الحجر، بينـما يوجـد سـلم آخـر مصنـوع مـن الخشـب يصعـدون بـه أعـلى السـطح حيـث مـكان الدجـاج والأوز ويتكـوّن مـن حجرتـين، صعـدَت فريـدة ولم تسـتكمل درجـات السـلم، والتصقَـت بالحائـط مـن شـدة الهلـع الـذي أصابهـا، ضربـت كفًّـا بكـف بعدمـا رأت أخاهـا صـادق مـا زال نائـمًا إلى الآن، إذا علـم ابـن عبـد الجبـار سـيهدم هـذا المنـزل فـوق رؤوسـهم اليـوم.

أسرعـت فريـدة إلى أخيهـا الـذي كان يلتـفّ مثـل الجثـة ونائـم أرضًـا؛ فهـو سـاقط مـن فـوق فراشـة، هـذه طبيعتـه.. يتحـرك كثـيرًا أثنـاء النـوم، هـزَّت أخاهـا برفـقٍ ولم يسـتجِب وكأنـه حقًّـا جثـة، وضعـت مُنَـى أرضًـا، بينـما أزالـت اللحـاف مـن عـلى وجهـه وحاولـت أن تجعلـه ينهـض، ولكـن لم تسـتطع، لـن ينهـض؛ فالخمـر تُثقـل رأسـه؛ فهـو مثـل الباقـين يشربُـون حتـى الفجـر ثـم ينامـون باقـي النهـار، فهـو في العشريـن بينـما هـي تصغـره؛ فهـي في السادسـة عـشر، تركتـه نائـمًا بينـما ترتجـف مـن شـدة الخـوف، إذا علـم أبـوه أنـه مـا زال نائـمًا سـوف يقتـل الاثنـان؛ فهـو إدريـس بـن عبـد الجبـار.

بـدأت مُنَـى في البـكاء، الأوزة نالـت منهـا وعضتهـا في أصبعهـا، حملتهـا بـين ذراعيهـا وحاولـت أن تجعلهـا تكـف عـن البـكاء؛ فهـي مزعجـة لدرجـة كبـيرة، سـمعَت صوتًـا آخـر غليظًـا ينـادي، علمَـت أنـه الطامـة..

أبوها هو الذي ينادي، وقفَت ولم تُجِب، بينما صادق الذي كان يشبه الجثة انتفض من مكانه وكأن صعقة كهربائية صعقَته؛ فنهض يركض بجسده الهزيل وقامته الطويلة يمينًا ويسارًا، وقف يضرب على فخذه بيده وكاد يلطم مثل النساء، بينما صرخ إدريس قائلًا:

- لماذا تبكي هذه؟ ثم أين الجبان أين ذهب؟

حملق صادق وازدرد ريقه قائلًا:

- قولي له ليس هنا.

هزَّت فريدة رأسها، ولكن قوَّر صادق يده وقال:

- قولي وإلا دفنتُكِ حية في مكانك هذا.

قالت فريدة وهي تبكي:

- ليس هنا.

ركض صاحبُنا إلى السلم الخشبي كي يجد له مكانًا يختبئ فيه، وإلا سيخسر حياته إذا ظل هنا، بينما فريدة جلسَت تبكي مثل مُنى التي لم تنتهِ من بكاءها، لم تبكِ من تهديد أخيها ولا أبيها، بل من الكذب الذي قامت به الآن؛ فهي تكرهه مثلما تكره أخاها عندما يعربد، ومثلما تكره لملوم وحمودة.

صعد إدريس وهو يلهث مثل الكلب ممسكًا بيده الفأس وباليد الأخرى قطعة خشب؛ فهو يختلف كثيرًا عنهم، ذو قامة قصيرة ووجه مثل سواد الليل، قال وهو مازال يلهث:

- أيتها النذلة الجبانة، منذ متى وأنت تكذبين عليه؟ منذ متى؟ والله تستحقين الحرق أنت وهو، قولي لي أين ذهب وإلا فصلت رأسكِ هذه عن جسدك، قولي أين ذهب هذا الجبان؟

صعدت أمه ذات الجسد الهزيل والوجه النحيف والعين الزرقاء؛ فهي تشبه فريدة تمامًا، الثلاثة يشبهون أمهم، أوقفَت هذا المجنون قبل أن يفعلها؛ فهي تعلم جيدًا أنه قادر على فعلها دون أن يبالي فهو مجنون، قالت وهي تلثم مُنى في خدها:

– هي ليس لها ذنب في شيء، اتركه، ثم إذا بحثتَ كثيرًا عنه لن تجده، وهناك عمل خلفنا لابد من تأديته وإلا سنربط بطوننا اليوم من شدة الجوع.

ألقى إدريس من يده قطعة الخشب، وقال:

– ضرغام قال لي أن ابنك لم يأتِ، وأخذ مني يومية بعشرين جنيهًا، هذا يعني أنه هرب ولم يذهب للعمل، كلفني الوغد عشرين جنيهًا بعد أن كاد ضرغام يطلب لي حمودة، والله اليوم ستكون نهايته على يدي، سوف أجعله يدفع أربعين مرة واحدة بدلًا من عشرين؛ فهو يستحق ما سيجري له.

وضع الفأس فوق كتفه وهرع، بينما هرعَت خلفه فاطمة كي يعودا لعملهما الذي يستمر طول النهار، ويكادان يذهبون في الليل كي يسدا أفواههما من شدة الجوع، بينما استكملت فريدة عملها وما زالت تحمل مُنى التي يسيل مخاضها من كثرة البكاء، بينما صادق مد رأسه من أعلى السطح مثل اللص كي يتأكد أذهبَ أم حيلة مثلما يفعل معه.. كثيرًا ما يتظاهر بالذهاب ويجده مختبئًا له في الغرفة التي تشبه الكهف.

هرعت فريدة للأسفل كي تستعد للذهاب إلى فصل المعرفة؛ فكم تحب القراءة والكتابة والحساب، كانت تريد استكمال تعليمها، ولكن

أباهـا وقـف في وجهها وأخرجهـا مـن الابتدائيـة، حزنـت هـذا اليـوم كثـيرًا، ولكـن هـذا الفصـل أعطـى لهـا بصيصًـا مـن النـور الـذي تلاشَـى في الجهـل والفقـر الـذي يفـرض عليهـم أشـياء كثـيرة لا يرغبـون فيهـا.

كانـت عـلى وشـك الخـروج، ولكـن نـزل صـادق وطلـب منهـا أن تعـد لـه الإفطـار فهـو جائـع، جلـس صـادق يداعـب مُنـى بينـما أحـضرَت فريدة بعـض الجبـن والفـول والليمـون المخلـل وجلسـت كـي تتنـاول إفطارهـا، فقـال صـادق والطعـام يتطايـر مـن فمـه:

- أنـا سـأذهب وسـأعود مـرة أخـرى، لكـن لا تذكـري أننـي كنـت هنـا إلى أن أجـد حـلًّا لذلـك.

قالت فريدة وهي تعطي مُنى لقيمات صغيرة:

- اذهـب إلى عملـك لعـل وعسـى يغفـر لـك، ثـم أنـت تسـتحق أكثـر مـن ذلـك؛ جعلتنـي أكـذب وأنـا لم أعتَـد عـلى ذلـك.

نظر لها صادق بمكر، ثم قال:

- لا تبالغـي؛ الجميـع يكـذب، وأنـا أعلـم مـا الـذي يغضـب أبي.. العشريـن جنيهًـا التـي دفعهـا، ولكـن لا تقلقـي؛ سـوف آتي لـه بخمسـين.

تنهدت فريدة، ثم قالت:

- ستسرق مرة أخرى، ما تفعله سوف يؤذيك.

قال صادق بضجر بعد أن لوّح بيده في وجهها:

- إنهـا أموالنـا ونحـن نأخـذ منهـا متـى نشـاء، نعـم متـى نشـاء، أمثـال الملـوم وكلابـه لـن نتركهـم يفرحـون ويمرحـون بمالنـا، وأنـتِ تعلمـين أن أمـوال العزبـة كلهـا في يـد الملـوم، والله نحـن منحوسـون بعـد مـوت ابنـه بـدر، قُلنـا أن الأمـوال سـتكون لنـا، ولكـن طلـع لنـا سي حسـن ابـن بـدر،

خــرج مثـل العفريــت مــن العلبــة، ولا لملــوم حــزن عــلى ابنــه ولا مــات حتــى وراءه، كلنــا توقعنــا هــذا، ولكــن حســن هــو الفائــز، ولكــن لــن يســتمر في النهايــة، أمــوال جــده هــي أمولنــا نحــن وليســت أمواهلــم هــم؛ فنحــن تظاهرنــا كثــيرًا بعــدم الرؤيــة مــن كثــرة خوفنــا، ولكــن حــان الآن وقــت فتــح العيــون، كل شيء ملــك لنــا، فهمــتِ أيتهــا الغبيــة أم تحبــين أن أقــول شــيئًا آخــر؟ ثــم أنــا أحــب السرقــة؛ فهــي بالنســبة لي رياضــة، نعــم، وليســت لي بمفــردي، بــل لــكل واحــد مثــلي؛ فنحــن نطعمكــم ممّــا نفعلــه.

قالت فريدة وهي تضرب كفًّا بكف:

- افعــل مــا تشــاء يــا أخــي، واعلــم أن نهايتــك ســتكون عــلى يــده، ثــم أنــت وأمثالــك لا تسرقــون لملــوم، أنتــم تسرقــون أهــالي العزبــة الذيــن لا يجــدون؛ فنحــن نــسرق مــن بعــض يــا أخــي، ويــا ليتــك تبتعــد عــن حســن، ليــس لــك دخــل بــه حتــى لا تجلــب الويــل لنــا ولــك، ثــم هــو شــاب طيــب ليــس مثــل جــده.

قطب صادق حاجبية قائلًا:

- انتظــري، انتظــري أريــد ســماع آخــر مقطــع في الجملــة، حســن ليــس مثــل جــده! لمــاذا تتحدثــين بهــذه الطريقــة؟! هــي أثــارت الشــكوك حولــكِ، والله أنــا الــذي أخشَــى أن تجلبــي أنــتِ الويــل لنــا، ليــس مهــمًّا، وحمــودة الــذي تخافــون منــه وتعملــون لــه ألــف حســاب بكلمــة منــي أوقــع بــين الاثنــين، وســوف أفعلــه عــن قريــب وســترين.

قالت فريدة وهي تتنحنح:

- كل هؤلاء شياطين يا أخي، وأنت بجانبهم بعوضة لا تذكر.

قال صادق وهو ينهض:

- بعوضة! خير ما قُلتِ، واعلمي أن البعوض يلدغ وقادر على أن يجعل جسم ثابت مثل الجبل يسقط مثل عباءة بالية لا حول له ولا قوة، وكل ما تسمح لي الفرصة سوف ألدغهم حتى يموتوا، ثم إذا لم أسرق سوف أتشرد بسبب ابن عبد الجبار؛ فإذا استطَعتِ أن تعفي لي عنده فاعفي، وعهد أنني لن أسرق.

ضحكت فريدة ونهضت؛ فهي لم تستطع أن تجعله يرضَى عنها، أتستطيع أن تفعل ذلك من أجل أخيها؟! بينما نهض هو الآخر يهندم نفسه أمام المرايا، أمسكت فريدة مُنَى وهرعت بها إلى الخارج كي تذهب إلى فصل المعرفة، لم تكَد تخرج وقال صادق بصوت مرتفع:

- شكرًا لكِ على الكذب الذي نجاني من ابن عبد الجبار.

خرجت وأغلقت الباب بقوة من شدة الغيظ؛ فصرخ قائلًا:

- الباب ليس له ذنب، بل الجوع والفقر، ثم بعد كسر الباب سنكون في الخلاء.

كانت الشوارع تعج بالأطفال الذين يركدون عراة ويتمنون سقوط المطر حتى تنظف أجسادهم من كثرة ما تراكم عليه من وابل، ركضَت مُنى بين الأطفال، بينما سارت فريدة بخطى متعجلة منعطفة.

بينما تجد النساء يسبُّون بعضهن على بيضة كل منهنّ تزعم أنها ملك لها، تركت فريدة كل هذا السبّ والشتم واستكملت سيرها؛ فوجدت طفلَين يتقاتلان على علبة ساردين فارغة، فكلما رأت ذلك شعرت بالاختناق؛ فهي تريد أن تخرج من العزبة، وتنظر لها من بعيد؛ فكل المنازل أسوار عالية تمنعهم من الوصول لعالم آخر غير

ما هم فيه، عالم تراه في حلمها وتشم رائحته بدلًا من هذه الرائحة التي تسبّب ألمًا في الجيوب الأنفية، قفزت داخل الفصل وكأن هذا الفصل صاروخ سوف ينقلها لعالم أحلامها، ولكنه في الحقيقة فصل بسيط ليست به مقاعد، حتى المصباح الذي يوجد بها خافت لدرجة تجعلك تصاب بالتهاب في العين.

توقف الأستاذ أنور بمجرد دخوله الفصل، كان ينظر له من خلف نظارته بين الحين والآخر؛ فهو في العشرينات من عمره، ما يميزه عن أهالي العزبة ثقافته الواسعة، ولكن هذا لا يعني أن البؤس لن يظهر عليه، بل ظاهر على هيئته الهزيلة التي تشعر كلما نظرتَ له بأنه مريض، استكمل الأستاذ شرحه، بينما أمسكت بقلمها وبدأت تدون خلفه بنشاط؛ فهي بارعة في العمليات الحسابية وتعشق هذه الحصة.

نظرَت إلى اليسار وجدَت شابًّا يرمقها، حاولت أن تتظاهر بالتجاهل، ولكن الخوف غمرها؛ فهذا ينظر وكأنه سوف يبتلعها وهي لا تحب الأشخاص الأغراب، لا تحب الاحتكاك بهم؛ فهم دائما مثل طير أبابيل الذي يرمي بالمصائب في الجحور ويهرب دون أن تراه، تطلّعَت حولها ولم تجد أصدقاءَها؛ فهي تأتي ومعها اثنان؛ فاليوم كانت هي فقط، فنظرت مرة أخرى بجانبها وما زال هذا الأخ لا يحوّل بصره عنها، لماذا ينظر لها؟ أهناك شيء لم تنتبه له؟! ولكن لماذا هو فقط الذي انتبه لها؟ هذا ما كانت تتحدث به دون أن يقف عقلها عن التفكير، لعنَتْه كثيرًا؛ فبسببه لم تستطع التركيز على الدرس؛ فهو حرمها من شيء تحبه، اللعنة على ذلك.

انتهى أستاذ أنور من شرحه، ثم خرجت دون أن تنتظر مثل كل

مـرة؛ فهـي تحـب الثرثـرة كثـيرًا مـع أسـتاذ أنـور في أمـور الطبيعـة، كانـت تنظـر خلفهـا وتترقـب بـين الحـين والآخـر، علمـت أنـه خلفهـا؛ فهـي رأت ظلـه فهـو ذو وجـه بـريء، ولكـن هـذا لا يعنـي أنـه لا يلحقهـا، بـل هـو يريـد أن يقتلهـا أو يختطفهـا ويطلـب فديـة مـن أبيهـا، ولكـن أبي لـن يدفـع ولا حتـى مليـم، سـوف يتركنـي؛ فأنـا سـأكون خفّفـتُ عبئًـا مـن عليـه.

كانـت تثرثـر ولا تقـف، وتتطلّـع بـين الحـين والآخـر وصاحبنـا مـا زال يهـرع خلفهـا دون أن ينعطـف يمينًـا أو يسـارًا، تنهّـدَت بقـوة وسرعـان مـا قفـزت للداخـل، وكاد قلبهـا يغـوص في صدرهـا مـن شـدة الخـوف الـذي غمرهـا.

***

القسـوة لا تصنـع رجـالًا بـل تصنـع قلوبًـا واهنـة، يسـكنها الألم والخوف والضعـف الـذي يسـلّم نفسـه لقلـب يحتضنـه بقـوة، وسرعـان مـا تنجـرف القلـوب مـع ريـاح الألم وتذهـب لعـالم حـالم ببعـض الأمـل والبسـمة، ولكـن تعـود القلـوب منكـسرة؛ فوجـدت سـدودًا بـل آلاف السـدود موضوعـة في طريقهـا.

(٢)

بعدما انزلقَت داخل منزلها تطلّعَت من نافذته لعلها تجد شيئًا، ولكن لم تجد له أثرًا، حمدَت الله على ذلك، هرعَت تضَع الخبز في قطعة قماش كي تذهب إلى جدتها حليمة قبل أن يراها أبوها؛ فهو يرى دائمًا أن ابنته تضيع وقتها بدلًا من أن تعمل، ولكن هي لا تبالي إلى أبيها، تعلم جيدًا أنها لن تبالي إلى أي كائن يحاول منعها من رؤية جدتها؛ فجدتها هي من أعطت له الشيء الذي لم يعطِها ولداها لها؛ فكم اشتاقت إلى حبهما، ولكَم اشتاقت لعطفهما! ولكن لم تتذوّق ذلك الطعام، نعم هو بالنسبة لها طعام شهيٌّ له ثمن باهظ، وهي ليست ممتلكة لشيء، وستظل هكذا، ولكن جدتها أعطتها ولم تبخل عليها بشيء.

هرولت بخطَى متعجلة كي تصل إلى جدتها سريعًا حتى تراها؛ فهي تشتاق لها حتى ولو كانت قريبة منها، مرَّت بالقهوة وهي تترقب تخشى أن يخرج لها هذا المراقب من مكان ما، ثم انعطفت إلى اليسار وهي شاردة في عالم آخر غير هذا العالم الذي نحن فيه؛ فهي تحلم دائمًا ولا تتوقّف عن أحلامها، وتعلم أن هذه الأحلام لن تتوقف عند نقطة معينة، حتى أنها ستموت وهناك شيء في نفسها من هذه الأحلام التي تسبح في اللامكان، تغوص في أعماقها وتولد نفسها من رحم هذا العالم، كادت أن تسقط وعينها عالقة في السماء، ولكن أسعفَت نفسها، وسرعان ما وقعت عيناها على رجل يقطف الثمار

من الأرض ويضعها في كيس كبير، هرعت إليه وهي تلهث قائلة:

- توقف أيها اللص ماذا تفعل؟ أتسرق شيئًا ليس ملكًا لك؟

مازال الرجل يضَع في كيسه وكأن ليس هناك أحد؛ فهذا سبّب لها غيظًا كبيرًا؛ فصرخت بصوت مرتفع:

- لص.

التفت للخلف بلا مبالاة قائلًا:

- لم أسرق، بل أخذتُ بإرادة صاحبة الحـ...

صمت برهة وهو يحملق في وجهها، ثم أضاف متعجلًا:

- أنتِ؟!

نظرت له فريدة نظرة صامتة وارتجفَت حتى كاد الخبز يسقط من يدها، قالت وهي تتشبّث بالخبز وتحتضنه مثل الطفل الصغير:

- من أنت؟ ولماذا تلاحقني إلى هنا؟

لوح بيده وقال:

- لم ألاحق أحدًا، أنت تخرجين أمامي وفي كل مكان، ثم لماذا ألحق بكِ؟ أقالوا لكِ مفتون بجمالك مثلًا؟! والله أنتِ غريبة.

قالت فريدة والغيظ يشتعل بها:

- بل كنت تلاحقني أيها اللص عندما خرجتُ من فصل المعرفة، كنتَ أنت، نعم.. بهيئتِك هذه، ثم من قال لك أنك مفتون بجمالي وهذا الحديث السفيه الذي تتحدث به؟! أنت رجل أبله صحيح.

تبعثرَت الثمار على الأرض من يده؛ فقال بغضب:

- قلت لستُ لصًّا، ثم هناك سوء تفاهم في قصة أنني ألحقُ بكِ، كل ما في الأمر عندما كنا في الفصل بالفعل نظرتُ وتعجّبتُ لكونك

فتاة تجلس في وسط الرجال ولا تلتفت لذلك، أما عندما كنتُ خارجًا فأنا لم أكن ألحق بكِ، بل كنت ذاهبًا إلى منزلي وأنتِ حسبتِ عكس ذلك، على العموم أنا زميل في فصل المعرفة واسمي راضون، أنا من العزبة لستُ غريبًا، تسمعين عن عائلة لملوم؟ نحن نقربهم، ولكن قرابة بعيدة، أمي تقول لي دائمًا ولكن أنا لا أصدقها؛ فكيف يترك لملوم أحدًا من أهله يشحذ أو يجوع حتى؟!

ردت فريدة وهي تضع قطعة القماش في فرع شجرة التوت:

- اللعنة على لملوم وعلى اليوم الذي رأيت وجهه فيه.

قال رضوان وهو يجلس بجانب الكيس الذي يتأرجح من الهواء يمينًا ويسارًا:

- أعلم لماذا تلعنين الرجل؛ فكل العزبة تلعنه.

قالت فريدة وكأنها تذكّرت شيئًا:

- توقف، لا تأخذني في حديثك عن لملوم وتجعلني أنسى كيف أنت تسرق الباذنجان بدون إذن، بل ليس الباذنجان فقط، بل كل ما تشتهيه الأنفس.. نعم.

هرعت إلى الكيس ونظرت فيه، ثم أضافت متعجلة:

- يا ربي لماذا كل هذا؟

قال رضوان وهو يأخذ بعض الثمار من يدها ويعيده إلى الكيس قائلًا:

- وهل السارق يستأذن عندما يفعل أم يأخذ خلسة دون أن يراه أحد؟ ثم أنتِ تتحدثين كثيرًا ولا تعطي الفرصة لي أن أشرح أو أقول لك شيئًا؛ فجدتي حليمة هي من أذِنَت وسمحت لي وقالت خذ ما تشاء يا رضوان ولا تخشَ أحدًا مهما كان، وها أنا آخذ، هل لديكِ مانع؟

قالت فريدة وهي على وشك أن تنفجر في وجه هذا المتعجرف؛ فهو يسرق ولا يهتم لها ولا حتى يخشى وجودها:

- إذا لم أكن أنا لدي مانع من سيكون إذن؟ إنها جدتي وأنا حفيدتها، آتي الأرض فأجد من يستغلها ويسرقها، ثم الاستغلال أبشع من السرقة، وكيف أنت تذهب إلى فصل المعرفة وتسرق وتستغل؟ أقنعني بذلك.

ضرب جبينه بيده، ثم قال:

- صحيح تذكرت كيف أفعل ذلك؟ قولي لي من الذي يخرج من هناك ولم يرتكب السرقة والجرم وغيره؟! حقًا.. صباحًا نتعلم الدين ونتفقّه فيه ثم نخرج مساء نسرق ونستغل! انظري.. كل ما يوجد هنا يدفع لذلك، تعلمين أن جدتك لم تأذن لي إلا بعد ما أتت ورأت ما أفعله، وأنا عندما فعلتُ كنت أبكي، ولكن هي من أزالت دموعي، وتعلمين أن سبب هذه الدموع هي أمي وأبي أيضًا، هما يجلسان الآن ينتظران الغنيمة، هما من يجبراني على السرقة، والفقر والجوع هو من يفرض عليهما ذلك.

رقرقَت دموعه وصمتَ برهة، ثم أشار إلى السماء قائلًا:

- انظري لهذا الطائر الذي يحلّق في السماء ما أجمله! يحلق بحرية بدون قيود، يأكل متى يشاء وينعم متى يشاء، أما نحن نشقَى في كل ما تسمح الظروف لشقائنا، حتى إذا أردنا الطعام نأكل بحذر وننظر في أيدي بعضنا ونتوسل أن يترك لنا قطعة خبز واحدة، قطعة من التي معه، نحن نتألم وسنظل هكذا، لا تقولي أنني لص مرة أخرى، أنا لم أكن يومًا لصًّا ولن أكون، والله على ما أقول شهيد.

هرعت فريدة إلى فرع الشجرة وأتت بقطعة القماش التي يلتفّ بها قطعة خبز، وأخرجت منه كسرة ومدت يدها قائلة:

- خذ، سامحني لم أقصد إهانتك، ولكن جميعنا نشقى يا أخي؛ فلا تحز ن .

قال رضوان وهو يقضِم في قطعة الخبز:

- صدقتِ.. العزبة بُنِيَت علي الشقاء والجهل.

قالت فريدة بنبرة حالمة:

- ولماذا لا يكون عكس ذلك؟

قال رضوان وهو يلوح بيده:

- لا تحلمي أحلامًا وردية؛ فنحن خُلِقنا لذلك.

قالت وهي تبتسم:

- من يراك يا رضوان يقول أنك متقبل وحامدٌ لله، ولكن عينك تلعن كل شيء، كل شيء تلعنه ولن تستطيع أن تخفي ذلك مهما فعلت.

رقرقت عين رضوان وحاول أن يخفي دموعه ولكن لم يستطع؛ فقال وهو يبكي:

- أقسم أن الموت أهون لي من هذه الحياة؛ فالحياة مؤلمة أشد الألم، والقسوة لعنة من لعنات الزمن.

تنهدت فريدة قائلة:

- يظنون أن القسوة تَلِد وتصنع رجالًا، ولكن تجعل أرواحًا تفنى وهي ليست قابلة للفناء.

قال رضوان وهو ينهض:

- تتحدثين وكأنك...

قاطعته فريدة قائلة:

- نعم تذوقت منه الكثير يا أخي، أقسم لك الكثير.

قال رضوان وهو يتطلع خلفه:

- افعلي مثلي، عيشي بلا هدف، كوني في العدم.

قالت فريدة وهي تنهض بدورها:

- وهل العدم حياة كي تحيا فيه؟

صمت رضوان كعادته، ثم قال:

- من العدم خلقت قلوب لا تسكنها إلا القسوة، أبوابها من صدأ؛ فقلُت أكون في العدم لعلي أتصادف بقلب نقيّ كنقاء السماء.

قالت فريدة وكأنها تتذكر شيئًا:

- لن تجد قلوبًا اليوم نقية كنقاء السماء، حتى السماء فقدت نقاءها يا أخي، أنت حالم لا أكثر، والله عجبت لك ولشخصيتك الغريبة المليئة بالتناقض، قلبي أصبح يتألم كثيرًا، تعلم أن هناك شجرة خبيثة نبتَت في قلبي وغرست فروعها في صدري فجعلته ينزف دمًا كل يوم وكل ساعة.

مسحت فريدة دموعها التي سقطت، ثم قالت:

- والله عجبت لي ولك، جلسنا نتحدث ونسينا أنفسنا، ولكن نحن دائمًا هكذا.. نبحث عن ما يجعلنا ننسى أنفسنا.

تطلعَت حولها ثم قطفت ثمارًا من الأرض ووضعتها في الكيس الذي بين يد رضوان، وقالت:

- سوف تأخذ المزيد، ومتى أردت ذلك أقبل ولا تخشى شيئًا، أعلم أنني أعطي أمرًا ليس من حقي أعطيه، ولكن سوف أتوسّط

لـك عنـد جـدتي بـأن تعمـل هنـا، ولكـن عـلى شرط أن تذهـب إلى فصـل المعرفـة، والمـرة القادمـة سـتأتي إلى هنـا وأنـت راضٍ وليـس مجبـورًا أو سـارقًا.

هرش رضوان في رأسه قائلًا:

- علمتُ الآن من صاحبة القلب النقي.. أنت.

تبسـمت فريـدة خجـلًا، وتطلعـت إلى السـماء التـي تمتلـئ بالغيـوم، وأقبلـت الجـدة التي تبلـغ مـن العمـر سـتين عـام بوجههـا الـبريء وصوتها الهـادي الـذي تشـعر بأنـه يحمـل الحـب في كل كلمـة تخـرج، وجسـدها الـذي انحنـي كخـط رُسِـم عـلى كـرة قـدم، ورغـم ذلـك تشـعر أنهـا مـا زالـت طفلـة لم تبلـغ مـن العمـر السـت أعـوام؛ فهـي تعشـق الوجـود وتتأملـه كمفكّـر عظيـم، قالـت الجـدة وهـي تبتسـم:

- أهلًا بكِ يا فريدة، شمَمتُ رائحتك من على بُعد فعلمتُ أنكِ هنا.

نظر رضوان لها، وقال بنبرة حاسدة:

- هنيئًا لكِ يا فريدة بهذا الحب.

أمسكت الجدة رضوان من أذنه وقالت:

- وهل أنا لم أحبك يا ولد؟! أنت وُلدتَ على يدي هذه.

قال رضوان وهو يتألم من ضغط يده:

- سـمعتُ ذلـك، أنـت مَـن وُلـد عـلى يديـكِ أبنـاء العزبـة بأكملهـم، حتـى إلى هـذه اللحظـة.

قالت فريدة وهي تحتضن جدتها وكأنه تذكرت الماضي بحديثهم:

- نعـم، كنـت أذهـب معـكِ يـا حليمـة، تتذكريـن ذلـك، كنـت أنتظـر بالخـارج رافعـة يـديّ إلى السـماء حتـى ينجـو الطفـل وأمـه؛ لأن بذلـك كنـت

أحظى بكوزٍ من الذرة والبطاطا وعقد من الفول النابت، وأظل أمرح بالعقد حتى تنكمش حباته، ثم أعلقه على باب الغرفة، تعلمين يا جدتي أنّ لديّ الكثير منهم، يمكن بعدد أطفال العزبة تقريبًا.

قالت الجدة وكأنه تجاهد ذاكرتها لتتذكر:

- نعم، كنت أصنع أرز باللبن، أتعلم يا رضوان أنني صنعتُ لك كذلك رغم أنف أبيك؟ فهو بخيل رفض أن أصنعَ لك حتى لا يُهدِر لترين من اللبن؛ فكان يريد أن يُباع في السوق، ولكن أنا صنعت لك الكثير يوم مولدك، وسوف أصنع لك عندما تنجب ولدًا إذا كنت حيّة أُرزَق.

قالت فريدة وهي تطرد آخر مقطع قالته جدته:

- سوف تكونين يا جدتي، وأنا لي عند رضوان كوز من الذرة وأرز باللبن.

تركت الجدة هذا النقاش بينهما وراحت تجمع حطبًا من الأرض كي تعد الشاي لهما، جمعت القليل وجلست تُشعِل النار، وجلست بجانبها فريدة وهي تضع قطعة القماش المليئة بالخبز، وقالت فريدة بصوت منخفض:

- جدتي، أرجو منكِ أن تجعلي رضوان يعمل هنا بدلًا من أخي صادق؛ فهو دائمًا يُكثِر المشاكل، ورضوان سوف يكون ثالثنا؛ فنحن نشقَى بمفردنا، هو سوف يذهب بالخضار إلى السوق ونحن سوف نجمعه من الأرض، وهو أمين وصادق وستجدينه يعمل بمهارة، وأنا سوف أراقبه، وإذا رأيتِ تقصيرًا عهد عليّ سيذهب حيث لا يجعلنا نرى وجهه مرة أخرى.

لم تُجِب الجدة بل صمتت؛ فكان رضوان يتطلع لها ولفريدة وقلبه كاد أن يتوقف؛ فهذا العمل سوف يكون الجنة بالنسبة له، سوف يمتنع عن السرقة ويحيا بالطريقة الذي أراد أن يحيا بها، أما فريدة تنظر لرضوان وتحتضنه بنظرتها، وتتمنى أن تنطق جدتها وكأن بنطقها سوف يأتي ما لم يروا من قبل، فقالت الجدة وهي تنفخ في النار حتى تزداد في الاشتعال:

- سيعمل.

قالت هذا وبدأت تسعل بشدة؛ فقالت بعدما ارتشفت الماء:

- أريد أن أرى همتك يا رضوان، لا تقصّر في شيء.

قال رضوان بفرح شديد:

- سأكون كما تريدين بإذن الله.

نهضَت فريدة بعدما ظهرت ابتسامة عريضة على وجهها:

- إذًا سنلتقي غدًا بإذن الله.

قالت الجدة وهي تنادي وتشير له بعدما ابتعدَت قليلًا:

- ولمن أصنع الشاي؟

قالت فريدة بصوت مرتفع يمتلئ بالفرح:

- لشريكنا الثالث، ثم الأيام القادمة، سنشرب الشاي كثيرًا.

سلكت طريقها وهي تسير بعجلة، بينما نظرت لها الجدة ورقرقت عينها، فقالت الجدة بصوت مكتوم:

- إنها أتعس فتاة.. تعمل طول النهار في الحقول وتعمل الليل في المنزل، وأبوها يأخذ مالها ويبخل عليها بالعطف والحب، حتى ابنتي التي كانت في أحشائي ورثَت القسوة لا أعلم مِمَّن؟

قال رضوان وهو غارق في التفكير:

- نولد أحياء ويقتلونا بقسوتهم علينا.

قالت الجدة وهي تربت على كتفه:

- لا تحزن يا بني؛ فالقسوة داء ليس له دواء، لو يعلمون ذلك لما فعلوا.

قال رضوان وكأن ليس هناك حياة بعد القسوة التي حاز عليها من والديه:

- يعلمون ولكن يتظاهرون بالجهل وعدم المعرفة؛ لذلك والله عجبت لهم، أهُم والديّ اللذان كنت أراهما وأنا أمرح من السعادة؟! تذوقت هذه السعادة ليوم واحد فقط ولا أعلم أين ذهبت؟

سارت فريدة إلى الصخرة التي سُمّيَت العزبة نسبة لها؛ فهي تتميز باللون الذهبي عندما تسقط أشعة الشمس فوقها، وتتميز بلون لامع وجذاب يخطف الأبصار له، تُقبِل فريدة تجاه الصخرة وقلبها يرقص فرحًا، تسير وتريد أن تحلّق كي تصل إلى صاحب الصوت الذي تسمعه واعتادت على سماعه منذ زمن، اقتربَت من صاحب الصوت ونظرت له نظرة مليئة بالحب، ونظر لها هو الآخر من خلف نظارته نظرة مختطفة؛ فيخشى أن تفضحه الشمس بهذه النظرات، جلست بجانبه وهي تسمع لحديثه بطربٍ، وها هو ينظر لها بين الحين والآخر بوجهه الذي يمتلئ بالبراءة والوداعة وكأنه ليس من أهل العزبة الذي يظهر على وجههم الشقاء، بل يظهر على وجهه النعيم؛ فهو حسن بدر لملوم، لملوم جده، ويخشى جده الذي أنعم عليه بالكثير بعد وفاة ولده، بينما هي تكره جده أشد الكره وتخشى أن تقول ذلك، ولكن تعلم أنه ليس مثل جده؛ فهو خير منه بكثير،

فقالت فريدة وهي تتشبث بيده:

- كنت أتمنى رؤيتك أمس، ولكن لم تسمح لي الفرصة.

فقال بصوته الهادئ المتزن:

- حقًا أحتاج لرؤيتك دومًا، ولكن حظيتُ بشيء أعظم من ذلك؛ فأصبحتِ ماثلة أمامِي، أراكِ في كل حين وصوتكِ أسمعه كلما أردتُ سماعَه.

صمت الاثنان بعد ذلك، وكان كل منهما يسبح في عالمه الخاص به؛ فهو يخشى جدَّه الذي يجبره على السفر إلى القاهرة حتى يتمّ دراسته الجامعية، ويخشى أن يقول لها فيصاب قلبها بالحزن، بينما هي تريد أن تقول له شعورها تجاه جده، تخشى خداعه، ولكن لا تجرؤ على قول شيء قط مهما حدث، فقال وكأنه تذكر شيئًا:

- تعلمين يا حبيبتي أنني أنهيت المرحلة الثانوية اليوم.

قالت فريدة بفرح:

- مبارك النجاح، كنت أعلم أنني سوف أسمع خبرًا مثل هذا، فرحت من أعماق قلبي، وماذا ستفعل بعد ذلك؟

قال حسن وهو يغلق الكتاب الذي بين يده:

- سوف أستكمل.

قالت فريدة وهي تتطلع في الأفق:

- العلم ليس له نهاية.

قال حسن بعجلة:

- سوف أدرس الطب بإذن الله.

قالت فريدة وهي تصفّق بيدها وتضحك مثل الطفل:

- الطب مرة واحدة؟ إذن لن تقرأ لي مرة أخرى ستكون مشغولًا دائمًا.

قال حسن وهو يبتسم:

- كلّما تسمح لي الفرصة سوف أقرأ لكِ.

جذبت الكتاب من بين يده، ثم فتحته وقالت:

- ليس مهمًّا، المهم أنكَ ستكون الدواء لدائنا، نعم سوف تعالج الجميع، ولا أريد أن تنزع المرض فقط، بل انزِع الجهل معكَ أيضًا.

لم يُجِب، تطلّع بدوره في الأفق وغرق في تفكيره، بينما هي أسندت ظهرها للصخرة وتطلعت بدورها وهي تحلم بالغد الذي سيقضِي على الداء الذي يعمر العزبة منذ زمن، وهذا الداء هو جده، هل سوف يبتره أم سيتوقف عن فعل ذلك؟!

***

نحلـم بغـد والغـد ليـس لنـا؛ فيكـون في يـد غيرنـا الـذي يجعلنـا أسـفل قدمـه، ونحـن كل مـا نفعلـه هـو البـكاء الـذي لا يتوقـف ولـن يتوقـف مـا دامـت الحيـاة تسـير عكـس مـا يريـدون؛ فهـم يحبـون بقـدرٍ قليـل ويحيَـون بقـدر قليـل.

(٣)

فـرغ رضـوان مـن احتسـاء الشـاي وبـدأ يتطلَّـع في الخـضرة التـي كانـت تحيـط بـه، وغـرق في التفكـير الـذي لا ينجـو منـه أحـد، إنهـم إذا فكّـرُوا وتأمّلـوا يصابـون بالمـرض اللعـين الـذي يُدعَـى الأحـلام، ولكـن أخرجَتـه الجـدة مـن تفكـيره قائلـة:

- بنـي، انهـض وخُـذ مـا يحلـو لـك واذهـب إلى السـوق غـدًا، وسـيكون لـك ولنـا الـرزق بـإذن الله.

فقال رضوان وهو ما زال يعلّق بصره في الخضرة:

- قولي لي هل نحن أحياء؟

قهقهت الجدة، ثم قالت:

- الله يلعـن الشـيطان؛ فأنـا وأنـتَ والجميـع نحيـا نـرزق يـا بُنـي، ثـم إذا كنّـا نحـن أمـوات مـاذا يكونـون الذيـن في قبورهـم إذًا؟

شرد رضـوان وسرح بعيـدًا وكأنـه يناجـي كل مـا حولـه ويطلـب منـه الحيـاة، فقـال:

- نحن أموات في زِيّ أحياء، هذه هي الحقيقة يا جدتي.

نظرت له حليمة، ثم راحَت ترسم في الأرض بقطعة حطب قائلة:

- يـا بُنـيّ، منـذ صغـري وأنـا أسـمع عـن الحشـيش؛ فهـل أنـت تدخنـه وهـو الـذي جعلَـك هكـذا لا تفكـر في شيء، يـا بُنـيّ.. بـل فكـر في هـذه اللحظـة التـي توجـد بهـا.

لوح رضوان بيده، ثم قال وهو ينهض:

- أقسم لكِ لا أعلم عن هذا الحشيش شيئًا، نأكل أولًا ثم نبحث عنه، ولكن أنتِ لم تعطِ الإجابة عن سؤالي الذي أردتُه.

قالت حليمة وهي تنهض بدورها:

- أنا امرأة في عمر الستينات، لم أستطِع حتى أن أفكر؛ فذاكرَتي لا تسعفني قط؛ فهي تخدعني يا بني، فكل ما أعلمه أنني حيّة أُرزَق، أقلع في أرضي وأبيع القليل وأحمد الله، هيا اذهب فالشمس أوشكَت على المغيب وأنت جالس تتحدث في لا شيء.

نهض رضوان وحملَ على ظهره كيسًا ممتلئًا بالباذنجان والكُرّاث، وبدأ يهرول؛ فرقرقت عين الجدة قائلة:

- سامحني الله، لا أريد أن أقطف ثمرة قبل وقت نضوجها، فكيف يا بني أقول لكَ شيئًا يجعل الخوف يسكن قلبك إلى الأبد.

وصل رضوان إلى منزله وألقى بالكيس بجانب أبيه؛ فهو سبّبَ له ألمًا شديدًا في ظهره، فكان أبوه يجلس منزويًا في ركن من أركان الغرفة التي تحتوي الجميع بداخله، فكان يدخّن الشيشة وينظر لرضوان بعينَيه الضيّقتين؛ فكان ذا وجه شاحب وجسد هزيل إذا نهض فسوف يسكن مكانه، وله لحية كثيفه وكأنه لم يصفّفها منذ زمن، فكم يسعل هذا الرجل بعدما يفرغ من هذا الشيء، وتمتلئ الغرفة بالدخان المتصاعد من النيران التي يشعلها بجانبه، وهناك بعض الدجاج يسيرُ حوله والذباب يتراكم ويعشّش في أرجاء الغرفة لا تستطيع حتى أن تقف فيها، تفرّسَ في وجه رضوان، ثم قال:

- سرقتَ مَن اليوم؟

رمقه رضوان بنظرة احتقار قائلًا:

- كل مـا يـدور بعقلِـك شيء واحـد وهـو السرقـة، حـرام عليـك، تريـدني أن أتطـوّل عـلى أمـلاك غـيري؟ لمـاذا؟!

قال الرجل وهو يضرب صرصورًا بحذائه:

- اسـمع.. لا يهمني عـلى أمـلاك مَـن تعتـدي، كل مـا يهمنـي هـو المـال، هيـا أعطنـي مـال، ثـم مـا الـذي يوجـد بداخـل هـذا الكيس؟

قال رضوان وهو يضرب كفًّا بكف:

- باذنجان وكراث.

انتفـض الرجـل مـن مكانـه، وهـرع إلى الكيـس وهـو يرتجـف بمجـرد سـيره، فقـال:

- أوف! الله يلعنـك، نحـن نغـرق بالباذنجـان صباحًـا ومسـاء، كل يـوم نأكلـه؛ فهـل رأيتنـا نحتـاج إليـه أيهـا الغبـي؟ أنـت ولـد عـاصٍ ولا تطيـع والديـك، هيـا اذهـب واجلـب لي المـال حتـى ولـو مِـن تحـت الأرض.

أمسـك الرجـل بـذراع رضـوان وألقـاه خـارج الغرفـة؛ فـصرخ رضـوان قا ئلًا:

- أنـا لـن أتطـوّل عـلى شيء ولا أي شيء ليس ملـكًا لي، ثم هـذا الباذنجان سـوف تأكله رغـم أنفك مهـما فعلت، فسـوف تأكله صباحًا ومسـاء.

أتـت امـرأة بدينـة مـن خلفـه ترتـدي خمارهـا الـوردي؛ فدفعَـت رضوان بقـوة للداخـل فـكاد يسـقط، كانـت ذات وجـه مسـتدير يُوحِـي بالقلـق والاضطـراب، وتحمـل في يدهـا بعـض قطـع خبـز محمّـص؛ فقالـت وهـي تقطـب حاجبيهـا:

- ذهبـتَ إلى حليمـة اليـوم، علمـتُ بذلـك فرزقتُ بمَـن قال لي، ثـم لماذا ذهبـتَ إلى هـذه المـرأة؟ إنها خبيثـة، ستسـتغلّك وتجعلـك تعمل معـه دون أن

تعطيك مالًا، سوف تعطيك بدلًا منه كراث وباذنجان، ونحن نريد مالًا وليس باذنجان؛ فالمال يشتري الباذنجان وليس العكس أيها الأبله.

قال الرجل وهو يمسك ذيل جلبابه الذي يسقط فيه بين الحين والآخر:

- فهمت، كراث وباذنجان يعني حليمة، والله إذا ذهبتَ إليها مرة أخري لكسرتُ لكَ قدمَك، ثم هذه المرأة أخذت لترين لبن مني يوم مولدك كي تصنع لك أرز باللبن، والله منذ ذلك الحين وأنا أكرهها؛ فهي أجبرتني على شيء لا أريده، اللعنة عليها.. امرأة غبية، اسرِق ولا تهتم بهذه المرأة، ستأتي بالكثير يا بني، ستقدم لوالديك خدمة؛ فنحن أهلُك ولا بُدّ من أن تساعدنا.

قال رضوان وهو يجذب الكيس إليه:

- القليل في حقيقته كثير يا أبي، أنا لن أسرق.

قال أبوه وهو يزمجر:

- سوف تسرق.

قال رضوان صارخًا:

- لن أسرق مرة أخرى.

قالت أمه وهي تقضم قطعة من الخبز:

- ستسرق أيها الجبان، يا من تُنكِر المعروف.

نظر رضوان لهما بعين دامعة، ثم قال:

- لن أسرق، والله لن تمتد يدِي على شيء، وإذا امتدَّت لقطعتها وألقيتها في القمامة، لماذا تريدون أن أسرق؟! اتركوني أعمل وآتي بالقليل، والله تعبتُ منكما ومِن الذي تفعلانه بي، يا ليتني مِتُّ وكنتُ

نسيًا منسيًّا، ولكن هذا ليس بيدي، أقسم إذا كان خيّرَنِي الله بوجودي في هذه الحياة لكنتُ اخترتُ ألّا أراها حتى بطرف عيني، لن أسرق حتى إذا مِتُّ جوعًا.

نظر الرجل، ثم قال بنبرة خبيثة:

- تُبتَ اليوم إلى الله! لا بُدّ من أن نتوب أيضًا، نعم.. إلى متى سنجعل رضوان يسرق؟! أليس كذلك يا أم رضوان؟ نكتفي بالقليل حتى نجوع ونكون عراة أمام الجميع.

فرغ من حديثه، ثم أمسك بعنق رضوان وكاد أن يخنقه، بينما دفعَه رضوان للخلف بقوة قائلًا:

- أقسم أن اليوم الذي ستسرقُ يدِي ومن أجلِك أنت فسوف أبترها، وهذا الباذنجان سوف آخذه وأذهب، وابحث لكَ عن من يطعمك من هذه اللحظة، اللعنة على اليوم الذي وُلدتُ فيه وكنتَ أنت أبي.

اشتعل الرجل غيظًا؛ فخرج خلف رضوان وهو يسبّ ويلعن قائلًا:

- انظري.. إنه جُنّ، يلعنني الجبان ويلعن اليوم الذي وُلِد فيه، إذا لم تفعل ما نريده نحن فلمَن ستفعل، إذا كنتُ في سنِّك سأسرق الكثير وأجني أشياء وأشياء، أيادٍ كثيرة صفّقَت لأبيك عندما كان يسرق القَصَب من السيارات وهي تسير، اللعنة عليكَ وعلى صاحبة الباذنجان.

خرج رضوان وهو يقطع الزحام الذي تراكَمَ أمام منزله يشاهد الفقرة الدرامية التي كان يعرضها أبوه، كان يحمل الكيس على ظهره حينًا ويضعه أرضًا حينًا آخر يلتقط أنفاسه الذي شحَّت، ظل هكذا

إلى أن وصـل إلى الصخـرة، ألقـى الكيـس بجانبـه ثـم ألقَـى بنفسـه عـلى الأرض التـي كانـت تكسـوها الحشـائش الصغـيرة، وضـع ذراعَـه خلـف رأسـه ونظـر إلى السـماء وعينـه تتجمـد الدمـوع بهـما، وحلـم بالمـوت.. بالحياة التي يتمنى أن يحيا فيها يومًا واحدًا، ولكن هيهات.. أبوه يـراه سـارقًا محترفًـا ولا بُـدّ مـن أن يتخذهـا هوايـة يمارسـها وقتـما يشـاء.

شرد بعيـدًا، وفـاق عـلى وقـع أقـدام، نهـض ونظـر مـن حولـه وجدهـا عزيـزة تُقبِـل إليـه وهـي فرحـة، هـرول هـو الآخـر إليهـا وتشـبّث بيدهـا، ثـم نظـر في عينيهـا السـوداء، وقـال:

- عندمـا تأتـين أشـعر بأنـكِ تأتـين بقبَـسٍ مـن نـور يمـلأ هـذا الكـون، ويمـلأ حـزني وضيقـي نـورًا ويحوّلـه إلى فـرح.

نظـرَت لـه عزيـزة بصمـتٍ، ثـم جلسـت وأسـندت ظهرهـا للصخـرة؛ فهـي تحبـه وهـو يعتـبر القلـب الوحيـد الـذي ربـحَ بـه في هـذه الحيـاة؛ فيخشـى عليـه مـن كل شيء ويتمنّـى بقـاءَه حتـى يظـل حبـه حيًّـا، جلـس بجانبهـا وتشـبث بيدهـا قائـلًا:

- إذا قلت لكِ هيا نذهب هل تذهبين معي؟

قالت عزيزة وهي تداعب الرمال والحشائش التي تنبتُ بجانب الصخرة:

- إلى أين؟

قال رضوان سريعًا:

- إلى اللامكان.

قطبت عزيزة حاجبيها، ثم قالت:

- وأيـن يقـع هـذا المـكان يـا تُـرى؟ ثـم إذا ذهبنـا إليـه سـيتكلّف الكثـير ونحـن لا نمتلـك، لا.. ابحـث عـن مـكان آخر غير هـذا الذي تتحـدث عنه.

رقرقَت عين رضوان من كثرة الضحك، ثم قال:
- أنتِ مسكينة لدرجة لا تُصدَّق، اللامكان يا حبيبتي هو عدم.. فراغ.
قالت عزيزة متوسلة:
- ولماذا نذهب لهذا الفراغ؟ بل لدار صغيرة فيها أنا وأنت وليلى أختي، نحيا به ونسعد فيه، تكون بعيدة عن العزبة وأهلها، متى سنذهب يا رضوان متى؟!
قال رضوان بنبرة حالمة:
- سنذهب يا حبيبتي لأجل غير مسمّى، تعلمين أنني أحببتُك من أجلِ قلبك، نعم؛ فهو لا يشبه قلوبهم، فهو لا يحمل المكر ولا حتى الخداع، بل سذاجة مثل الطفل الذي لا يفرّقُ بين هذا وذاك، كم أحبُّكِ أنتِ والطفل الذي داخلك.
ربتَت على كتفه قائلة:
- ولكنه يشبه قلبَكَ، القلوب دائمًا تتقارب من أجل أن تكوّن الحب والعطف، وها هو قلبي اجتمع بقلبك، تعلم أن قلبي كاد أن يختفي وسط زحام الحياة، ولكن أنت أخَذتَه من وسط الزحام ثم وضعتَه وسط هدوء وصمت لا تخشاه الأذن، بل تُنصِتُ له بلهفة.
قال رضوان وكأنه يتذكر شيئًا:
- حقًا قلوبنا هكذا، ولكن نحيا مع مَن لا يرحم.
علمَت عزيزة من حديثه أنّ أباه هو المقصود، تعلم أنه يزعجه دائمًا، وتعلم في أي وقت أزعجه بالضبط؛ فرضوان عندما يتحدّث وتسقط دموعه دون أن يشعر، هنا هي تعلم، قالت وهي تنظر له:
- أبوك مرة أخرى، صحيح؟

هز رضوان رأسه، ثم قال:

- لو لا أنه أبي لكنت فعلت...

قاطعته عزيزة قائلة:

- لا تقل شيئًا يجعلك تندم عليه فيما بعد، اتركه وهيا نرحل بعيدًا عنه، لا أعلم لماذا يفعل معك هذا؟ كنت أتمنّى أن يكون والديّ أحياء حتى يحملَا عني العبء ولو قليلًا ويخفّفا ألمي، ولكن عندما أستمِعُ لك أحمد الله أنهما ليسَا أحياء، وإلا لكانا فعلا مثلما فعَلَا معك؛ فالقلوب تتقلب كل يوم، والظروف هي ما تقلّبها على أهوائها، وهما يقسيان دون رحمة ولا رأفة بنا، ويسيرا على خطَى أبيهما.

ربتَ رضوان على يدها، ثم قال:

- سوف نتزوج وأحمل عنكِ العبء ولو قليلًا.

قالت عزيزة وهي تُفلت يدها من بين يديه:

- عبئي سيظل وحزني سوف يزداد يومًا بعد يوم على ليلى المسكينة، إنها فتاة تعيسة الحظ أخشى غدًا بسببها، أتمنى أن يتولاها الله برحمته؛ فقلبي يتمزق على حالها، أعلم أنها لا تريد الحزن مني، بل تريد الدعم، ولكن ضعفتُ لدرجة لا تتصورها يا رضوان.

أزال رضوان دموعها، ثم قال:

- لا تحزني، بل كما قُلتِ تريد الدعم منكِ لها.

سارت عزيزة بضع خطوات مبتعدة عن الصخرة، ثم قالت وهي تلتفت لرضوان:

- أين ستذهب الآن؟

لوح رضوان بيده ثم قال:

- لـن أذهـب إلى أي مـكان، سـأنام هنـا؛ فهـذه الصخـرة هـي أبي وأمـي وحبيبتـي أيضًـا.

نظرت له عزيزة وعبسَت، ثم قالت:

- بـدأتُ أشـعر بالغـيرة مـن هـذه الصخـرة، ولكـن المـكان ليـس أمـان، وحبيبتُـكَ هـذه لـن تحميـك مـن شيء، بـل صخـرة موضوعـة لا تتزحـزح حتـى مـن مكانهـا.

قال رضوان وكأنه يتذكر:

- مـن قـال لـكِ هـذا؟ أنـا أشـكو ألمـي لهـا، وهـي تجيبُنـي بصـوتٍ ينبـع مـن داخلهـا لا يسـمعه أحـد إلا أنـا، ثـم هـذه الصخـرة هـي ماضينـا وحاضرُنـا ومسـتقبلنا أيضًـا، تتذكريـن عندمـا كنـا صبيـة نـأتي ونلعـب هنـا إلى أن يـؤذن المغـرب ثـم نركـض ونغنّـي ونخـبر الأهـالي بـأن يفطـروا حـان وقـت الإفطـار؟ كان هـذا في شـهر رمضـان الكريـم، وكنـا بينـما نحـن نركـض ونأخـذ التمـر مـن المـارّة؛ فكنـتُ أجذبـك مـن ضفيرتـك وآخـذ التمـر الموجـود في جيـب فسـتانك وأركـض، وأنـت تتمرغـين أرضًـا وتذهبـين تشـتكي لأبي، ثـم هـو الآخـر يركـض خلفَـكِ ويلعنـك ويلعننـي، كانـت أيامًـا جميلـة ونحـن نركـض هنـا وهنـاك، ونقـول أفطِـرْ يـا صائـم عـلى الكعـك العائـم، كـم كنـتُ أحـب هـذه الأغنيـة، لم أنسَـها ولـن أنسـاها إلا عندمـا أجعـل ابْنـي يحفظهـا مثـل اسـمه وأراه يركـض في وسـط الصبيـة ينشـده، اذهبـي أنـتِ ولا تقلقـي، اعلمِـي أن هـذه الصخـرة سـتدفع الخطـر بعيـدًا عنـي.

تنهّدَت ثم قالت:

- أتذكـر كل شيء، ولكـن أنـا سـأبقى معـكَ بعـض الوقـت ثـم

سأرحل، ولكن لماذا لا تذهب إلى جدتي حليمة، علمتُ اليوم أنكَ ستبدأ العمل معنا من فريدة، وإذا ذهبت لها لن تجعلك تعود خائب الأمل، بل سترحب بك.

هز رأسه وجلس يقضم في ثمرة باذنجان، ثم قال:

- كم تحبينني؟

نظرت له عزيزة باستغراب قائلة:

- الحب لم ولن يحتوي على هذه الكلمة؛ لأنه لا يقدّر بكمية من التي توجد حولنا.

توقف رضوان عن قضم الباذنجان قائلًا:

- كيف؟

قالت عزيزة وهي تبتسم:

- كنت أسير مع أبي قبل أن يتوفَّى، وسألني قائلًا كم تحبينني؟ فنظرت من حولي متلهفة على أن تقع عيني على أكبر شيء هنا؛ فوقعت عيني على هذه الصخرة؛ فقلت بنفس اللهفة التي بحثتُ بها، أحبك بحجم هذه الصخرة يا أبي؛ فوجدته يجلس ويسند ظهره لها، اقتربت منه وسألته لماذا تحزن؟ فقال لأنكِ تحبينني بحجم الصخرة، فقلت وأنا أضحك: لا تحزن يا أبي، بل أحبك بحجم السماء؛ فهي كبيرة، فقال وهو يربت على يدي: لا تحبي أحدًا هكذا مرة أخرى، ولا تلحقي بالحب الكم والكيف فهما زائلان، علمتُ في ذلك الوقت أن الحب لا يقدّر بكمية قط؛ فالصخرة هذه ليست أكبر شيء ولا حتى السماء، الحب فعلٌ نعم.. نفعله لمن نحب دون أن نحسب خطوات هذا الفعل تعلم لماذا؟ لأن الحب أرواح نقية تتعلق ببعضها لا تعرف

المكـر ولا الخـداع؛ فنحـن لسـنا بحاجـة إلى حسـاب خطـوات وتأمـين حسـابات، ولا حتـى لأوراق تضمـن حـق كل شـخص منـه، هـذا هـو الحـب الصـادق الـذي نريـده أنـا وأنـت، وأنـا الآن أقـول لـك مـاذا تريـد أن أفعـل؟

قال رضوان وهو يلثم يده برفق:

- أريد أن تذهبي حتى أطمئن عليكِ وعلى ليلي.

هـزت رأسـها وطلبـت أن تبقـى لدقائـق وسـترحل، وجلسـت بجانبـه بعدمـا نهضَـت، وتشـبَّثَت بيـده وأخـذت تتأمـل مداعبـة الشـمس للقمـر ومداعبـة القمـر للشـمس وكأنهـما همـا اللـذان يداعبـان أحلامهـما وحياتهـما التـي لا تطـاق.

***

(كـم نحـب حبًّـا مسـلوبًا معنـاه، وكـم نعشـق عشـقًا مزيفًـا مأخـوذًا من روايـات؛ فالحـب كلمـة، وليسـت كلمـة! بـل كلـمات عديـدة تحمـل معـاني كثـيرة لا تنفـد، فالحـب يـصرف الحيـاة؛ فهـو قانـون مـن قوانـين الوجـود يجعلنـا نتقـدم إلى الأمـام لا الخلـف، ولكـن هنـا مَـن يجعلـه في الحضيـض بأفعـال رخيصـة لحقَـت بـه إلى الـزوال)

(٤)

أَتَــت فريــدة بالطبليــة ووضعَــت الخبــز والبيــض المســلوق والمخلــل، ودعَــت أباهــا الــذي كان جالسًــا متفقّــدًا حــذاءَه خشــية مــن أن يكــون بــه عقــرب، نهــض وهــو يُلقِــي الحــذاء مــن يــده قائــلًا:

- اللعنــة عــلى هــذه العقــارب، تنــزل في أحذيتنــا بــدون اســتئذان، اليــوم قتلَــت فايــز ابــن الــدالي عندمــا ارتــدى حذائــه دون أن يتفقــده؛ ففعلَــت فعلتهــا.

قالت فاطمة وهي تمضغ الطعام:

- العيب عليه، كيف لا يتفقد حذاءَه؟

جلست فريدة ووضعت المياه بجانب أمها قائلة:

- لا تجوز عليه سوى الرحمة.

لم تنتــهِ مــن حديثهــا وكان صــادق منزلقًــا مــن البــاب وجالسًــا بجانبهــا وكأنــه مخــترق كافــة الحواجــز، نظــرت لــه فريــدة وارتجفَــت؛ فهــي تعلــم أن هــذا لــن يمــرّ عــلى خــير، أمــا إدريــس فألقــى الخبــز مــن يــده وهــرع إلى مــكان جلوســه، ثــم أمســكه مــن عنقــه وســحبه مــن أمــام الطعــام؛ فقــال وهــو يضغــط عــلى عنــق صــادق:

- وأخــيرًا حــضرتَ أيهــا الجبــان، كنــت ســوف أســأل عنــك مــن هــذه الجبانــة التــي كذبَــت عــليّ، كنــت أعلــم جيــدًا أنــكَ لم تخــرج ومــا زِلــتَ في المنــزل، والله أنــتَ وهــي تســتحقان الحــرق، لا.. الحــرق هــيّن، بــل الشــنق، كل ســاعة ألعــن اليــوم الــذي رأتْكــما بــه عينــي.

نهضَت فريدة وهي تقول:

- وما ذنب اليوم الذي تلعنه بلا ذنب؟!

لم يلتفِت لها، بل كان يراقب صادق الذي حاول أن يضع يده في جيبه، وأخرج منه خمسين جنيهًا، أعطى صادق إدريس، بينما جذبه إدريس من يده وراح يتشمّم الخمسين جنيهًا، ثم دفع صادق للخلف قائلًا:

- فعلتها مع مَن اليوم؟

لوّحَ صادق لأبيه، ثم جلس يتناول طعامه قائلًا:

- لا، هنا وتتوقف، نعم عند هذه الكلمة بالأخص، لا تقُل مَن سرقت؛ فهذه الكلمة تغضبني كثيرًا، ثم أنت أخذتَ ما تريده، إذًا التَزِم الصمتَ رجاءً يا أبي.

ارتفع إدريس في الهواء، وكان ينزل على قدم واحدة مثل الطفل؛ فقال وهو يصفق ويسير بهذه الحركة البهلوانية، حقًا ابن إبليس وليس إدريس، قالت فاطمة ساخرة:

- ماذا فعل سوى أن سرق؛ فالجميع في العزبة يسرق الكثير، بينما هو يأتي بخمسين فقط، ثم أين حقي يا ولد؟ لماذا تعطي أباك ولا تعطيني؟ أنا أريد.

قطب صادق حاجبيه، ثم قال:

- أمي، ماذا قُلتِ الآن؟ إنني أسرق القليل؟! هذا يعني أنني لا أمتلك كي أعطي لكِ، ابحثي عن من يعطي لكِ الكثير.

أسرعَت فاطمة بقضم الخبز، ثم قالت:

- أأنا قلتُ شيئًا؟! سامحكَ الله يا بني، أنت دائمًا هكذا تجور على حق أمك، ثم لا يهمني أن تسرق القليل أو الكثير، كل ما يهمني أن يكون لي

نصيب، ألستُ أنا أمك التي أفنَت عمرها كي تكبّرَك وتربيك؟

قال صادق متلهفًا:

- وتجعلَنِي لصًّا ثم تطالبَ بحقِّها في ذلك، أعلم يا أمي بجميلِك العظيم لن أنساه، أعدكِ في المرة القادمة سوف أعطي لكِ، لا تقلقي.

ضربت فريدة كفًّا بكف من هذا الجنان الذي نزل في بيتهم قائلة:

- والله تعجبتُ لكِ يا أمي أنتِ وأبي، بدلًا من أن تقولي له لا تسرقْ، تجعلينه يسرق إلى متى؟ سيظل لصًّا إلى متى يا أمي؟! تطالبين بنصيبك؟! وإلى متى يا أبي تتشمّم الفلوس مثل الـ...

قاطعها صادق قائلًا:

- ليس لكِ شأن بأي شيء.

دفعته فريدة للخلف، ثم قالت:

- أنا من سيجعلكَ تتوقف، سوف تعود إلى حقل جدّتِكَ وتعمل معنا، هي سمحت لكَ بالعودة؛ فأنت كنت تعمل وتأخذ، ولكن الداء الذي في نفسِك يا أخي جعلَكَ تخسر، جدتُك كانت محقة عندما قالت لك إنك مريض، فعلًا مريض، حتى جدتك لم تنجو من سرقتك، بل سرقتها وأخذت الكثير من خلفها، وكنت تذهب إلى السوق لبيعه وهي تعلم بذلك، ولكن أصرَّت على الصمت حتى لا تزعجك، ولكن في نهاية المطاف طفح به الكيل، عُد يا أخي لها، هي أذنت بذلك.

لوّح صادق بيده، ثم قال:

- بل هي عنيدة ولن تسامحني، وفي الحقيقة لا تحبني، وأنا لا أحبها أيضًا.

صرخت فاطمة مشمئزة، ثم قالت:

- اللعنـة عليـك، كيـف تقـول هـذا عـلى جدتـك؟ أنسـيتَ أنهـا أمـي؟ ثـم هـي ليسـت منتظـرة حبـك ولا حتـى كرهـك.

قالت فريدة بضجر:

- أقسـم يـا أخـي أننـي أشـمئز يومًـا بعـد يـوم مـن هـذه الأفعـال الرخيصـة التـي تقـوم بفعلهـا؛ فأنـت نـذل، والأنـذال ليـس لهـم مـكان هنـا، وسـتكون نهايتـك قريبًـا.

قال صادق بغضب:

- أبي، قل شيئًا وإلا سأقتلها.

ما زال إدريس يتشمّم في الخمسين جنيهًا قائلًا:

- افعلهـا وأنـا سـوف أسـاعدك في ذلـك، إنهـا تسـتحق المـوت، ثـم مـا شـأنكِ أنـتِ؟ يـسرق يقتـل ليـس لـكِ دخـل، كل مـا عليـكِ فعلـه هـو أن تخـرسي.

قال صادق مسرعًا:

- صدقـت يـا أبي.. تخـرس؛ لأن إذا لم تفعلهـا فسـأقطع لسـانها حتـى أجعلهـا تكـفّ للأبـد.

وقفَت فريدة مثل الصنم، ثم قالت:

- اللعنـة عليـكَ أينـما ذهبـت؛ فأنـتَ حـشرة سـوف تُسـحَق أسـفل أقـدام الخلـق الذيـن تـسرِقُ قـوتَ يومِهـم، وجدتُـك سرعـان مـا نسـيتَ فضلهـا عليـك، أنـت ناكـر للمعـروف.

وضـع إدريـس الورقـة في جلبابِـه، وأسرع تجاههـا بحركـة آليـة، ووضـع يـده عـلى فمهـا واليـد الأخـرى أمسـك بعنقهـا، ثـم قـال:

- أنـا رأسِي يـدور مـن كثـرة كلامـك، إذا سـمعتُ لـكِ صوتًـا سـتندمين

طـول عمـرك، فهمـتِ أم لا تفهمـين فأعيـد مـرة أخـرى؟

هـزت فريـدة رأسـها وهرعـت أعـلى تنتحـب في البـكاء وتكتـم صوتهـا خشـية مـن أن يُسـمع لهـا صـوت فيجعلهـا تنـدم عـلى ذلـك، تعلـم أن أخاهـا لـن يتغـير إلا عندمـا يتغـير والـداه، ولكـن همـا لـن يتغـيرا، سـتظل تعـاني وتحيـا في ألم شـديد.

صعـد صـادق خلفها وهـو يغني ويتمخطـر يمينًا ويسـارًا؛ فوقـف أمامها ونظـر إليهـا، فكانـت هـذه النظـرة كفيلـة أن تجعلـه يسـقط أسـفل قدمهـا وينتحـب مثـل الطفـل الـذي يتمنَّـى الغفـران؛ فقـال بصـوت محـشرج:

– مـاذا أفعـل؟ قـولي لي مـاذا أنـا أفعـل؟! ثـم إذا لم أفعـل ذلـك لكنـت بِـتُّ الآن في الخـارج، وأنـتِ تعلمـين أن خـارج بيوتنـا مذلـة وألمـًا.

نظرت له فريدة وتشبثت بيده، وقالت بصوت يخنقه البكاء:

– لا أعلـم لمـاذا تفعـل ذلـك؟ إذا كنـتُ أعلـم لكنـتُ شـعرت بالارتياح، أنـا أخشـى الزمـن عليـك يـا أخـي، فكنـتُ أتمنّـى ألا تمـدّ يـدك عـلى مـال غيرك .

جذب صادق يده وجلس قائلًا:

– لمـاذا لا تفهمـين أننـي أفعـل ذلـك مـن أجلكـم، فهـل نحـن نختـار أن نكـون كذلـك أم الظـروف التـي نحيـا بهـا هـي مـن تفـرض علينـا ذلـك؟ أتعلمـين؟ إذا كانـت هـذه الحيـاة خُلِقَـت ولم تصحبنـا لعنـة آبائنـا لكانـت الحيـاة جنـة، ولم يكـن هنـاك وجـود لجنَّـة أخـرى ولم نعلـم باسـم النـار ولم نكـن بحاجـة إلى يـوم الحسـاب، أقسـم أننـي أكـره نفسي وأكـره أبي وأمـي أيضًـا، وأكرهـك، أكـره الجميـع وأشـمئز منهـم ومـن نفـسي بطريقـة لا تُصدّق، كل يـوم ألعـن الحيـاة فـما قيمتهـا؟ نعـم.. مـا قيمـة هـذه الحيـاة؟!

صمت برهة ثم قال:

- أقول لك أنا ما قيمة هذه الحياة، قيمتها تكمن في الصفع والركل واللكمات المتتالية الموجعة لنا، سأقول شيئًا آخر.. أنا لن أكفّ عن السرقة، ولا تتحدثي معي في هذا الأمر مرة أخرى؛ فبدون السرقة لن نحيا، فآدم نزل من الجنة من أجل تفاحة، فماذا نحن بفاعلين سوى أن نقلد آباءَنا وننزل من الجنة لأسفل السافلين، ثم أنتِ تقولين إن السرقة داء، بل أنا أعتبرها دواء لي ولكم؛ فأنا أتلذّذ عندما أركض خلف أرنبة أو أوزة هنا وهناك، اتركيني يا فريدة اتركيني.

نظرت له فريدة نظرة مليئة بالعطف؛ فهي تريد أن تحتضن أخاها وتحفظه من هذا العالم القاسي، ولكن لن تستطيع؛ فالموج أخذه وأنزله إلى الأعماق، فسوف يختنق ويموت، ويحسب أن الموج الذي أدخلَه سيُخرجه، انزلقَت من على فراش صادق ثم قالت:

- تصبح على طريق مستقيم يا أخي غير هذا الذي تسير فيه.

نظر صادق وتحسّر على ما تقوله؛ فهذا الطريق مبتعد كثيرًا، سوف يحتاج لأميال كي يصل إليه، بعدما هبطت فريدة ألقى بنفسه على الفراش وتطلَّع للقمر المضيء؛ فتمنّى أن يأخذه وينقله لعالم غير هذا العالم، بل لمجرة أخرى غير هذه حتى يستريح من كثرة الركض خلف الأرانب، آه يا فريدة! تظلمينني بحديثك وأنا صامت، نعم ماذا أفعل غير هذا؟ أليس أنا بشر منهم؟! ولكن هم لا يحسبون أننا منهم، بل هم أولاد آدم ونحن أولاد الله، أعلم.. نسرق كي نحيا ونسرق من أُسَر جائعة يربطون بطونهم من الجوع؛ فنحن نسرق بعضنا، يرون ذلك بأعينهم ثم يضحكون، أسرق نعم.. من أجل

الحياة؛ فأنتِ يا فريدة ليس لكِ وجود هنا؛ فهذا ليس مكانك فأنتِ ثوبٌ أبيض لم يُدنّس إلى اليوم، أخشى أن تدنّسكِ أيديهم وأقدامهم، ولكن إذا لم يفعله هم فسيفعله الزمن، الزمن الذي يجني على الجميع، آهٍ وألف آه، خذني يا قمر حتى أستريحَ من ركض طول اليوم خلف أرنبة أو أوزة، كان يحدث نفسه بهذه الطريقة مثل المجنون.

تذكر اليوم الأول الذي سرق فيه.. ظلّ يركد خلف بطة حتى أخرجها بعيدًا عن أعين الناس ووضعها تحت ذراعه، وهرع بها إلى السوق؛ فكانت البطة تزن حوالي أربعة كيلو جرام، فعلم أنها سوف تجلب له مبلغًا لا بأس به، فوقف تحت أشعه الشمس الحارقة لمدة ساعة؛ فأتت له سيدة كي تشتريها وعرضت عليه مبلغًا قليلًا، ولكنه رفض؛ فهي تستحق الكثير، انتظر ساعة أخرى، وكلما أتى له أحد يرفض بيعها؛ فأتت له في نهاية المطاف سيدة وسرعان ما رأت البطة في يده، وصرخت بصوت مجلجل قائلة:

- أيها اللص، أنت لص، علمتُ من الذي يسرق الأوز والبط كل يوم.

ازدرد ريقَه قائلًا:

- ماذا تقولين؟! أنا لم أسرق من أحد، أمي هي من أعطتها لي كي أبيعها.

فقالت المرأة وهي تمسك بذراعه:

- كاذب؛ فهي ملك لي أنا.

دفعها للخلف قائلًا:

- ولماذا تكون ملكًا لكِ أنتِ؛ فجميع البط والأوز يتشابه كثيرًا، أنتِ امرأة مجنونة، ابتعدي عني، هيّا اذهبي لحال سبيلك واتركيني

أبحث عن مشترٍ إذا لم تشتري أنتِ.

حاول أن يُبعِد المرأة عنه، ولكن المرأة تشبّثَت برقبته ورقبة البطة، وقالت وهي تتشبّث به:

- علمتُ أن السرقة أصبحَت مثل داء الإنفلونزا تنتشر بسرعة كبيرة؛ لذلك وضعتُ بكل البط الذي لديّ شريطًا أحمر في جناحه الأيمن، انظر أيها اللص إلى الشريط الذي به ها هو.

لقد وقعَت الواقعة، ماذا يفعل كي يخرج من هذه الورطة؟! فقال متلعثمًا في حديثه:

- أمي هي من تفعل ذلك، وأنتِ إذًا مَن تسرقين ذلك منا أيتها الجبانة.

سمعَت المرأة هذا، وصرخَت قائلة:

- الله يخرب بيتك أنت وأمك أيها الجبان؛ فهي لم تعلِّمْكَ الأدب والاحترام.

علم أنّ ليس لوقعته كذبة تنجيه من هذا؛ فما قاله مسخ، ازداد صراخ المرأة وهما متشبّثَين بالبطة حتى كادت أن تختنق في أيديهما، فنزل صراخ المرأة على السامعين وكأنه رعد هبط من السماء، وهنا وجد الركلات والصفعات واللكمات والشتائم التي تشبه قذائف المدفع، لم يعلَم لماذا وضع نفسه في هذا المأزق الذي كاد أن يفقده حياته، منذ ذلك الحين تعلّم درسًا مهمًا.. هو أن يتفقد كل شيء قبل الذهاب إلى السوق وينتزع الخيوط؛ فالنسوة هنا ماكرات لدرجة أنهم يصبغُون الأواني ويكتبون أسماءَهن عليها، ويضَعْن أشرطة وعلامات كثيرة في كائناتهن.

تذكَّر ذلك ولم يكفّ عن الضحك حتى كاد أن يختنق من كثرة الضحك؛ فسمع فجأة وقع أقدام قوية تصعد الدرج، قفزَ من مكانه

مثل النحلة النشيطة؛ فوجد أباه يحمل مُنَى وفريدة خلفه، وأمه تمسك عصا في يدها وتهرع خلفهم بهلع، فقال صادق متلهفًا:

- ماذا حدث؟

قال أبوه وهو يلهث من الخوف:

- ا ه ل كش.

قالت فريدة وهي تجلس على الفراش، وتضع يدها على صدرها من الرعب الذي يحيط بالجميع:

- يقولون إن ع عزبة الكاشف هجمَت على عزبة الصخرة يقتحمون بيوت الخلق ولا يرحمون أحدًا.

هرع صادق إلى النافذة الصغيرة وأبعد قطعة القماش التي تضعها أمه؛ فسمع أصواتًا ورأى الراكضين هنا وهناك لا حول لهم ولا قوة، فقال:

- مرة ثانية عزبة الكاشف! إنهم لم يحرموا، أنا سأذهب.

هرعت فاطمة تجاهه قائلة:

- اصمت، ليس لكَ شأن بذلك.

بينما قالت فريدة وهي تهرع إلى النافذة:

- اللعنة على لملوم، هو الذي أعطاهم الحق بدخول عزبتنا.

لطمَت فاطمة خدّها وهرعت إليهم، ودفعتهم أمامها مثل الدجاج قائلة:

- ليس وقت اللعنات الآن، أتريدين أن تخربي بيوتنا، ادخلِي.. سنظل جميعًا في هذه الغرفة اليوم؛ فهي أماننا، ليس بها منفس.

دخلوا إلى الغرفة التي تشبه الكهف؛ فكانت مظلمة لدرجة لا تُصدّق، وتخلو من النوافذ، تشعر وأنت داخلها كأنك داخل قبر وليست غرفة، فكم هي ضيّقة وتشعر بالاختناق فيه! انزوَى كل منهم

في ركن من أركانه وغرقوا في النوم، بينما فريدة جلست خلف الباب الذي أغلقَته أمها بالمفتاح ووضعته أسفل وسادتها؛ فكانت تنصت من خلفه، سمعَت صوت صراخ الأطفال الذين يبلّلُون أنفسهم من الرعب وصراخ النساء التي لا حول لهم ولا قوة، وأصوات الحمير التي تركض هنا وهناك؛ فهؤلاء لا يرحمون أحدًا، يريدون أن يتخذوا لأنفسهِم مسكنًا في العزبة؛ فهم ملعونون أينما ثقفوا، ليس لهم مسكن فيفرضون نفسهم على غيرهم.

في المرة السابقة خرجوا؛ فتصدّى لهم أهالي العزبة، ولكن عادوا مرة أخرى بعدما أذِنَ لهم الملوم بأن يسكنوا ويتخذوا لأنفسهم بيوتًا وسط أهل العزبة؛ فهم يستبيحون ويقتلون بكل دم بارد حتى يكتموا الأصوات التي ترفض مسكنهم، ولكن أهل العزبة يمتلكون الصوت، الصوت فقط الذي سيظل السلاح القوي لهم، أما هم فيمتلكون المال والسلاح الذي يظنون أنهم يُخضِعون أصوات الأهالي به.

***

(الصـوت هـو في ذاتـه سـلاح يقْهِـر ويزلـزل نفـوسَ مَـن يفـرضُ القـوة، فيـا صاحـب الصـوت اجعلـه يعلـو إلى أن يصـل إلى السـماوات السـبع، وحتـى إلى سـدرة المنتهـى؛ فمـن يعلـو صوتـه لا يخشـى علـوّه؛ فصـدى صوتِـه تسـمعه الجبـال والسـهول، وتجيـب عليـه الأشـجار والنخيـل بـأن صوتـه مـا زال في النفـوس، ويزلـزل قلوبًـا كادت أن تختلـع مـن مكانـه.)

(٥)

بسطت الشمس بضوئها على العزبة بعد أن كادت لا تضيء، ودبَّت الحركة في الشوارع، وبدأت تعلو أصوات الحيوانات هنا وهناك وكأن الحياة عادت بعد موتها، سمعَت فريدة الأصوات وعلمت أن الشمس أشرقَت بالتأكيد؛ فهي حقًّا كانت داخل قبر، تحسّسَت طريقها حتى وصلَت للباب وانزلقت خارج الغرفة وهرعت لأسفل، بينما وهي تحضر كتبها لتذهب إلى فصل المعرفة حتى تعلم بالأخبار وتطمئن على جدتها، كانت أمها واقفة على الدرج وتفرق في عينيها قائلة:

- والله تتعبين نفسكِ، انظرِي لي أنا لم أُتعِب رأسي في التفكير، لماذا تتمسكين بفصل المعرفة؟ ثم اذهبي إلى المكان الذي سيطعمنا خبزًا.

نظرَت فريدة إليها ولم تُجِبها، فقالت المرأة:

- ستعلمين أنني على صواب وأنت على خطأ، ستعلمين ذلك.. انتظري فقط.

خرجت فريدة وسارت بخطى متعجلة؛ فقررت أن تذهب إلى جدتها أولًا، رأت الشوارع مليئة بالنحيب؛ فعلمت أن هناك من قُتِل؛ فالدماء مثل النهر في الشوارع، وصلَت إلى الحقل فوجدت جدتها تحصد بمفردها في الأرض، بينما رضوان يتمدّد أسفل الشجرة معصوب الرأس، هرعت إليه فريدة قائلة:

- رضوان، ماذا بكَ؟ ولماذا تعصب رأسَك هكذا؟

تركت الجدة ما كانت تعمل فيه، ونهضت متوجهة إليهما باسمة

الوجـه قائلـة:

- لا تقلقي، إنه بخير، اجلسي.

جلست فريدة بجانب رضوان وجدّتها، ثم قالت:

- كيـف لا أقلـق؟! أهـالي الكاشـف هـم مـن فعلـوا ذلـك، وتقولـين لي لا تقلقـي! الشـوارع مليئـة بالدمـاء والأهـالي ينتحبـون، أهنـاك مَـن قُتـل؟

قال رضوان بصوت متعب:

- مـات خمسـة أفـراد عـلى أيديهـم، غـير الـذي جُـرح، أقسـم لـولا جدتـك حليمـة لكنـتُ أنـا السـادس عـلى مـا أظـن.

قالت فريدة وهي تضرب جبينها بيدها:

- الله يلعنهـم كـما لُعِـن أصحـاب السـبت، كنـا نسـمع الصرخـات، لكـن أمـي لم تسـمح لأحـد بالخـروج، لمـاذا خرجـت أنـت؟

قال رضوان وهو يتوجع:

- في الحقيقـة كنـت مطـرودًا مـن المنـزل، وكنـت أنـوي النـوم بجانـب الصخـرة، وعندمـا أغمضـتُ عينـي وجـدتُ الـركل مـن كل قـدم، أخذوني معهـم لداخـل العزبـة وألقـوا بي أمـام منـزل، ومـن حسـن حظـي كان منزل جدتـك حليمـة.

قالت فريدة وهي تترقب حولها:

- اسـتخدموك ليخيفُـوا أهـالي العزبـة، بـل كنـتَ أنـتَ الطُّعـم الـذي سـيصطاد الفريسـة.

قالت حليمة وهي تتنهد بعمق:

أهـالي العزبـة صمتـوا هـذه المـرة، وللمـوم وقـف مـع أهلـه.. أهـل الكاشـف، وهـدّدَ كل الخلـق.

قال رضوان متوعدًا للملوم:

- آه يا لملوم! بحق كل قدمٍ نزلَت على جسدي لأسوّي بك الأرض أنت وكل أهل الكاشف.

قالت فريدة ساخرة:

- تسوِّي بمن؟ بلملوم؟! والله مسكين يا رضوان، ألم ترَ نفسَكَ كيف تعصِبُ رأسك ولم تستطع حتى النهوض، هو من سيسوّي بالجميع الأرض.

قالت حليمة وهي تخطّ في الأرض:

- لملوم زرع أهل الكاشف وسطنا، الله ينتقم منه.

قال رضوان وهو يتحسس رأسه:

- هدفه هو الاستحواذ على أرض العزبة، هذا هو هدفه الوحيد.

قالت الجدة بضجر بعدما نظرت إلى أرضها واحتضنتها بنظراتها:

- لملوم لم يكن يمتلك ولو حتى شبرًا من هذه الأرض، لكن بِذْلَتِه وكلامَه الحلو مع الأهالي الذين وثقوا فيه وأعطوا له على أملٍ أن يطعمهم ويجعلهم يعملون ويحميهم من البرد، والكل صدّقَ وساروا خلفه معصوبي العين، والكل باع، وهو تاجَرَ بهذه الأرض وأتَى بأهله أهل الكاشف، لملوم ليس منا ونحن لسنا منه، هو فقط يحيا هنا منذ زمن والجميع صدّقَ أنه فردٌ من أفراد عزبة الصخرة.

قال رضوان وعلى وجهه علامات استفهام:

- هذا يعني أن لملوم ليس من أولاد العزبة، ولكن أمي كانت تقول لي إن هناك صلة قرابة بيننا.

قالت الجدة حليمة وهي تنهض:

- هذا ليس صحيحًا بالمرة.

قالت فريدة وهي شاردة:

- لكن ما هو هدف مملوم في أن يأخذ أرضَ الخلق بهذه الطريقة؟

قالت حليمة متعجلة:

- هدفُه أن يبني الكثير من المنازل التي لم نرَ مثلها من قبل، وعندما يبني يعطي، ولمن سيعطي؟ لأهل الكاشف، ثم يكثر عددُهم ويكونون خيرًا منا، ونحن نترك لهم الجَملَ بما حمل ونخرج، أقسمُ لكم أنّ الكثير ترك أرضه ورحلَ بسبب حمودة والروخ هم أجبروا الكثير على الخروج؛ لأنه هدّدَهم عندما رفضُوا وطالبوا بحقهم في المنازل التي بُنِيَت والعمل الذي سيوزع عليهم كما قال، لملوم يريد أن يكوّنَ مكانًا له ولأهله على حسابنا، ولكن أقسم أنه لن يُفلِح.

قال رضوان:

- الشيء الذي لم تسمعوا عنه إلى الآن أن خمسة عشر عائلة أتَت أمس، وكل ما حدث كان بسببهم، تعلمون لماذا؟ لأن لملوم أعطى لهم منازل وهم أصبحوا الآن أهالي عزبة الصخرة، وسيأتي اليوم مثلهم مرّتين أو ثلاث.

كادت تنفجر فريدة من كل هذا؛ فنهضَت وقطفَت ورقة من فرع الشجرة، وجلست تمزقها من الغيظ، بينما عزيزة التي كانت تُقبِل عليهم وهي تنتحب في البكاء والعويل؛ فنهضت فريدة من مكانها قائلة:

- ماذا حدث؟ هل هناك شيء؟

قالت عزيزة بصوت يخنقه البكاء:

- أين رضوان؟

راحَت تتلفَّت يمينًا ويسارًا مثل الذي فقد شيئًا؛ فسرعان ما

وقعت عينها على رضوان الذي كان يحاول النهوض، فهرعت إليه واحتضنَتْه وهي تنتحب، بينما بكى هو الآخر بدوره قائلًا:

- كنت سأموت.

جلسوا جميعًا وكان الصمت رفيقهم، إنهم صامتون من الخارج ولكن من داخلهم يشتعل ويهتف وكأنهم في ميدان، كسر هذا الصمت وقع أقدام قوية وصوت سيارات، وقفت السيارات أمام الحقل؛ فجعلت الماعز تركض هنا وهناك، والحمير يزداد نهيقها وكأنها رأت إبليس، نهضوا من شدة الفزع الذي أصابهم؛ فتطلعت فريدة في السيارات لكنها لم ترَ شيئًا؛ فالتراب الذي كان في الجو ملأ عيونهم، ولكن لمحَت رجُلًا ينزل من سيارته، كان بدينًا وقصير القامة ذا أنف أحمر ورأس أصلع، فقال الرجل وهو يغلق باب السيارة بعدما نزل:

- أهلًا بالشباب!

اقتربَت الجدة حليمة من فريدة وتفرّسَت في وجه الرجل، بينما استند رضوان على كتف عزيزة، وقبل أن تنبسّ حليمة نزل رجل آخر ذو وجه نحيف صارم ورأس تشعر أنه كتضاريس الجبال ليست طبيعية، كان يمسك مسبحته ويداعبها، فقال وهو يبتسم:

- بدون ترحيب، أنت لستَ غريبًا يا مرزوق؛ فأنت من اليوم من أهالي عزبة الصخرة.

ردت حليمة قائلة:

- التحية واجبة على الغريب والقريب يا ملوم، وهو غريب عن عزبتنا، اتركنا نعلم به ونرى ماذا يريد بالضبط.

صرخ حمودة في وجهها قائلًا:

- احترمي أسيادَكِ وإلا سأقطع هذا اللسان.

قال لملوم وهو يضع يده على كتفه:

- وحد الله يا شيخ، حليمة امرأة عاقلة، ولكن عقلها ذهب هذه الأيام، ولكن سنتفاهم نحن الاثنان؛ فليس بيننا فرق.

قالت حليمة وهي تهرع تجاه مَن كان يقف:

- ورب السماوات هناك فرق بيني وبينك، ماذا تريدون؟ وفر وقتك بدلَ أن تضيعه في هذه المقدمات وقل المفيد.

قال لملوم وهو ينظر نحو الأرض:

- ألم أقل أنكِ امرأة عاقلة وتفهمين سريعًا، الأخ مرزوق من أهالي الكاشف يريد أن يشتري أرضَكِ؛ فالعزبة كلها تتحدث عن أرضِكِ الخصبة؛ فهو لذلك يريدها.

انتفضَت حليمة من مكانها وقالت:

- ماذا قُلت؟! أرضي! أجننتُ أنا كي أعطي أرضي لكلبٍ مثلك ومثله؟!

سمع لملوم واشتعل الغيظ في رؤوس الاثنين؛ فأقبل إليها رجل شديد البنية ذو عينين جاحظتين يُدعَى حارس من أهالي الكاشف؛ فهو يعمل مع مرزوق، اقترب منها وصفعها على وجهها؛ مما جعله تسقط أرضًا والدم يسيل من فمها، ركضت عزيزة إليه، بينما ركض خلفها رضوان وكأن ألمه زال، بينما تجمدت فريدة مكانها؛ فأمسك رضوان حارس من عنق قميصه؛ فأسقطه حارس في حوض الماء الذي يوجد خلفه قائلًا:

- أأنت حيّ إلى الآن؟ ظننتُ أنّك مِت، لكن لا تقلق.. ستموت اليوم.

وضع رأسَه في حوض المياه، أفاقت فريدة على صوت صراخ

رضـوان؛ فركضَـت إلى حـارس وأمسـكَت حفنـة تـراب في يدهـا قائلـة:
- هذه الأرض تريدونها؛ إذًا خذوا.
انهـال الـتراب عـلى جميـع الواقفـين، صرخ حـارس وراح يفـركُ في عينَيـه، ويأخـذ مياهًـا ويضعهـا عـلى وجهـه، بينـما مـرزوق راح يبصـق في كل مـكان مـن كثـرة الـتراب الـذي دخـل في فمـه، أمـا مللـوم وقـف مثـل الصنـم لم يتحـرك ولا خطـوة واحـدة، فأمسـك حمـودة فريـدة وانهـال عليهـا بالـضرب؛ فاسـتجمعَت الجـدة قوّتهـا وراحـت تقـف في وجهـه وهـي تـصرخ وتلطـم خـده؛ فتراجـع حمـودة وهـو خائـف، فقالـت الجـدة وهـي مـا زالـت تـصرخ:
- كلاب، قُـل لسـيدك أنني لـن أتـركَ أرضي وأرض أجـدادي، وأقسـم أنني مـن اليـوم، وليـس اليـوم فقـط، بـل مـن هـذه اللحظـة لـن أبـرح هـذه الأرض إلا عـلى قـبري، حتـى سـأدفن فيهـا؛ فهـذه ملكـي وملـك آبائـي، ولـن أفـرّط في شـبر منهـا مهـما فعلـت.
قال مرزوق وهو مازال يبصق:
- نحـن أردنـا، وعندمـا نريـد فـلا يجـوز أن تريـدوا، سـآخذ هـذه الأرض وسـأفعل مـا أريـده بهـا؛ فهـذه ملـك لنـا، نعـم ملـك آبائِنـا نحـن، فمـن هـو أبوكـم وجدُّكـم كـي يـترك لكـم أرضًـا؛ فـكل هـذه الأراضي ملـك لنـا؛ فأنتـم لا أصـل لكـم.
صرخت حليمة بصوت غائب قائلة:
- ومـاذا تعلـم أنـت عـن الأصـل كـي تتحـدث عنـه؟! أنتـم أتيتـم بالقـوة وسـتخرجون بنفـس هـذه القـوة.
أشـارت الجـدة بإصبعهـا عـلى حمـودة والشـيخ عبـد الصمـد الـذي

يساندهم في أخذ الأرض من الأهالي قائلة:

- هؤلاء كلاب وأنتم تساندونهم في أفعالهم، اللعنة عليك يا حمودة! بِعتَ أهل عزبتك ووقفت معهم، فأنت وُلدتَ على يدي، لو كنتُ أعلم أن يدي سيُولد عليه يومًا شخصٌ خبيث ونذلٌ مثلك لكنت قطعتها، وأنت يا شيخ عبد الصمد كنت أسمع صوتك وأنت تؤذن وأقول الخير قادم، ولكن أتيتَ بالشر ووقفت معهم ضدنا نحن، نحن الجذور والأصل، ينكرون اليوم ألّا أصل لنا.

صرخَ لملوم في وجهها قائلًا:

- كُفِّي عن هذا، غدًا اتركي الأرض؛ لأن مرزوق سيستلمها؛ فأنت لست وجه خير، كان سيعرض عليكِ مالًا، والآن لن تحظي ولو بمثقال ذرة، وهذه الفتاة ابنة بنتك سأقطع يدها، وهذا الكلب رضوان سيموت على يدي، أما أنتِ سأجعل لكِ مفاجأة يا عزيزتي.

صعدوا سيارتهم، بينما ركضَت حليمة خلفهم وهي تلعنهم، بينما ساعدت فريدة وعزيزة رضوان حتى يخرج من الحوض الذي ابتل فيه، لمحَت فريدة جدتها التي ما زالت تركض خلفهم وتقول:

- لن تستطيعوا فعل شيء.

سقطَت أرضًا بعدما تعبَت من كثرة الركض؛ فهرعت إليها فريدة لتحضرها، بينما أسندت الجدة ظهرها إلى الشجرة، وأمسكَت حفنة من التراب وظلّت تلثمه قائلة:

هذه الأرض ولدت فيها؛ فهي توصلني بأبي وأمي وزوجي وابني الذي مات وهو يحصد فيها، والله سأموت إذا أخذوها، هل سيأخذون الأرض يا فريدة؟

بكت فريدة على حال جدتها؛ فاحتضنتها وانتحبَت قائلة:

- لن يأخذوا شيئًا أقسم لكِ.

فقال رضوان الذي كان يرتجف من شدة البرد:

- لا يا فريدة.. لا تجعليها تحيا في الوهم، هم يمتلكون الكثير ونحن لا نمتلك شيئًا، أنتِ تحتاجين لحمودة والروخ ومرزوق كي تسترجعي أرضَ جدّتك، ماذا تظنين أنت؟! ألم تري كيف اعتدى عليكِ حمودة دون رحمة ولا شفقة، الروخ كان يريد أن يعتدي هو الآخر، طبعًا لا بُدّ أن يتظاهر بالوفاء أمام سيدة.

قالت فريدة وهي تطرد حديث رضوان من ذهنها:

- استرجاع الأرض يحتاج لصبرٍ وليس قوة.

قال رضوان ساخرًا:

- إذًا سوف يأخذ الأرض وسيأخذكِ مع الأرض.

قالت عزيزة وهي تجلس بجانب حليمة:

- لا يا رضوان، بل ستعود وستكون لنا.

فقال رضوان صارخًا:

- أنتم تحلمون، فوقوا من هذه الأحلام بدلًا من أن تتحول لكابوس لن نفيق منه للأبد، حتى الحلم محرّم علينا، إذا حلمنا سوف يخرجون عقولنا من رؤوسنا؛ فاحلمي بينكِ وبين نفسك أحسن لكِ ولنا.

قالت فريدة وهي تزيل دموعها:

- هذا ليس وقت يأس يا رضوان.

قال رضوان وهو يلوّح بيده:

- لا بل حقيقة، كل ما قلته حقيقة، لكن أنتم تحيون في الوهم،

تستطيعين أن تقولي ما ذنبي أنا؟ أنا لا أمتلك ولا حتى لشبرٍ من الأرض واعتدوا عليّ، انظري لحالي كيف أبدو أمامك؟ القصة ليست قصة أرض، بل أكبر من الأرض.

قالت فريدة وهي تمسك يده وتضعها على خده:

- أريدك أن تجلس بجانب جدتي وتضع يدك على خدك مثلها وتسلم الأمر، لا تكن جبانًا؛ فهذا ليس وقت الجبن، بل الشجاعة يا رضوان، إذا خِفتَ وتراجعتَ الآن فسوف تتراجع غدًا، أنا سأذهب وسأفعل كل ما بيدي حتى ولو وصل الأمر إلى الموت، انتظر هنا هذا مكانك.

جذب رضوان يده، ثم قال بخجل:

- وعلى ماذا أنتظر في النهاية؟ لديّ أحلام لكن مع وقف التنفيذ.

لثمت فريدة يد جدّته وذهبت دون أن تنبسّ، بينما هرع خلفها رضوان، وعزيزة وحليمة ما زالت تحتضن حفنة التراب وكأن هذا ابنها الذي مات؛ فهي تريد أن تحتفظ بما يربطها بهذه الأرض، وليست الأرض ذاته.

***

الماضي وصلة توصل أنفسنا بعالم مضَى، نتذكره ونتبسم ثم نخجل وكأن الماضي مداعبٌ لنا في نفوسنا، بينما نتذكره ونحزن حزنًا لا يوصف، وكأن القلوب حُكِم عليها بأن تظل سجينة هذا الماضي الأليم، ندعو النسيان أن يزورنا، ولكنه يتمرد علينا، ونتذكر أكثر حتى تكاد قلوبنا تتمزق من الألم، فكم يختلط ماضي بحاضر وينسج الاثنان حياة تمتد أمام أقدامنا نسميها المستقبل، فكم تتداول النفس بين هؤلاء الثلاثة الذين يكونُون بمثابة أشباح تحلق فوق رؤوسنا- وتجبرنا أن نخضع لماضي وذكرياته، ولحاضر نحيا فيه، ولمستقبل نتساءل ماذا يحمل لنا بين طياته، وكأنه زائر منذ زمن يأتي وهو حامل هداية المغلقة، نخشى أن نقترب منه، ولكن مجبرين على الاقتراب وعلي فتحه حتى ولو كان بداخله قنبلة موقوتة ستنفجر في وجوهنا؛ فهذا هو المستقبل الذي ينسجه الماضي لقلوب وهِنَت صدورها من كثرة الحزن.

(٦)

توجهت فريدة إلى فصل المعرفة فوجدته مغلقًا، لمحت طفلًا يحاول أن يُمسك قطة من زيلها والقطة تستنجد صارخة؛ فتوجّهَت إليه وسألته:

- إلي أين ذهب الأستاذ أنور؟

هز الطفل رأسه وقال:

- لن أقول إلا عندما تعطينني اثنين من الجنيهات.

غضبَت فريدة منه فنهرته؛ ففزع الطفل وركض، وأثناء ركضه أمسك حجرًا وصوّب على جبهتها مما جعلها تصرخ، بينما أخرج لسانه لها وهرع فرحًا.

رضوان أيضًا كان يسأل عنه؛ فعلم من رجل يصعد فوق حماره أنه بجانب الصخرة.. هو رآه جالسًا هناك، هرع رضوان، بينما فريدة وضعَت يدها على جبينها الذي تحول للّون الأزرق وهرعت خلفه وهي تلعن هذا الطفل وتتوعد له أنها لن تتركه، وصلت لهناك فوجدا الأستاذ أنور يجلس ويلتفّ مجموعة من التلاميذ حوله؛ فقال رضوان باستغراب:

- لماذا أتيتَ إلى هنا يا سيدي؟

تبسم الأستاذ أنور عندما رأى فريدة قائلًا:

- لا يجتمع الظلام والنور في مكان واحد.

فقالت فريدة وهي تجلس:

- ماذا تقصد يا سيدي؟

قال الأستاذ وهو يأمر رضوان بالجلوس هو وعزيزة:

- منذ دخول أهل الكاشف العزبة دخلوا بظلام حالق علينا أكثر مما كنا فيه، ولا أظن أنني سأكون مستريحًا وأنا وسط هؤلاء؛ فلذلك قررتُ أن أعطي الدروس هنا، ولكن قبل أن نبدأ نريد أن نتفق على أمر ما، سوف نحفر أسماءَنا على هذه الصخرة حتى نكون في صلابتها وقوتها، وأريد منكم شيئًا آخر.. أن تدعوا الكثير يأتي إلى هنا.

قالت فريدة بصوت متعب:

يا سيد أنور، أتيتُ لطلب المساعدة، جدتي تستغيث بك؛ فلملوم أجبرها على ترك أرضها، وأعلم جيدًا أن جدتي لن تتركه.

قال الأستاذ أنور وهو ينهض:

- في الحقيقة منذ أن وُضِعَت أقدامهم في العزبة أجبروا ثلاثِين فردًا على ترك أراضيهم.

فقال رضوان وهو يزيل التراب من على ملابسه التي تحمله بسبب المياه:

- وماذا نحن بفاعلين؟

قال الأستاذ أنور وهو يسير ببطء مِن حولهم:

- تمسّكوا بهذه الأرض فهي ملك لكم، لن نسمح لأحد بأخذها مهما حدث.

قال أحدٌ من التلاميذ بصوت غليظ:

- ولكنك يا سيد لا تدعو إلى العنف والقتال قط، لماذا أراك الآن متحمّسًا لهذه الدرجة؟!

قال الأستاذ بنبرة صارمة:

- أين وُلِدت أنت؟

رد التلاميذ قائلًا:

- لا أفهم ما خلف سؤالك!

قال الأستاذ بنفس الصرامة:

- سؤالي واضح.. أين أنت وأنا ونحن وُلِدنا.

وضع التلميذ القلم في فمه وأداره بين أسنانه، ثم قال:

- هنا يا سيدي.

ضرب الأستاذ يدَه بقوة في يده الأخرى قائلًا:

- كما قلت هنا.. نعم هنا، أنت كنت في رحم وخرجت لرحمٍ آخر، ولا يجوز أن تخرج لغيره؛ لأنك إذا خرجتَ فستكون شريدًا، وهذه العزبة عزبتنا، وهي ليست مكانًا نحيا به فقط، بل رحم مثل رحم الأم التي تحمي به جنينها.

قال رضوان ساخرًا:

- جنين! أنت تبالغ يا سيد أنور، نعم تبالغ، هذه العزبة أعطَت لنا الركل والصفع، لم تعطِ شيئًا آخر غير هذا، ثم لماذا نتحمل ألمًا ونطالب بغيره؟ فالرحيل هو الشيء المناسب للجميع.

قال الأستاذ وهو يعود ليجلس:

- تحدث عن نفسك يا رضوان، ثم إذا ذهبتَ ألم تجد الركل والصفع؟ العزبة ليس لها ذنب، بل المخالب التي تمسك العزبة.

قالت فريدة وهي تتذكر:

- ولماذا لا نحيا في مكان حدثتنا أنت عنه من قبل؟ ولكني لا أتذكره؛ فكان يُدعى يتابو أو يتوبا لا أتذكّر، اللعنة على هذه الذاكرة.

قال الأستاذ وهو يضحك:

- تقصدين يوتوبيا، أو المدينة الفاضلة الخالية من مرزوق وحمودة وملوم.

أسرع رضوان قائلًا:

- ومن القسوة أيضًا؟

قال الأستاذ وهو يمسك كتابًا في يده:

- إنها تدعو للكمال الإنساني يا سيد رضوان.

أسرع رضوان قائلًا:

- ولماذا لا توجد هنا؟

فقال الأستاذ وهو يعطي كتابًا:

- أنتم من ستجيبون على هذا السؤال، وسأعطي لكم هذا الكتاب، اقرأوه جيدًا.

أعطى الأستاذ بعض الكتب للتلاميذ؛ فشهقت عزيزة عندما رأت الكتب بين يد رضوان قائلة:

- إنه كبير جدًا، متى سوف أنجزه؟! حتى اسمه صعب ج، مر اف وطمن! اسمه ثقيل.. ثقيل جدًا.

ضحك الجميع؛ مما دفع الأستاذ للجلوس من كثرة الضحك قائلًا:

- لا تقلقي؛ سوف تنجزين الكتاب قريبًا، وأتمنى أن تقرئي اسمه جيدًا حتى لا يسخط منكِ أفلاطون؛ فهو كان يكره النساء، وبهذه الطريقة سوف يزداد كرهه لكُنّ.

نهضَت فريدة وهي تمسك كتابها وتضمه إلى صدرها قائلة:

- يا سيد أنور، أريد التحدث معك.

سار الاثنان مبتعدَين عن الزحام، فقال الأستاذ وهو يعيد نظارته بعد أن نزعها:

- ماذا تريدين؟

قالت فريدة متعجلة:

- لا أعلم من أين سوف أبدأ.

فقال مسرعًا:

- من أرض جدتك، أعلم أنكِ تتشبّثين بها؛ فأنتِ تحبين جدتك ولا تريدين لها كل هذا.

قالت فريدة وهي تتنهد:

- ليست جدتي فقط، بل أريد أن أقدّم المساعدة للجميع، وجدَّتي لا أريد أن أرى وجهها حزينًا، لن أتحمل هذا الذي يحدث معهم اليوم، اعتدوا علينا ونحن لم نستطع فعل شيء سوى أننا صمتنا، والله لو رأيتَ ما رأيناه نحن لكنت حزنت عليها وعلينا جميعًا، آسفة أنّني ألحّ عليك كثيرًا في هذا؛ فأنت تعلم بمدى حبي لجدتي.

قال أستاذ أنور:

- لا تقلقي؛ سأذهب أنا وجدتك وسنجد حلًا.

شكرت فريدة أستاذ أنور، وسارت خطوتين ووجدته ينادي عليها؛ فعادت فريده إليه، فقال متعجلًا:

- أريد التحدث معكِ وأتمنى أن تسامحيني لمدى التدخل في الأمر.

هزت فريدة رأسها مستغربة؛ فقال بنفس العجلة:

- ما علاقتك بحسن بدر لملوم؟

قالت فريدة بنبرة خافضة:

- أنـا أحبـه وهـو يحبنـي، آسـفة لأننـي أتحـدث معـك بهـذه الطريقـة، ولكـن اعتـدتُ ألّا أنكـر شـيئًا وخاصـة في هـذا الأمـر، ولكـن منـذ متـى وأنـت تعلـم بذلـك؟ ومـن الـذي قـال لـك؟

قال الأستاذ أنور بنبرة ماكرة:

- في الحقيقـة كنـت أمُـرُّ مـن هنـا ورأيتكـما جالسَـين بجانـب الصخـرة، ثـم حسـن بـدر للمـوم يكـون جـده، وأنـتِ تحبينـه كيـف؟

قالت فريدة وهي تفكر:

- الحـب الـذي بينـي وبينـه ليـس يـوم ولا سـنة، بـل منـذ مـا كنّـا نلعـب بهـذا الـتراب الـذي أسـفل أقدامنـا، نعـم منـذ سـنوات طويلة.

قال الأستاذ ساخرًا:

- كم عمرك كي تتحدثين عن الحب بهذه الطريقة؟

قالت فريدة وهي تبتسم:

- عمـري سـتة عـشر سـنة، ثـم مـا دخـل هـذا بـذاك الحـب في القلـب والقلـب غـير خاضـع لأي سـلطة ولا حتـى لزمـن؟

نظر لها نظرة خاطفة، ثم قال بصوت هامس:

- هنيئًا له.

غرق في تفكيره لمدة دقيقتين، قالت فريدة بصوت مرتفع:

- ستذهب يا سيد أنور؟

هـز رأسـه وعـاد الاثنـان إلى مـكان اجتـماع التلاميـذ، واتفـق معهـم عـلى مـا يجـب فعلـه تجـاه أهـل الكاشـف وكأنـه يبـثّ الحـماس بهـم قائـلًا:

- لا بُـدّ أن تتصـدوا لهـم، ولا تسـمحوا لأحـد أن يُوقِفَكـم عـن الـذي تريـدون فعلـه؛ لأن مَـن يريـد يفعـل، ومـن يفعـل لا بُـدّ مـن ألّا يخشـى

أحـدًا ولا شـيئًا، ولملـوم وأمثالـه سـيرحلون عـن قريـب؛ فهـذه نهايتهـم، وسـتقومون بـدور مهـم؛ أريـد ألّا ينسـى أحـد دعـوة شـباب العزبـة لحضـور الـدروس، وسـنلتقي غـدًا في نفـس المـكان.

نهض الجميـع وهـم متحمسـون لهـذه الدعـوة، بينـما توكـي راضـون علي عزيـزة التـي تبتسـم فرحـا وتسـخط حـين عندمـا تـري الكتـاب في يـد راضـون بينـما وقفـت فريـدة تلتفـت مـن حولـه هنـا وهنـاك؛ فنظـر لهـا أسـتاذ أنـور وهـو يجمـع كتبـه داخـل حقيبتـه قائـلًا:

– تنتظرين حسن بدر لملوم، صحيح؟ حبكِ له كبير لا يُقدّر.

هـزت رأسـها ونظـرت لـلأرض خجـلًا، بينـما سـار الأسـتاذ وهـو يصفّـر؛ فجلسـت هـي أرضًـا، وكانـت تتفقّـد كتابهـا، ظلـت فـترة لا بـأس بهـا؛ ففكـرت في العـودة للمنـزل، وبينـما هـي توشـك عـلى النهـوض أتـى حسـن وعـلى وجهـه مـرح لا يوصـف، قالـت وهـي تصافحـه:

– لماذا أرى كل هذا المرح اليوم؟ أنت سعيد بقدوم أهلك إلى عزبتنا؟

هز حسن رأسه وقال:

– أنا لا أفهم شيئًا مما تقولين، ماذا تقصدين بالضبط؟

فقالت فريدة بغضب:

– أهلُكَ أهالي الكاشف، أليسوا هم أهلك أم تتبرأ منهم ومن أفعالهم؟

قال حسن وهو يجلس:

– وما دخلي أنا بهم؟! فهم كلاب يعضون كل أهالي العزبة بدون رحمة.

قالت فريدة بنبرة ساخطة:

– اذهَـب وقُـل لجـدك هـذا الـذي قُلتَـه الآن، قُـل لـه إن أهـل الكاشـف خنازيـر، ولا يجـوز للخنازيـر أن تجتمـع معنـا، لكـن هـو وقـف معهـم، بـل

هـو الـذي سـمح لهـم بـكل هـذا.

ضرب حسن الأرض بيده قائلًا:

- وما دخل جدي بهذا؟

قالت فريدة متعجلة:

- جدك! جدك هو أصل كل الرواية، هو أصل كل ما نحن فيه الآن.

قال حسن بنبرة غاضبة:

- كيف تتحدثين عن جدي بهذه الطريقة اللئيمة؟

ألقت فريدة الكتاب من يدها قائلة:

- وكيـف أجبَرَ جـدُّك جدتي على أن تـترك أرضها؟ وكيف سـمح لحارس أن يتطـاول عليهـا وصفعهـا وكأنهـا تطلـب صدقـة، أتعلـم أنـه هـدّدَني بأنـه سـيقطع يـدي؟ هـذا مـا سـيفعله جـدُّك بي، جدُّك رجـل جبـان وقذر.

صمت حسن قليلًا، ثم قال بصوت مخنوق:

- ليـس لي شـأن بذلـك، وأنـتِ أيضًـا ابتعـدي عـن كل هـذا ولا تفكـري في شيء.

نهضَت فريدة ووضعت يدها علي جبينها الذي يؤلمها قائلة:

- ومتـى سـيكون لـكَ شـأن بهـذا؟ ثـم تطلـب منـي أن أتـرك القصـة! لا، بـل أنـا أصـل القصـة وصلـب الموضـوع؛ فجـدُّك لـن يأخـذ أرض جـدتي مهـما فعـل، وإذا حـدث شيءٌ لجـدتي أقسـمُ أننـي لـن أغفـر لأحـد أيًّـا كان هـذا الشـخص، حتـى ولـو كنـتَ أنـت.

سقطت دمعة منه؛ فقال:

- لمـاذا تصعّبـين الأمـور عـليّ؟ ولمـاذا تهدديننـي؟! لمـاذا كل هـذا يـا فريـدة؟ أتريديـن قتـلي؟ أم قتـل جـدي؟ ثـم اعلمِـي إذا قتلـتِ جـدي

فسـوف تقتلينَنـي معـه.

قالت فريدة بقسوة:

- أنـا لا أهـدد أحـدًا، أريد أن تفهـم.. تفهم أن جدك هو أسـاس المصائب التـي نحـن فيها، فحـاول أن تفهـم وتقف مع من يسـتحق دعمك.

قال حسن وهو ينهض بدوره:

- وإذا كان جـدي مذنبًـا هـل سـوف أذهـب لـه وأقـول لـه إنـك مذنـب؟ وهـل سيسـمع منِّـي أم تريديـن أن أقتلـه؟!

تنهدت فريدة قائلة:

- للأسف لا تفهم ولا تريد أن تفهم حتى.

صمت حسن قليلًا، ثم قال:

- رجاء لا تضعيني في موقف يجعلكِ تندمين عليه.

انتفضت فريدة من مكانها، ثم قالت:

- أنـت أنـانيّ لدرجـة لا تُصـدّق وتفكـر بطريقـة غبيـة، ثـم إذا لم أفكـر بجـدتي بمـن سـوف أفكـر؟! أنـا لا أضعـك في موقـف، بـل أنـت مـن تضـع نفسـك يـا حسـن، أريـد أن أقـول لـك شـيئًا كنـتُ أخفيـه عنـك، أنـا أكـره جـدك أشـد الكـره، ومـن المحتمـل أن أكـره مـا حولـه أيضًـا.

نظر حسن في عينها وكان على وشك أن يدمع، فقال:

سـوف تكرهـين حسـن؛ فحسـن مِـن الـذي حولـه، ليـس في يـدي شيء كـي أقدمـه لـه ولـكِ، وإذا كنـتُ أمتلـك لكنـت فعلـت دون أن تطلبـي ذلـك منـي، وأنـا لا أمتلـك حتـى الإقنـاع الـذي أؤثـر بـه عـلى جـدي، تعلمـين أنـه إذا علـم أننـي آتي لمقابلتـك مـاذا تتوقعـين أن يفعـل؟ سـوف يقتلنـي، نعـم ويقتلـك أيضًـا، هـو لا يسـمح لأحـد أن يقـف في وجهـه

حتى ولو كان من.

صرخت فريدة بصوت مرتفع قائلة:

- كم أكره جدك وكم ألعنه! كم والله سبب لي الألم، وسوف يسبب لي ألمًا أكثر من ذلك.

قال حسن بصوت مخنوق:

- لم آتِ إلى هنا كي أسمع ما تقولين، بل أتيتُ لأقول لكِ أنني سوف أرحل إلى القاهرة كي أدرس الطب، سوف أراكِ قبل أن أذهب.

حملت فريدة كتبها التي كانت منثورة على الأرض، ونظرت له بعين دامعة: ثم قالت:

- اذهب بدون أن تأتي إلى هنا؛ لأنني لن آتي.

هرعَت وهي تبكي على فراقه الذي سوف يؤلمها بشدة، وصلت إلى المنزل وخيم الحزن على قلبه بعدما علمت بهذا الفراق الذي سيفصلهما عن بعضهما؛ فهو صانع الابتسامة، وهو من يحوّل قسوة حياتها إلى نهر يفيض عليها بالحب والعطف، إذًا سيجف النهر بعد أن يذهب وستموت ظمآنة بسبب رحيله؛ فهي تطمئن أن هناك من يتنفس وتحيط أنفاسه بها وكأنه عنكبوت ينسج خيوطه حول بيضة ليحميها، ألقت بكتبها على الصندوق الخشبي وجلست تتأمل به؛ فقال صادق وهو جالس يدخن:

- الجوع كاد أن يقتلني، أريد الطعام.

نهضت فريدة وأعدّت الطعام وهي شاردة في ذهاب حسن، جلست لتتناول طعامها؛ فكلما قضمت من الخبز تذكرت حديثه الذي حوَّل كل شيء في حياتها إلى مرار تعاني من صبرها، قرع الباب بشدة؛ فنهضت لتفتح وتفاجأت بحمودة الذي كان يقف ويضع عصاه على الباب

وكأنه يمنع من يدخل أو يخرج، قالت فريدة وهي تزدرد ريقها:

- ماذا تريد؟

كل ما قاله هو:

أين إدريس؟ فأنا أريده

علمت أنه الطامة الكبرى، هرعت إلى أبيها؛ فنهض إدريس وهو يحك رقبته قائلًا:

- استر يا رب.

نهضت فاطمة خلفه قائلة:

- الخير ليس على قدمك يا حمودة، الله يخرب بيوتكم.

حملق حمودة في عينيها وقال:

- لماذا تتعجلون؟ لملوم يريده.

أمسكه حمودة وكأنه سيفر منه، بينما جلست فريدة والخوف كاد أن يزلزل ضلوعها، بينما استكمل صادق طعامه وكأن شيئًا لم يكن، بينما جلست فاطمة تندب حظها وكأنه ذاهب حيث لا رجعة، تطلعت فريدة من النافذة وكان الليل يسدل عباءته؛ فهي تخشى كثيرًا سواد الليل؛ فهو ينذر بأن هناك شيئًا قادمًا، ولكنه في علم لملوم؛ فهو أصبح يكرر المصائر ويكتب أقدار الخلق.

***

«عندما تـأتي الشـجاعة وتسـكن في القلـوب، ثـم يـأتي الخـوف ويسـكن بجانبـه؛ فتهيـل عـلى النفـس وابـل لا يسـمح لـه بالحركـة ولا العبـور في طريـق غـير الـذي تسـلكه».

(٧)

كاد قلب إدريس يغوص من شدة الخوف، وكلما تساءل من حمودة نظر له نظرة مليئة بالبغض، وصل الاثنان لمنزل لملوم الذي لم يرَه إدريس من قبل، ثم سار في خط مستقيم، وانعطف الاثنان تاركَين الحديقة بخيراتها، ضحك إدريس عندما وجد بابًا آخر غير الباب الذي دخلا منه، فترك حمودة الباب وقفز للداخل، بينما سار إدريس ببطء شديد يتحسس جدران المنزل وأعمدته العالية، وينظر هنا وهناك؛ فحسب حمودة أنه يلحقه، ولكن وجده بعيدًا عنه بخطوات كثيرة؛ فركض حمودة إليه وجذبه من ذراعه ودفعه أمامه، دخل الاثنان غرفة المكتب التي كانت تضم مكتبًا من طراز قديم منتثر عليه بعض الورق، ونافذتين يطلان على أشجار المانجو التي توجد في الحديقة، كانت الأضواء في المكتب خافتة لدرجة توحي بالنعاس، فرك صاحبنا عينَيه وتطلع كعادته؛ فوجد لملوم يجلس على مكتبه ممسكًا السبحة ويداعبها وأمامه فنجان من القهوة الشهية، حدق إدريس فيه وازدرد ريقه بصعوبة قائلًا:

- في الخدمة يا سيد لملوم.

نظر له لملوم مشمئزًا، ثم قال:

- أهلًا يا أخي.

صمت لمدة ثلاث دقائق، بينما تطلع إدريس به وبحمودة الذي نعس من الهواء الخفيف الذي يلفح الوجه، وفكّر هل سيعطي له

مــالًا أم ســيجعله خفــيرًا في الأرض الغربيــة، يــا حظــك يــا إدريــس يــا حظــك! هــذا مــا كان يلــوج بذهنــه، فقــال لملــوم بصــوت غليــظ:

- أنــت رجــل طيــب، هــذا واضــح عليــك، لكــن الأبنــاء دائــمًا يجعلــون الطيــب خبيثًــا ولئيــمًا.

هرش إدريس بجانب أذنه قائلًا:

- لا أفهم شيئًا يا سيد لملوم.

نهــض لملــوم ووضــع يــده عــلى كتــف إدريــس، ثــم دفعــه للخلــف فســقط عــلى كــرسي خلفــه، ثــم قــال:

- ابنتك فريدة، أريدك أن تؤدبها، هي ناقصة أدب.

قال إدريس والخوف يحيط به:

- نؤدبها، لمَ لا؟!

- وأريــد أن أســمع عــن هــذا الأدب بــأذني، وأريــد أيضًــا العزبــة كلهــا تتحــدث عــن أخــلاق ابنتــك وأدبهــا، ثــم الأدب فضلــوه عــلى العلــم، مــا رأيــك يــا إدريــس؟

نهض إدريس من على الكرسي قائلًا:

- سأذهب، وسوف أُسمِعُك عنها وعن أدبها.

ضحك لملوم ساخرًا، ثم قال:

- ستذهب، ولكن عندما يؤدَّب الأب حتى نضمن أدب الابنة.

- ماذا تعني يا سيدي؟

عاد إلى مكتبه وجلس، ثم تفرّسَ في وجهه قائلًا:

- يعنــي ســتكون معنــا الليلــة، أنــا مصــاب بــالأرق وأريــد أن أتســلى، هــل تبخــل عــلى ســيّدِك بــأن تجلــس معــه؟

- لا يا سيدي، ولكن ماذا فعلت معك هذه النذلة؟

فعلت ما لم يجرؤ أحد على فعله، أتعلم أن يدها تطوّلَت على أسيادها؟ وعندما تتطاول أيديكُم علينا ماذا نفعل؟

قال إدريس متلعثمًا:

- نقطعها، نعم.. تقطع اليد التي تمتدّ عليكم.

- إذًا ستُقطع يدها؛ فهي تستحق كل ما سيجري لها، فنحن كنا نريد أرض جدتها بالمعروف، ولكن هي وقفت في وجهنا، وحليمة قوية مثلها أيضًا لا تريد أن تتنازل عنها.

صمت إدريس وهو يفكر بأن الأرض ستكون لزوجته، كيف سيأخذها؟ هو حي على أمل أن يزرع فيها بعد حليمة، ولكن هذا يريدها، يا ليلية سوداء! قال وهو غارق في تفكيره:

- ولكن هذه الأرض يا سيد للوم...

نظر له بعين زائغة، ثم قال:

- ولكن ماذا؟ قُل.. لا أريد سماع هذه الكلمة يا إدريس؛ فهي ليست في قاموسي، والكل يعلم أنني أكره هذه الكلمة.

- أنت يا سيدي ملكُك أرض جدتها وأرض أبوها أيضًا، لا أريدك أن تغضب؛ فليس هناك شيء يستحق.

- مطيع والله، أنت رجل طيب، لكن حماتك امرأة لئيمة وخبيثة.. ترفض أن تعطينا ولو حتى شبرًا من الأرض، تخيل أنها أقسمَت على ألا تبرح الأرض إلا على قبرها.

- هي ستموت، إذا لم يكن اليوم سيكون غدًا، وستكون الأرض ملك لك يا سيد للوم، لا تقلق.. لا أريد قلقًا في نفسك.

- ألستَ حزينًا يا إدريس على الأرض؟ فكانت ستكون ملكًا لك أنت من بعدها، وزوجتك ماذا ستقول علينا؟ والله لا يرضيني حزنها.

- لا، لا لم أحزن، وزوجتي طيبة والله قلبها مثل اللبن الحليب، ثم الأرض حلال عليك، وإذا أردتَ زوجتي فوق الأرض خذها، هذا لا يزعجني بالمرة.

قطب لملوم حاجبيه، ثم قال:

- مطيع والله، رجل طيب أنت يا إدريس، روخ يا روخ.

قال إدريس مرتجفًا:

- لماذا الروخ؟

ربت لملوم على كتفه قائلًا:

- اهدأ لا تتعجل يا طيب.

أتى الروخ مهرولًا؛ فهو بدين ذو شعر كثيف وأشعث، الأطفال يتسلون به عندما يسير في الشوارع بسبب لسانه الذي ينطق الكلمات بطريقة تختلف عنا، هو يُدعى محمود وليس الروخ، ولكن أُطلِق عليه هذا بسبب أنه ينطق أرز روخ؛ فمنذ طفولته نُسِيَ اسمه في العزبة بأكملها، والصغير والكبير ينادونه الروخ، وقف إدريس يرتجف مكانه، بينما ينظر له لملوم ويضحك قائلًا:

- أريد أن تُعلّموا إدريس كيف يربي أولاده، وأريد أن أسمع غدًا عن أخلاق ابنته.

وضع المسبحة في جيبه ثم خرج، بينما أمسك حمودة إدريس من عنقه وأسقطه أرضًا، وتقلب وجه الروخ عدة ألوان وانهال عليه بالركل في صدره وبطنه ورأسه، لم يترك جزءًا في جسده سليمًا؛ فكان

يـضرب ويقـول بصوتـه المضطـرب:

- تعلمتَ كيف تربي ابنتك؟

يرد إدريس الذي كان يسيل دمائه:

- الله يلعنها أينما ذهبَت.

ازداد الـركل مـن قـدم الـروخ وعصـا حمـودة، أقبـل لملـوم وهـو يضحك بصـوت مرتفـع قائلًا:

- أقسـم لـك يـا رجـل أنني أفعـل معـك خـيرًا، مَـن الـذي يـؤدب أحـدًا اليـوم بـدون مقابـل؟ أنـت يجـب أن تشـكرني عـلى هـذا المعـروف الـذي صنعتـه لـك.

صرخ الروخ في إدريس قائلًا:

- اشكر سيدك؛ فهو يصنع معك معروفًا، اشكره.. ألم تسمع!

قال إدريس بصوت متقطع وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة:

- شُ ك...

قال هذا وفقد وعيه، قال لملوم وهو خارج من غرفة المكتب:

- اتركـوه في الخـارج ملقًـى هنـاك حتـى يكـون عـبرة، وفي الصبـاح اجعلـوه يذهـب.

قال حمودة وهو ينظر إلى إدريس الذي يشبه الجثة:

- لكن الجو في الخارج شديد البرودة، ومن الممكن أن يموت.

عبس لملوم وأمسك عصا حمودة، ثم قال:

- قلبك أصبح رهيفًا، أليس غريبًا هذا يا روخ؟

نظر الروخ إلى لملوم، ثم قال:

- نعم غريب يا سيدي، هل تريد أن أؤدبه؟

قال لملوم وهو يضحك ضحكة صفراء:

- تفهم سريعًا يا ولد، الله ينور عليك، أدِّبْه حتى يخشن قلبه.

أعطى الروخ لحمودة صفعة قوية على مؤخرة رأسه جعلته يسقط أرضًا ويحمل إدريس دون أن ينبس، ألقاه في الخارج ثم دخل سريع من شدة البرد، بينما فريدة التي تخرج بين الحين والآخر تنظر في الطرقات لعله يكون أتى، الجميع غفل في المنزل حتى حيوانات المنزل، عدا هي التي كانت تنظر من النافذة حينًا وتخرج حينًا، غفلت دون أن تشعر، فاق إدريس على أصوات المارة وعلى ضوء الشمس الذي تعامد فوق رأسه، نهض وهو يلتفت يمينًا ويسارًا، ثم هرع تاركًا الحديقة، وتسلّلَ السور، لم يخرج من البوابة وكأن عقله ذهب، كان يركض ويتطلّع خلفه وكأن ملك الموت يلحقه.

طرق المنزل عديدًا؛ ففتح له صادق الذي وقف مثل التمثال عندما رأى أباه ورأى وجهه الذي يشبه صحراء كلهاري، وقفَت فاطمة بجانب صادق وصرخت صرختَين جعلت فريدة التي كانت تطعم الدجاج في أعلى السطوح تقطع درجات السلم في وقت قليل، اتجهت فريدة إليه فأمسكها من عنقها ووجّهَ لها الركل الذي أخذه من حمودة والروخ، فدفعه صادق بعيدًا عنها وهو يصرخ فيه، أمسكَت فريدة حذاءَها وركضت للخارج، بينما التفَت حوله فوجد قطعة حديد على الأرض؛ فأخذها وركض خلفها، كانت تنظر بين الحين والآخر خلفها، تتعثر في الأرض وتسقط مثل الطفل الذي يتعلّم السير؛ فتعود للنهوض قبل أن يلحق بها، وجدَت منزل جدتها سكينة فركضت تجاهه، طرقَت الباب ففتحت لها امرأة تملأ التجاعيد وجهها وكان يوحي بالقسوة والصرامة، وضعت المرأة يدها على

البـاب، ثـم قالت:

- لماذا أتيتِ يا وجه الخير؟

لم تُجِـب فريـدة، كل مـا فعلته أنهـا انزلقت للداخـل، فوجـدت عمها أحمد وزوجتـه يتنـاولان إفطارهمـا؛ فجلسـت في ركـن مـن الغرفـة وهـي تنـزوي مثـل الحيـوان الضعيـف الـذي يخشَـى أقـوى منـه، دفنـت وجههـا بـين يديها وانتحبَـت، بينـما دخـل إدريـس فوجدها تنظـر له نظرة بائسـة وكأنها سـلّمَت أمرهـا وتقـول: ألـقِ بهـا في قلبـي.. في نفسـي؛ فأنـت تقتُلَنـي كل يـوم وكأني خُلِقـتُ للمـوت ألف مـرة، إذا لم يكن بسـكينٍ فبكلمَة قاسـية تنبسـط في قلبي وتنبُـت، رفـع يده وألقـى بالحديـدة عليها أصابـت الجزء الأيمن مـن وجهها، أمسـكه أخـوه وألقاه خارج المنـزل، بينما صرخـت زوجته عندمـا رأت الدماء تتطايـر مـن وجـه فريدة، ضمّـد عمها الجـرح وظل يسـبّ أخاه على مـا يفعله في أولاده.

دخـل صـادق وكانـت صـوت أنفاسـه مسـموعة، تجمّـدَت الدمـوع في عينـه وهـو يقـترب منهـا، احتضـن أختـه وبكَـى بـكاء حـارًّا عـلى حالهـا الـذي يمـزق القلـوب، فقـال بصـوت مخنـوق:

- اجلسـي هنـا حتـى تعـود الأمـور إلى طبيعتهـا، وأنـا سـوف أعلّـم هـذا الـذي يُدعـى لملـوم الأدب؛ فهـو سـبب كل مـا نحـن فيـه، قلـتُ لـه إن هـذا الرجـل قـذر ولا بُـدّ مـن موتـه، حتـى نحيـا نحـن لا بُـدّ مـن موتـه.

نهض وهو يمسك حذاءَه في يده، بينما نهضت خلفه فريدة متوسلة له قائلة:

- لا يـا أخي لا تذهـب، حلفتـك بـالله فهـو لا يرحـم أحـدًا، لا تذهـب، مـن أجـل أختـك لا تذهب.

- انظـري لوجهـكِ هـذا، كيـف تصمتـين عـلى مـا فعلـه؟ كيـف؟!

أقسم أنني سوف أجعله يندم، وسوف أقطع اليد التي امتدَّت عليكِ حتى ولو كانت يد إدريس؛ فهو رجل ناقص لا يرحمنا، سوف أقتل من يقتلنا ويجعلنا نتألم، سوف نحيا بدون ألم يا فريدة، نعم هذه هي الحياة التي نستحقها، عندما يموت أبوكِ لا تشفقي عليه ولا تعطي له حبًّا لم يعطِ لك ولا لنا.

تشنّجَت فريدة وهي راكعة أسفل قدم أخيها قائلة:

- اصمت.. رجاء اصمت يا أخي، لا تتحدث هكذا، لا تجعل الكره ينال من قلبك النقي البريء.

ترك صادق يدها، بينما جلست تنتحب؛ فبصقت سكينة خلف صادق، ثم قالت:

- الله يلعنك ولد عاصي، كيف يتحدث هكذا على ابني؟ كيف؟! سوف أجعل أباه يربيه، وأنتِ فتاة ملعونة أيضًا، اليوم الذي وُلدتِ فيه قال جدك عبد الجبار رحمه الله وُلِدَت اليوم مصيبة، كان مُحقًّا؛ فأنت مصيبة وُضِعَت في بيتنا.

صرخ ابنها أحمد في وجهها وخرج من أمامها، بينما جلست فريدة بمفردها في الغرفة تحدق في السقف الذي يمتلئ بالعناكب والفئران، كانت الدموع تتجمّد في عينها.. إلى متى ستظل هذه الدموع؟! وإلى متى ستظل ترتجف وتطلب الرحمة من الذي لا يعلم بها؟! وإذا كان بيدها لجعلت نفسها ممحيّة من الوجود، ووضعَت نفسها في عدم حتى لا تشعر، تفقّدت القلب الذي يتألم ويتوجع ويصرخ مستغيثًا بدموعها أن تكفّ.

***

(أشـد أنـواع الألم هـو ألم النفـس، يعـد هـو الألم الوحيـد غـير القابـل للـدواء، حتـى إذا اجتمـع الكـون ومـا فيـه عـلى أن يصلحـوا مـا أصابـه مـن عِلَـلٍ فلـن يفلحـوا؛ فتسـقط الكلـمات والأفعـال في النفـس فتجعلـه شراذم متفرقـة.)

(٨)

مكثَت فريدة يومين في منزل جدتها سكينة التي لا تكفّ عن الثرثرة طول الوقت؛ فهي تطلب الكثير وتريد أن تفعل جميع الأشياء في وقت واحد، فكانت فريدة تُعدّ لها كوب شاي بينما هي جالسة تقرقر بالشيشة مثل الرجل، أعطتها فريدة الشاي؛ فارتشفَت منه وتغيرت ملامح وجهها قائلة:

- أنت لا تستطيعين حتى أن تعدّي كوب شاي! ألم أقل لكِ شاي حبر ألم تفهمي أيتها الغبية؟

قالت فريدة والغضب يحلّق فوقها:

- أنا أضع خمسة وعشرين جرامًا من الشاي، هذا يعني علبه كاملة، أصنعُ لكِ برّادًا بمفردك بعلبة ثمنها ثلاثة جنيهات ونصف، ثم تقولين لي لا تستطيعين أن تفعلي شيئًا؟! أنتِ غريبة، أول مرة أرى أحدًا يشرب الشاي ثقيلًا كالحبر.

- كيف تتحدثين معي بهذه الطريقة؟ أنت فتاة ناقصك أدب، ثم أأنتِ تدفعين لي من جيبك أو جيب أمك؟! أنا من أدفع؛ فعليكِ أن تفعلي دون حديث، أنا سوف أؤدبك، اليوم ستذهبين إلى الحقل وتعملين معي دون أن أسمع لكِ صوتًا حتى.

- ولكن أنا متعبة، لن أستطيع الخروج، ألا ترين وجهي الذي يلتفّ أمامك.

- عميت! هذا ما تريدين قوله، صحيح فتاة ناقصك أدب.

- لم أقصد ذلك.

- تقصدين أم لا، سوف تذهبين معي دون كلام.

حملت فريدة أدوات العمل دون أن تنبس بكلمة، وسارت مسافة طويلة، جعل ذلك قدمها تؤلمها، بينما جدتها التي كانت تهرول وتقفز وكأنها صبي يلهو ولا يعرف للتعب طريقًا، وصل الاثنان للحقل وجلست الجدة أسفل نخلة التمر، بينما عملت فريدة في الحقل، ظلَّت تعمل لثلاث ساعات متتالية، نظرت فريدة إليها وقالت بصوت هامس:

- كيف تكون هذه جدتي؟ لا أعلم كيف؟ لكن على ماذا أستغرِب؟! إنها مثل ابنها قاسية لا تعرف الرحمة، فمن أين أتى هو بالقسوة! بالإضافة لذلك تقرقر بالشيشة مثل الرجال وتريد شايًا مثل الحبر، ولسانها حاد كالمبرد وتثرثر كثيرًا، علمتُ الآن لماذا تريد دائمًا شايًا كالحبر، أكيد من كثرة ثرثرتها، أنا لا أستطع أن أتحمل أكثر من ذلك، سجن إدريس ابن عبد الجبار أهون من سجن أمه الذي لا يطاق.

نهضت فريدة وألقت من يدها الأداة التي تستخدم في حصاد البرسيم قائلة:

- أنا سأذهب.

- إلى أين؟ فنحن لم ننتهِ من العمل.

- أنا سأذهب إلى منزلنا وليس منزلكِ أنت.

انتفضت سكينة من مكانها، ثم قالت:

- أيتها النذلة، أنتِ ناكرة للجميل، أنا من خلّصَكِ من يد أبيكِ، يكفي أنني أطعمتك يومين، لولاي لكنتِ نائمة في الشارع الآن.

- شكرًا لكِ على ما فعلتِ معي.

قالت هذا وسارت، فالتفتت تنظر إلى جدتها التي كانت تمزق في الزرع من شدة الغضب، فقالت سكينة بصوت يحمل الامتعاض:

- لكنَ أباكِ سوف يقتلك.

لوحت فريدة بيدها، وقالت بصوت مرتفع:

- القتل أهون عليّ من أن أصنع شايًا كالحبر تقولين أنه يضبط الدماغ، أقسم إذا كان هذا الشاي يضبط الدماغ لكانت دماغُكِ أنضبَت من أول كوب شاي تشربينه.

- اذهبي الله يلعنك؛ فأنتِ تستحقين كل ما يحدث لك.

اختفت فريدة عن نظرها وهي تضرب كفًّا بكف مثل المجنون، بينما ذهبت فريدة إلى منزل جدتها حليمة لتطمئن عليها؛ فهي علمت في اليومين الماضيين أن جدتها لم تعُد للمنزل، بعد القسم الذي برمته أنها لن تبرح الأرض إلا على قبرها، حتى أنها ستُدفن فيها، فكل أهالي العزبة يتحدثون في الأمر، وصلَت إلى هناك فوجدت جدتها جالسة بالقرب من الشجرة تخطّ بعصا في يدها كعادتها، ركضت فريدة نحوها وألقَت بنفسها في حضنها وانتحبت في البكاء، بينما هي وضعت يدها على رأسها قائلة:

- ليتني سلَّمتُ لهم الأرض كي لا يحدث معكِ كل هذا.

قالت فريدة بصوت يخنقه البكاء:

- أبي هو من فعل ذلك، كان يريد أن يقتلني، لا أستطيع أن أصدق أنه كان يريد قتل ابنته، والله كنت أتمنى الموت ولا أن أرى ذلك بعينيّ، الموت أهون من كل ألم وذل، تستطيعين أن تقولي لي ما هو عطف الأب؟

كيـف يحب أبنـاءَه وكيـف هـم يحبونـه؟! والله وصلـتُ لدرجة أنني أخشـى سماع صوتـه وأشـمئزّ من قـول كلمـة أبي، كلمة لا أعـرف له معنًـى، أجهل حروفهـا منـذ مولدي؛ فـلا أريد حتـى أن تأتي الكلمـة على ذاكـرتي، لا أريده، قتلنـي في اليـوم الـذي وُلدتُ فيـه قتلَ روحٍ فنَـت وهلكَت، آهٍ من هـذه الحياة! أقسـم أننـي أتوجّـع وأتـألم وألمـي غـير قابـل للشـفاء، لمـاذا يفعل معـي هذا؟ لمـاذا يجعلنـي أبكي؟ لمـاذا يقتلني كل يوم؟ أنا جسـد يسـير، ولكـن في حقيقته ركـض في الـتراب منـذ زمن.

ازداد نحيبهـا وهـي تحتضـن جدتهـا بقـوة وكأن هنـاك مَـن سـينتزعها، عانـت كثـيرًا مـن هـذه الحيـاة؛ فهـي تطلـب المـوت الـذي تسـتريح مـن بعـده، ولكـن كيـف تحيـا وتمـوت بـين يـد رجـل لا يعـرف الرحمـة؟! رأت فريـدة الأسـتاذ أنـور قادمًـا فنهضـت ومسـحت دموعهـا، ثـم هرولـت تجاهـه قائلـة:

- ماذا فعلت؟

لم يُجِبهـا أسـتاذ أنـور، كل مـا فعلـه هـو أن جلـس بجانـب جدتهـا ولثـم يـده، ثـم نظـر في وجههـا قائـلًا:

- اتركيني أسأل عن أحوالك أولًا.

قالت فريدة بعجلة:

- أنا بخير إذا ظلت هذه الأرض بخير.

قال وهو يتفرس في وجهها ويبتسم:

- الأرض هي من فعلت بكِ كل هذا.

- اترك كل هذا الآن وقل لي إلى أين وصلت؟

- أراكِ جريحـة أبيـكِ، هـو مـن فعـل بـكِ كل هـذا، صحيـح؟ فحمـودة

ذاع خبر تأديب لملوم لأبيِك وتأديب أبيكِ لكِ لأن يدكِ امتدَّت على أسيادك.

قالت فريدة وبصرها عالق في الأرض:

- أقسم لكَ سأجعل لملوم يكره اليوم الذي ولد فيه على ما فعله بإدريس بن عبد الجبار الذي سلّطَه عليّ، لن أغفر للاثنين.

- ولماذا تقولين إدريس بن عبد الجبار ولا تقولين أبي؟

- في الحقيقة أؤمن بأن يكون اسمي فريدة فقط بدون إدريس؛ لأني سأموت بمفردي وسأحاسب بمفردي، لن يحاسب معي كي يكون اسمي فريدة إدريس، تعلم أن هذا الشي مثل وجود لملوم في حياتنا؛ فهو ليس له قيمة، ولكن نحن من أعطى له القيمة بخوفنا منه، وأصبحنا نضع اسمه خلف كل شيء نفعله.

- على كل حال أنا ذهبتُ للملوم ومرزوق وطلبت مقابلته غدًا، وسأذهب أنا وجدتك كي نحل الأمر بيننا.

- وهل سيوافق على ترك الأرض؟

قالت حليمة بغضب:

- فريدة، لا تتدخلي في شيء، ليس لك شأن.

- إذا لم أتدخل في ذلك مَن إذًا سيتدخل؟!

- ليس كما تتخيلين يا فريدة، هو لم يوافق على ترك الأرض، بل سنسوي الأمر أنا وجدتك، وفي الحقيقة لا أعلم إذا كنا سننجح في ذلك أم لا.

- إذًا سوف أذهب معكما، لا بُدّ من ذهابي.

قالت الجدة وهي تنهض:

- لا لـن تـأتي، المـرة السـابقة سـتر الله، لا أعلـم مـاذا سـيحدث المـرة القادمـة، أنـت سـوف تنتظريـن هنـا مـع رضـوان وعزيـزة.

بـدأت الجـدة في تجميـع الحطـب لتصنـع الشـاي، بينـما نظـرت إليـه فريـدة، ثـم قالـت:

- أنت تعلم أنها ترفض العودة إلى المنزل؛ فهي تبيتُ هنا تقريبًا.

- أعلم ذلك.

صنعَـت الجـدة الشـاي بالنعنـاع، وجلسـت فريـدة تتناولـه بصمـت وهـي تفكـر فيـما ينتظرهـا بالمنـزل، بينـما نظـر لهـا الأسـتاذ أنـور نظـرة جانبيـة، ثـم قـال:

- هنيئًا لمن تفكرين فيه.

فهمت فريدة ما يلمح له؛ فقالت:

- بالمنـزل، نعـم أفكـر فيـما ينتظـرني فيـه، وليـس مـا يوجـد في عقلـك؛ فـكل مـا تفكـر فيـه غـير صحيـح.

وضعـت كـوب الشـاي أرضًـا، وودّعَـت جدتهـا؛ فقالـت الجـدة وهـي تلثمهـا في خدهـا:

- لا تتدخلي في شيء من أجلي أنا.

هـزت فريـدة رأسـها وسـارت؛ فوجـدت الأسـتاذ يطلـب منهـا الانتظار قا ئلًا:

- مـن الممكـن أن تسـمحي لي بمرافقتـك إلى الصخـرة؛ كـي تكتبـي اسـمكِ بيـدكِ؛ فنحـن فعلنـا ذلـك ولكـن لم تكـوني أنـت موجـودة.

- بكل تأكيد؛ فكنت ذاهبة إلى هناك.

قال متعجلًا:

- من أجل حسن؟

قالت فريدة بنبرة عتاب:

- لا ليس من أجله، بل من أجل أن أكون بمفردي.

- هذا يعني أنكِ تطلبي مني الرحيل ولكن بطريقة مهذبة.

- لا لم أقصد ذلك، قلت على ما كان في نيتي قبل أن ترافقني.

قال أستاذ أنور وهو حالم:

- تعلمين أن حسن محظوظ بكِ كثيرًا؟

- لماذا؟

- لأنكِ تحبينه كل هذا الحب، ولكن ألم ترِي حسن مذنبًا في الأمر؟

- لا ليس له ذنب في شيء، هو ضحية مثلي ومثلكَ، يخشى جدَّه مثل كل أهالي العزبة.

- لكن بيده أن يفعل الكثير.

- ليس بيده شيء يفعله سوى الصمت، ثم هو ممنون لجده ولا يستطيع أن يقف في وجهه حتى ولو كان من أجلي.

وصل الاثنان للصخرة، بينما أخرج أستاذ أنور من جيبه سكينًا صغيرًا حادًّا كي تستطع أن تنحت اسمها على الصخرة، فقال أستاذ أنور:

- ستكونين بصلابة هذه الصخرة بالتأكيد.

نظرت له فريدة، وأعطت له السكين قائلة:

- أنت تبالغ كثيرًا يا سيد أنور.

قال الأستاذ وهو يجلس بجانب الصخرة:

- أشعر أن هناك شيئًا يُثقل صدركِ!

قالت فريدة وهي تضع يدها على جبينها:

- أختنق يومًا بعد يوم مما أنا فيه.

قال وهو يقطف بعض الحشائش الصغيرة ويمزقها بالسكين:

- إذا أعطيتِ الفرصة للألم سوف يتمكن من إصابة نفسكِ ولن يبرحها قط.

تنفست بعمق قائلة:

- ليس بأيدينا شيء، نحن عاجزين حتى عن إزالة الألم من نفوسنا.

حدّقَ أستاذ أنور في شخص يأتي مهرولًا؛ فضحك ضحكة صفراوية، ثم قال ساخرًا:

- أظن أنكِ حقًا لم تأتِ لتلتقي به.

نظرت فريدة بجانبها قائلة:

- ماذا تقصد؟

كان حسن يأتي مهرولًا، نظر لوجه فريدة ووقف مثل الصنم، بينما نهض الأستاذ أنور ومد يده للمصافحة، ثم قال:

- أنا معلم فريدة، تشرفتُ بكَ يا أستاذ حسن.

رد حسن التحية، بينما وضع الأستاذ يده في جيبه وسار يصفّر، بينما تحسس حسن وجه فريدة قائلًا:

- سامحيني.

قالت فريدة بصوت مخنوق:

- الذنب ليس ذنبك أنت.

- كنت أحاول الوصول لكِ، ولكن لم أستطع ذلك، التقيتُ برضوان وهو الذي قال لي أنكِ خرجتِ من منزل جدتك؛ فعلمت أنك بالتأكيد ستأتين هنا أولًا، وها أنا أتيت.

- أعلِمتَ ما فعله جدك مع إدريس بن عبد الجبار.

قال حسن وهو يتشبث بيدها:

- علمت، ولكن ليس الوقت مهمًّا كي نتحدث بالأمر، أراكِ متعبة فاتركي كل شيء واستريحي.

أزاحت فريدة يده، ثم قالت:

- علمت ولم تهتم بالأمر ولو حتى قليلًا، ثم إذا لم يكن هذا الوقت المناسب متى سيكون إذًا وألمي هذا هو بسبب جدك؟! نعم بسببه.

- قلت لكِ ما يقال، ليس بيدي شيء؛ فلا أريد أن أُظهِر عجزي أكثر من ذلك.

قالت فريدة متوسلة:

- وأنا لا أريد شيئًا، كل ما أريده منك هو أن تعلم أن جدّكَ قاسٍ لدرجة لا توصف؛ فهو رجل يحمل مسبحة في يده ويذكر اسم الله وهو لا يعلم من هو الله كي يذكره، رجل منافق لا يستحق الحياة، والله عجبتُ لهذه الحياة! تترك اللئيم والخبيث وتأخذ الطيب الذي لا بُدّ من أن يحيا.

قال حسن بنبرة غاضبة:

- قاسٍ وعنيف ويستخدم قسوته مع كل أهالي العزبة من أجل رغبته القذرة، وأتمنى أن يفيق قبل أن تجتمع عليه أهالي العزبة.

- جدُّكَ لن يفيق إلا على صيحة الموت.

- تظنين عندما قلت هذا فهو يعني أنني كرهته أو تغيّر حبي له، لا.. إنني ما زلتُ أحبه ولا أريد أن يؤذيه أي أحد، ولكن أصبحتُ في أمرٍ لعين لا أعلم أقف مع مَن؟! مع جدي الظالم أم مع أهالي العزبة

المظلومين الذين يربطون بطونهم من الجوع، ماذا أنا بفاعل؟ سوى أن أصمت وأستكمل سيري؛ ففُرِضَت عليّ قيود أصبحَت تقيّدُني من كل مكان، حتى أصبحتُ عاجزًا عن الحركة، أتنفس بمقدار وأسير بمقدار، كل شيء أفعله من أجله هو وليس من أجلي أنا.

- أنت محق، لن تستطيع كرهه، أتعلم متى ستكرهه؟ عندما يتطاول عليك ويريد قتلَك؛ ففي ذلك الحين لن تطيق حتى رؤيته ولا سماع صوته، جدُّك هو من حرض إدريس كي يقتلني ويتخلّص مني وكأني حشرة.

قال حسن ساخرًا:

- غريب والله ما فيه؛ تقولين إدريس وليس أبي، ولكن أتوقع منكِ أي شيء؛ فأنت غريبة وتتصرفين بغرابة هذه الأيام.

- لماذا لم تجاوب عليّ؟ ألم أقل لكَ أن جدَّك أراد أن يقتلني؟

- وماذا أفعل إذا علم بمجيئك ومجيئي إلى هنا؟ سيقتلني وسيقتلك، كما قُلت لك لن يرحمنا.

- وإلى متى ستظل تحبني سرًّا؟

- إلى أن يأذن الله، ثم أنتِ تتعجلين، تريدين أن يعلم جدي بقصّتنا، والله سوف نموت نحن الاثنان، وفي ذلك الحين لن نجد طريقًا نسير فيه، وستقولين يا ليتني ما تعجلت.

قالت فريدة وهي تضرب كفًّا بكف:

- لا أتعجل، بل أخشى جُبْنَك.

- تتهمينَنِي بالجُبْن؟! أنا لستُ جبانًا، بل أخشى عليكِ وعلى نفسي لا أكثر.

قالت فريدة وهي تلوح بيدها:

- اذهب يا حسن أريد ان أجلس بمفردي.

هز رأسه؛ فعادت تقول:

- اذهَب رجاء واصنَع لي معروفًا.

ذهب حسن، بينما جلسَت هي وأسندت رأسها إلى الصخرة، وشردت بعيدًا؛ فكانت الشمس تميل تدريجيًّا وتنشر لون الحمرة في السماء المزيّنة بغيوم، فعلمت أنّ ذلك الوقت هو المناسب كي تتسلل للمنزل دون أن يراها أحد، سارت للمنزل وهي تفكّر ويدق قلبها مثل الطبل من شدة الخوف، وجدت مُنَى تجلس أمام المنزل وتعجن الرمل بالماء، فتركت مُنَى لعبتها وركضت إليها، فلثمت فريدة خدها وطلبت منها ألّا تخبر أحدًا بقدومها، ولكن هي تعلم أنّ الجميع سيعلم؛ فهي ستخبر الجميع تقريبًا، صعدت فريدة إلى الغرفة التي تشبه الكهف لعلها تكون مسكنها في الأيام القادمة.

***

«سفينة الحياة تأتي كل يوم بما تحمله لنا من سعادة نتلهف عليها، وعندما نتذوق منها نجد مرارًا لم يسبق لأحد قط أن تذوَّقَه، ولكن مجبرون على أن نرى ما تحمله هذه السفينة بذاتها؛ فنحمل على قدر ما تستطيع قلوبنا حمله، ثم نخرج منها بين الحين والآخر إلى نفوسنا، إلى أن تتألم بألم سبق له في سفينة أخرى مليئة بما تشتهي الأنفس».

(٩)

دبت الحركة في المنزل، وارتفع صوت مُنَى في أرجائه وهي تصرخ وتقول:

- فول.. أريد أن آكُلَ فول.

نهضت فريدة على صوتها؛ فخرجت مسرعة وهي تفركُ في عينيها من هذه الغرفة المظلمة؛ فصُدِمَت بصادق الذي كان واقفًا يدخن، فسقطت اللفافة من يد صادق، وحدّقَ في فريدة قائلًا:

- متى أتيتِ؟ والله كذّبتُ أذني عندما سمعتُ مُنى تهمس في أذن أمّها بأنكِ أتيتِ.

- أتيتُ وصعدتُ إلى هنا كي لا يراني ابن عبد الجبار.

- أكيد نسي ما حدث، لا تهتمي بأمره.

- أبوكَ لا ينسى شيئًا، كنت سأجلس أكثر لولا جدتك سكينة، لم أتحمل شخصيتها، إنها غريبة الأطوار.. تطلب شاي كالحبر وتدخّن مثل الرجال، أقسم أنني كرهتُ الأيام التي قضيتُها هناك.

قهقه صادق قائلًا:

- جدتك صاحبةُ كَيفٍ، هي تدخن منذ زمن طويل، وتتسع رئتاها لعشرين حجر يوميًّا، هيا انزلي ولا تقلقي من الأمر؛ فهو لا يستحق شيئًا.

هزت رأسها وهرع الاثنان للأسفل؛ فجلست فريدة بجانب صادق، بينما فاطمة شهقَت عندما رأتها قائلة:

- لماذا أتيتِ؟ ومتى؟ كذَّبْتُ مُنى عندما قالت لي، هو سيقتُلُكِ حتمًا، عودي إلى منزل جدتك قبل أن يفعلها.

- يفعل ما يفعله، لا يهمني شيء قط.

- والله أنت تستحقين كل شيء حدث لك؛ فأنتِ ذات رأس يابس لا يقبل النصيحة، وتأتين بالمشاكل أينما ذهبتِ.

قال صادق وهو يداعب مُنَى:

- أمي، اتركي الأمر، هو ليس مستحقًّا.

- أنا لا يهمني أمرها أصلًا، لكن كل ما يهمني هو المنزل الذي يخلو من الطعام، اذهَب وأتِ بأي شيء تجده أمامك، وإلا سنربط بطوننا من الجوع؛ فهي لا تذهب للحقل منذ ثلاثة أيام وأبوك أيضًا، وما أجلبه من عملي قليل لا يكفي لشيء.

قالت فريدة بضجر:

- لا تقلقي؛ سأذهب وأجلب ما تحتاجين له، لكن ليس هناك داعي للسرقة، لماذا تحرضينه على فعل ذلك؟ أنا...

لم تُكمل حديثة حتى أتى إدريس وهو يتنحنح قائلًا:

- غراب البين هنا، أهلًا.

أشار إلى وجهه ورأسه اللذين يشبهان تضاريس الجبال، ثم قال:

- أتعلمين أن ما حدث كان بسببكِ أنت؟

نظرت له فريدة نظرة احتقار، ثم قالت:

- الذنب ليس ذنبي، هم كلاب يُخيفون كل الأهالي بأفعالهم القذرة.

- من اليوم ليس لكِ دخل بجدتك حليمة، اتركيها ولا تتدّخلي في أرضها، وابحثي لكِ عن عمل في حقل آخر غير حقلها حتى لا

نمـوت جوعًـا.

- هي بمفرده، لن أتركها بالمرة مهما حدث.

سمع إدريس ذلك وأسرع إليها، وأمسكها من عنقها قائلًا:

- أنا قلت كلمة ولن أكررها مرة أخرى، فهمتِ أم لا تفهمين؟

- اتركها يا أبي، ألم ترى وجهها هذا.

دفع صادق ثم قال:

- اخرس، أأنا سمحت لك بالحديث أيها النذل؟

شعرت فريدة بالاختناق؛ فدفعته للخلف، ثم قالت وهي تتحسس عنقها:

- المـرة القادمـة صـوِّب في الاتجـاه الصحيـح حتـى أمـوت وأتخلـص مـن هـذه الحيـاة، واعلـم أنني لـن أتركهـا، واعتـبر هـذه أيضًـا كلمـة مني ولـن أكررهـا مـرة أخـرى ولـن أتراجـع عنهـا.

- أنـتِ تريديـن أن أمـوت، تعصـين أوامـر أبيـكِ لمـاذا؟ ثـم أنـتِ لم تتعلمـي كيـف يكـون الأدب بعـد، سـوف تجعلينـني أذهـب إلى المـوت.

- أقـف في أي وجـه وأعـصِي أي أمـر يمنعني عـن جـدّتي ويمنعني مـن الانتقـام مـن هـذا الكلـب الـذي يُدعَـى لمـلوم.

- قريبًا سوف يأخذ أرضها، وسوف ترحل جدتك حسرة عليها.

ارتجفـت فريـدة بمجـرد نطقـه لكلمـة الرحيـل، تعلـم أنـه سـيكون حاجـزًا بينهـا وبـين جدتهـا.

أخذت كتبها وهرولت، والتفتَت للخلف قائلة:

- سـوف أذهـب إليهـا، وإذا كان لديـكَ قـوة فامنعنـي الآن عـن ذهـابي هنـاك.

صفعـت البـاب خلفهـا وتركـت إدريـس يشـتعل مـن الغيـظ وكأنـه

بـركان عـلى وشـك الانفجـار، بينـما جلـس صـادق يدخـن وينظـر لـه بـين الحـين والآخـر وكأنـه يتوسـل لـه ألا تنتهـي.

سـارت فريـدة بخطـى متعجلـة حتـى تصـل إلى جدتـه وتعلـم متـى سـيذهبان؛ فأثنـاء مرورهـا بالقهـوة رأت رضـوان جالسًـا؛ فلمحهـا رضـوان وهـرع إليهـا قائـلًا:

- عزيزة وجدّتُكِ هناك ينتظرانه.

نظر إلى وجهها، ثم أشار قائلًا:

- أتتألّمِين من هذا؟ هناك علامات كثيرة في وجهكِ، لعنة الله على إدريس.

نظرت له فريدة وهزت رأسها، فعاد رضوان يتحدث قائلًا:

- أتظنين أن مرزوق وململوم سيقبلان عرض جدتك؟

هزت فريدة رأسها؛ فعاد رضوان يقول بضجر:

- مـاذا حـدث لـك؟ أنـت لسـتِ طبيعيـة! كلـما أقـول شـيئًا تهزيـن رأسـكِ، هـل هـذه الضربـة أثّـرَت عـلى لسـانكِ أيضًـا؟!

وقفت فريدة ثم قالت:

- أنـا أمامـكَ ليـس بي شيء، اتركنـي وشـأني، ثـم أنـت تثرثـر كثـيرًا هـذه الأيـام، وأنـا أكـره الثرثـرة الكثـيرة.

صمـت رضـوان ولم ينبس، إلى أن وصـل إلى الحقـل؛ فوجـدا الجدة تحصد الثـمار هـي وعزيـزة، بينـما تجلـس أسـفل الشـجرة فتـاة فارعـة القامـة عيناها سـوداء، وكانـت صـورة من عزيـزة وكأنها هـي، نظرت لهـا فريدة ثـم قالت:

- ليلى، كيف حالك؟

لم تُجِب؛ فرفعت صوتها قائلة:

- ليلى، هل أنتِ بخير؟

نهضَت الفتاة وهي تتحسَّس بقدمها ويدها؛ فركضت فريدة تجاهها ووضعت الحذاء في قدمها الذي كان يرتمي على الحشائش:

- لم يكن هناك داعٍ للنهوض، اجلسي رجاء.

ردت الفتاة بابتسامة تبرز أسنانها المنمقة قائلة:

- أنا بخير، وأنتِ؟

بدأت تتحسَّس وجه فريدة حتى أتت يدها على موضع الجرح قائلة:

- سامح الله أباكِ.

تركت فريدة ليلى تتحسس الحشائش بيدها، فهي أخت عزيزة ولكن هي تصغر عزيزة بسنة واحدة، فقدت بصرها وسمعها، ولكن السمع لم تفقده تمامًا؛ فتستمع إلى من يحدثها بصوت مرتفع، ولكنها ذكية ذات لسان فصيح وصوت حسن يُطرِبُ الأذن.

قال رضوان وهو يجمع ثمار الطماطم:

- ألم يحضر الأستاذ إلى الآن؟

قالت الجدة وهي تنهض:

- سيحضر حتمًا، لكن تناولوا الطعام الآن ثم اعملوا متى شئتم.

جلبت الجدة بعض حبات الطماطم والخبز والجبن، والتف الجميع من حولها، فأتى الأستاذ وهو يبتسم قائلًا:

- لي الحظ أن أشارككم طعامكم.

جلس أستاذ أنور يتناول طعامه، بينما نهضت فريدة تعد الشاي، تناولوا الشاي بعجلة، بينما نهضت الجدة ودسَّت شيئًا في جيبها وعصبَت رأسها، ثم قالت:

- ادعوا أن يوفّقَني الله في هذا الأمر.

قالت هذا وسارت، بينما وضع أستاذ أنور الكوب وهرع خلفها، بينما راحت تعمل عزيزة ورضوان، وجلست ليلى تلتفِتُ يمينًا ويسارًا، بينما أثناء عمل فريدة وجدَت حجرًا صُوِّبَ إلى ظهرها؛ فصرخت والتفتَت للخلف، فوجدت صبيَّيْن واقفَين يشيران إليها ويضحكان، فقال أحدهما:

- اقلعوا الزرع مثلما تريدون، في النهاية هذه ملك لنا.

سارت فريدة إلى الصبيَّين، بينما سار خلفها رضوان، ووقفت عزيز تتأمل العرض المضحك؛ فقالت فريدة وهي تضع يدها على رأس أحدهما:

- كم عمرك يا شاطر كي تتحدث هكذا؟ ثم لا تتحدث بهذه النبرة حتى يكون عمرك طويلًا.

رد أحدهما وهو يزيح يدها:

- إحدى عشرة سنة، ثم هذا لا يهم.

فقال رضوان متعجلًا:

- فهمتُ الآن، أنتم من أهل الكاشف.

رد بتكبر قائلًا:

- نعم، أسيادكم وهذه الأرض...

توقف الصبي برهة، ثم أشار وأضاف بعجلة:

- لا ليست هذه الأرض فقط، بل كل الأرض الموجودة هنا ستكون ملكًا لنا؛ فنحن أسيادكم وأحق بها منكم، وسنأخذها وستخرجون منها.

قالت فريدة وهي تتفرّس في وجهه:

- لا تتدخَّـل بـالأرض وبهـذه الأشـياء يـا عسـول، ثـم مكانـك في الشـارع، العـب واجـري وافعـل مـا بـدا لـك، ولكـن لا تتحـدث بـشيء أكـبر مـن سـنك.

ضرب الصبي قدم فريدة بقدمه، ثم قال:

- أتحـدث مـا أريـد التحـدث بـه، ليـس لـك شـأن، فعندمـا نتحـدث نحـن تصمتُـون أنتـم، ثـم لا تقـولي لي عسـول مـرة أخـرى.

أشارت فريدة بإصبعها إلى الشجرة قائلة:

- انظـر إلى يمينـك، مـاذا تـرى؟ شـجرة، أتعلـم أن هـذه الشـجرة يُعلَّـق بهـا كل سـنة طفـلان؟ تعلـم لمـاذا؟ حتـى ينبـت التـوت، وهـي الآن تنتظـر الطفلـين كـي تُنبِـت، ومصيرهمـا تعلـم يكـون أيـن؟ في جـوف الشـجرة، هيـا يـا رضـوان كـي نعلقهـما؛ فنحـن نريـد أكل التـوت، ولـن نـأكل إلا عندمـا نُضحِّـي.

صرخ الاثنـان وركضـا خلـف بعضهـما، بينـما غرقـت عزيـزة في الضحك هـي ورضـوان الـذي كان يمسـك قلبـه، بينـما فريـدة قالت مسـتغربة:

- أليس غريبًا أن يتحدث أطفالٌ هكذا وفي مثل هذا العمر؟

قال رضوان وهو يقضم خيارة:

علمـتُ الآن أنهـم يُجرِعُـون الصبيـة جرعـة الاسـتيلاء عـلى أرضنـا، وهـذا هـو هـدف الصغـير قبـل الكبـير؛ فالصغـير هـو الـذي سـيخْرُج مـن البيضـة ويسـتكمل مـا بـدا لـه ويسـتولي أكثـر.

بدأت تقطف فريدة الثمار، ثم قالت:

- الله يلعن كبيرهم وصغيرهم.

- تُرى ماذا فعلت الجدة الآن؟ هل سوف يعطون الأرض لجدّتِكِ أم لا؟

وصلت الجدة حليمة إلى منزل لملوم؛ فدخل الاثنان خلف بعضهما، فوجدا لملوم ومرزوق يجلسان في الحديقة، وكان مرزوق يبحث في كوم أورق أمامه، بينما لملوم يقرقر في الشيشة، فقال الأستاذ أنور بقلق:

- تعلم لماذا أتينا يا سيد لملوم؟

قال لملوم والدخان يتصاعد من منخريه:

- نعم، سنسوِّي الأمر بيننا.

قال مرزوق وهو يلقي بالقلم من يده:

- وكيف سنسويه؟

أسرعت حليمة باستخراج ما دسته في جيبها قائلة:

- تفضل، ستأخذ المال مقابل أن تترك أرضي؛ فأنت كنت ستأخذها كي تبيعها، واعتبرني أشتريها منك.

ضحك مرزوق بينما كان لملوم مشغولًا باستخراج شيء من بين أسنانه؛ فتوقف وضحك بدوره، ثم قال:

- حليمة، أعترف الآن أن الكِبَر والشيبَ نالا منكِ وهما سبب ما وصلتِ له، إذا أردتِ مالًا أُعطِي لكِ على قدر ما تستطيع أن تحمل جيوبك وجيوب من تجلبيه معك؛ فنحن لا نريد المال، بل الأرض.

- الأرض لن تضعوا أقدامكم بها.

قال مرزوق مستعطفًا:

- أنتِ أنانية، نحن نريد أن نتوسَّع ونبني الكثير كي نسكن ونعمّر، أيهون أن نجلس في الخلاء؟ ثم الجميع ترك أرضه، ولكنك لا تريدين تركها لا أعلم لماذا؟ اتركي الأرض وسوف ترين وجه الله.

قالت حليمة بغضب:

- حتـى ولـو وصـل الأمـر أن تجلسـوا في المقابـر، أنتـم لا أرض لكـم عنـدي، اسـتوليتم عـلى مـكان ليـس مكانكـم وأرضٍ ليسـت أرضكـم، فسـترحلون مـن هنـا أيضًـا وعـن قريـب، تعلـم لماذا؟ لأنكـم مطـرودون مـن كل أرض تذهبـون إليهـا.

نهض مرزوق ووقف بجانبها، ثم بصق قائلًا:

- نعم مطرودون كما قُلتِ، أنتِ من اليوم مَن سيتشرّد في أرض الله.

أمسـك أسـتاذ أنـور بعنـق مـرزوق؛ مما جعـل حمـودة يدفعـه بعيـدًا عنـه ويصفعـه عـلى ظهـره بالعصـا التـي توجـد في يـده؛ فسـقطت نظارتـه، وعندمـا انحنـى كـي يجلبهـا ضربـه ضربـة قويـة بـين لـوح كتفـه مما أسـقطه أرضًـا، فصرخـت الجـدة تسـتنجد بالمـارة الذيـن يسـيرون؛ فقـال مـرزوق وهـو يضحـك:

- بمن تستنجدين؟ لن يرد أحد مهما صرختِ.

- سـوف أشـتكي ممّـا تفعلـون، أنتـم كلاب، مـاذا ننتظـر مـن كلـب مثلـك أنـت وهـو؟

قال لملوم وهو يهمس في أذنها قائلًا:

- لمـن سـوف تشـتكين؟ لنـا مثـلًا؟! الـشيء الـذي لم تعلميـه إلى الآن أننـا كل شيء، بمنتهـى البسـاطة الحكـم والحاكـم، نحـن النظـام يـا حليمـة.

دفعتـه للخلـف وخرجـت مهرولـة، بينـما حـاول الأسـتاذ أنـور أن ينهـض ويسـير خلفهـا ببطء وهـو يمسـك ظهـره الـذي لم يشـعر بوجـوده؛ فيـد حمـودة قويـة.

وصـل الاثنـان إلى الحقـل، وجلسـت الجـدة أسـفل الشـجرة صامتـة تتطلـع إلى أبي القـردان الـذي كان يحـاول اصطيـاد دودة الأرض، بينـما ظلَّـت

فريدة تتساءل ولم تجد إجابة من أحدهما؛ فالاثنان صامتان، فقال رضوان بصوت غليظ:

- قل لنا يا سيد أنور ماذا فعلتما بالضبط؟

قال الأستاذ أنور وهو يضبط نظارته ليخفي دموعه:

- لم نفعل شيئًا مهمًّا.

- كيف؟ يعني الأرض سوف تضيع ولن نفعل شيئًا؟

- ماذا فعل بالضبط معكم هذا الكلب؟ خزنت له الكثير وأريد أن أكسر أيديهم جميعًا، وبالأخص مرزوق الذي تطاول عليّ، وحارس الكلب الذي ألقاني في الحوض.

قالت الجدة حليمة وهي تمسك حفنة من التراب:

هذه لا تهمني، كل ما يحزنني هو اعتدائهم علينا وظلمهم لنا، اسمعوا شيئًا واحد فقط واجعلوه في أذنكم، العبرة ليست بما يُسلب منكم ولكن بكيف يسلب، إذا علمتم أن الكيف جبروت فلا تتركه مهما كلفكم الأمر؛ فاذا تركتم فذلك يجعلهم يتكاثرون مثل الجراد المنتشر في كل مكان وزمان، وسوف يزداد يومًا بعد يوم، وستكون أنت المذنب الوحيد الذي تركهم يزدادون؛ فأنا لا أريد أن أكون مذنبة أمام الله ولا أمام نفسي.

صمتت الجدة وبدأت تتطلع إلى أبي القردان الذي كان يمزق فريسته دون رحمة، تبسمت الجدة ابتسامة خفيفة وهي تتطلّع إلى الفريسة البائسة التي تنظر لها مستغيثة وكأن الجدة علمَت أن الجميع يستغيث بالجميع، وهذه هي دورة الحياة.. استكمال القوي على حساب الضعيف الذي يسلّم نفسه من أول صفعة تولم جسده، نهضت فريدة تستكمل

عملها، وأخذت بعض الثمرات ورحلت كي تطعم من يشكو الجوع في المنزل؛ فهي ليس بيدها شيء تفعله، ولم تستطع أن ترى جدتها حزينة كل هذا الحزن وهي مقيّدة؛ فالموت أهون عليها من أن ترى الوجود يتلاشى؛ فجدتها هي الوجود بالنسبة لها.

***

«يحمل القلب بين ثناياه الكثير، ويسير الجسد حاملًا مستغيثًا بقلب ينجده؛ فالحياة صاخبة يتخبط فيها الكبير والصغير مثل العناصر النشطة التي ينتظرها المختبر الذي تقبع فيه لأجل غير مسمى».

(١٠)

كانـت تفوح رائحـة الطعمية في أرجـاء المنزل، نهضت فريـدة وهي تبحث عـن حذائهـا كي تذهب إلى جدتهـا، وقبل ان تتجـه نحو الباب سـمعته يطرق بشـدة؛ فهرعـت إليـه، وعندما فتحت وجـدت عزيـزة واقفة تلهـث ووجهها مـليء بالـتراب؛ فقالت عزيـزة وهي ما زالـت تلهث:

- جدتك.. هيا.

لم تفهـم فريـدة شـيئًا وهـي تركـض ممسكة بيـد عزيـزة يركضـان بـدون توقـف، وكأن هنـاك مـن يلحـق بهـما، رأى صـادق فريـدة وهـو يركـض خلـف أرنـب؛ فـترك الأرنـب وركـض خلـف فريـدة التـي كانـت تتخبط في المـارة، منهـم مـن يصفـق كفًّـا بكـف ومنهـم مـن يلعنهـا ويتهمهـا بالعمـى، وصـل الاثنـان إلى الحقـل وخلفهـما صـادق؛ فوجـدوا الجـدة تجلـس أرضًـا وتُسـقِط الطماطـم والباذنجـان فـوق رأسـها وكأنـه طـير أبابيـل ترميهـم بـه، صرخـت فريـدة في الصبيـة الذيـن عنّفَتهـم مـن قبـل؛ فهـم مـن كان يُلقِـي بذلـك، ولكــن انضـم لهـم ثلاثـة آخـرون يكبرونهـم؛ فكانـوا يقتلعـون الثـمار مـن الأرض ويلقـون عليهـم بـدون رحمـة؛ فألقـت فريـدة بكتبهـا أرضًـا وحاولـت أن تجعـل جدتهـا تنهـض، ولكـن رفضـت النهـوض حتـى تحـوّلَ لـون وجههـا مـن كثـرة الطماطـم التـي أُلقيَـت عليهـا.

أتـى رضـوان بالأسـتاذ أنـور وحـاولا نـزول الأرض وخلفهـما صـادق، ولكـن الصبيـة اسـتخدموا الأحجار والتراب بـدلًا من الثـمار، تراجع رضوان وأسـتاذ أنـور، بينـما نـزل صـادق دون أن يبـالي؛ فأصـاب حجر جبينـه، تلوّى

وسقط أرضًا، بينما الباقون امتلأوا بالتراب، فركَت فريدة عينها وهي تحاول أن ترى القادم؛ فوجدته حسن، ولكن بجانبه جده ومرزوق والآخرين، وقف مرزوق أمامها؛ فأمسكت فريدة حفنة تراب وألقتها عليهم كما فعلت من قبل، وبينما هي تمسك بالثمار كي تلقي بها وقف أمامها حسن وهو يمنعها وينظر في عينيها نظره توسل ألّا تفعل شيئًا يجعلها تندم؛ فهي تكلفه فوق طاقته، لا يستطيع أن يقف أمام جده، وأمام حبيبته التي لا يتخيل الوجود بدونها.

ترك يدها وسار يتطلع بين الحين والآخر خلفه، بينما هي تنظر له وكل نظرة تتهمه بالجبن والخذلان، بينما أوقف لملوم الصبية بإشارة من يده، وقال ساخرًا:

- علمتِ أننا نأخذ إذا أردتِ أم لم تريدي؟

قال ذلك وتوجه إلى حليمة التي ما زالت على الأرض تنظر أرضًا دون أن تنبس بكلمة واحدة؛ فجلس أمامها ثم قال:

- لماذا لا تردين؟ أصابك الخرس أم القِطُّ أكل لسانك؛ فهو يستحق قطعه؟

قالت فريدة وهي تقف أمام جدتها:

- إذا لم ترحل فسأفعل ما لا يرضيك.

وقف مرزوق أمامها، ثم قال:

- أبوكِ لم يؤدبك بعد أم ما زلتِ لا تعلمين شيئًا عن الأدب؟ إذًا نحن سوف نتولى هذا ونؤدبك.

أشار إلى حمودة بيده، ثم قال:

- قل لي ما رأيك في ذلك يا حمودة؟ ألم يوصي الله بحسن الخلق والأدب؟

رد حمودة متعجلًا:

- نعم نؤدبها يا سيدي.. نؤدبها.

نهض صادق من مكانه وهو يضع يده على موضع الجرح قائلًا:

- تعلم من الذي يحتاج لذلك الأدب، أنتم.. نعم أنتم.

قال الملوم والغضب يستحوذ عليه:

- قلتُ أبوكَ رجل طيب، ولكنه رجل ملعون؛ لأنه أنجب كلابًا مثلك أنت وأختك.

اشتعل الرأس غيظًا مما قاله؛ فأمسك صادق بعنقه ووجّهَ له عدت لكمات متتالية في أنقه الصغير الذي يشبه أنف الطفل، انهال الضرب على صادق والركل من حمودة والروخ، حاول أن يوقفهما رضوان، ولكن أمسكه حمودة وحارس ووجّها له الركل؛ فتدخل أستاذ أنور كي يجذب رضوان من بين أيديهما؛ فكان يلهث، وأثناء نزع رضوان من بين أيديهم كوّرَ الروخ يده وأعطاه لكمة في نظارته كسرها، غضب أستاذ أنور؛ فأمسك قالبًا من الطوب ونزل به على رأس الروخ الذي تشبه البطيخة، سقط الروخ أرضًا، بينما ألقَى حارسُ رضوانَ في الحوض، فركضت إليه عزيزة كي تخرجه، بينما أمسكت فريدة جدّتها وهرعت بها إلى الصخرة، بينما أخرج مرزوق المسدس من جيبه وأطلق عدة طلقات متتالية في الهواء؛ فهجم عليهم أهالي الكاشف من كل صوب وحدب، فهرعت عزيزة برضوان وخلفهما أستاذ أنور وصادق الذي وجد ليلى تركض وتتعثر باحثة عن أختها في الطريق، وصل صادق إلى الصخرة فوجد الجميع؛ فوضع يد ليلى في يد عزيزة قائلًا وهو يزيل الدم بكُمّ جلبابه:

- نجَونا بصعوبة، الموت كان بيننا وبينه خطوة واحدة، أقسم أنها كانت أقل من خطوة.

قال رضوان وهو ينشف جلبابه:

- أخذوا الأرض.

- اللعنة تحل على أهل الكاشف جميعًا.

قال أستاذ أنور وكأنه حكمٌ يعطي إنذار الإنهاء:

- من اليوم ليس لكم مكان هناك، لا يذهب أحد منكم، اليوم كان النهاية في القصة.

- وماذا سنفعل الآن؟

قالت فريدة بغضب:

- ليس هناك نهاية؛ فنحن من سيضع النهاية لكل شيء.

- ألم تري الأسلحة التي كانت بحوزتهم؟ وكيف تصرف الصبية وكيف انهال علينا أهل الكاشف؟ إذا لم نفر الآن لكُنّا طعامهم اليوم.

- اللعنة على الكاشف وأهله؛ فالأرض كانت مصدر رزقنا الوحيد الذي يمنعنا عن الخطأ.

- الخطأ سيظل خلفنا طول ما هؤلاء موجودون وسطنا.

قال رضوان بصوت مكتوم:

- سأعود لشيء أمقته دائمًا، سوف أسرق قوت يومهم مرة أخرى، وأسرق من أهل العزبة الذين ليس لهم ذنب في أي شيء.

قالت فريدة بنبرة غاضبة:

- كل منكم يفكر في نفسه فقط، وماذا سيصنع بعدما أخذوا الأرض، لماذا لا تفكروا في كيف نعود بها مرة أخرى منهم؟

قال أستاذ أنور وهو يشير إلى الجدة حليمة التي أسندت ظهرها إلى الصخرة ودخلت في صمتها المعتاد:

- فريـدة، انظـري لجدتـك، هـي غابـت عنّـا وعـن الأرض، فكيـف حـدث كل ذلـك أمامهـا ولم تُجـب وكأنهـا لم تـرَ شـيئًا؟

قالت عزيزة وهي تُجلِس أختها:

- الأرض أم حياتنا يا فريدة؟

- الأرض، نعـم.. إذا أتـت هـذه الأرض فسـوف نحيـا، ثـم المشـكلة ليسـت بهـا كـما قالـت، بـل بكيـف أُخِـذَت منـا؛ فقـد أُخِـذت بالقـوة والبلطجـة وتوجيـه السـلاح في وجوهنـا، سـوف يجعلونـا نخـرج مـن العزبـة التـي ولدنـا بـه كـما حـدث مـع أشـخاص مـن قبـل، ونحـن لـن نفعـل شـيئًا؛ لأننـا لم نفعـل الآن حتـى نفعـل غـدًا.

- السلاح هو الذي يحميهم.

- هـم تسـلحوا بالسـلاح ونحـن سـوف نتسـلح بالصبر والقـوة، حتـى تحقّـق حلمـك، ألم يكـن هـذا حديثـك يـا رضـوان؟ ألم تحلـم ولـك أحـلام مـع وقـف التنفيـذ؟

- كُفِّـي يـا فريـدة عـن هـذا العبـث، الصـبر والقـوة التـي تتحدثـين عنهـما تلاشَـا، وإذا كان هـؤلاء سـوف يجلبـون أرض جدتـك اجلسـي هنـا واصـبري وكـوني قويـة، وهـي سـوف تـأتي لأسـفل قدمـك.

قال أستاذ أنور وهو يتفقد نظارته:

- فيقـي يـا فريـدة مـن هـذا الوهـم، اليـوم القـوة هـي صـوت السـلاح الـذي جعلنـا نفـر اليـوم خائفِـين مـن المـوت، رضـوان محـق في حديثـه.

- المـوت! آه لـو كان الإنسـان خالـدًا في الحيـاة بـدون مـوت؛ فلـولا رجفـة المـوت والخـوف منـه لـكان الإنسـان وصـل إلى مـا يفـوق الخيـال.

- ليس بأيدينا شيء كي نفعله أكثر مما فعلناه.

- اتركي هذا الأمر ولا تفكري به مرة أخرى.

شهقت الجدة بصوت مرتفع؛ فركضت تجاه فريدة وهي تحتضنها بقوة وكأن الموت سوف ينزعها منها، انهمرت دموع الاثنين بدون توقف، فقالت فريدة بصوت يخنقه البكاء:

- ستعود مرة أخري لكِ.

فقالت حليمة وهي تزيل دموع فريدة:

- لا أريدها، لا أريد شيئًا، أشد ما يحزنني دموعك وألمك يا عزيزتي، يا مَن أنزع قلبي من أجلِك.

صمتَت الجدة وانتحبت فريدة؛ فهما روح واحدة تتمثَّل في جسدين، فكيف سوف يفترقان؟! سيكون الموت عدوًّا لها؛ فهو ما فرقها عن زهرةٍ تأخذ منها الرحيق لتحيا، إذا ضحكا يضحكان وكأنهما لن يتوقفا عنه، وإذا بكت أعينهما لا تزرف الدمع! بل تفيض دون توقف، قالت فريدة وهي تضع رأس جدتها على فخذها:

- سوف ننقلها إلى المنزل.

أشارت الجدة بإصبعها على أنها ستبقى هنا لن تذهب لأي مكان، تطلّعَت فريدة في كبد السماء وكأنها تطلب من النجوم الغابرة أن تنتشلها مما هي في، من ألم وحزن طغَى على قلوب بريئة لا تعرف سوى الحب الذي يسكن بين ضلوعهم، رحلت عزيزة وأختها، بينما توكّأ رضوان على كتف أستاذ أنور وذهبا، بينما لمح صادق الأرنب الذي كان يركض خلفه منذ قليل؛ فراح يقفز هنا وهناك وهو يضع جلبابه بين أسنانه ويركض خلفه.

***

«الحـزن يطـرق أبـواب قلـوب كثـيرة، ويسـتقبل القلـب طربًـا وكأنـه سيشـفِي جروحًـا مكثَـت فيـه، ولكـن يعـود يبكِـي كـما يبكـي المولـود يـوم مـيلاده».

(١١)

مكثت فريدة يومين بجانب جدتها حليمة التي كانت تصارع الموت من أجل ألا ترى دموع هذه الفتاة الشقية التي جنى عليها الزمن وأخضعها بسوطه، كان يزورها رضوان وأستاذ أنور وأحيانًا صادق، يجلسون بعض الوقت ويرحلون، أما عزيزة فكانت تجلب لهم الطعام وتأتي للاطمئنان عليهم، وها هي عزيزة جالبة لهم الطعام وآتية كعادتها، ولكن بوجه عابس وفي يدها ليلى، وضعت الطعام بجانب فريدة التي كانت تجلس شاردة؛ فقالت بعجلة:

- هل علمتِ بما حدث اليوم؟

هزت فريدة رأسها، ثم قالت:

- لا، ما الذي حدث؟

- لملوم توعّدَ لنا جميعًا؛ لأن الروخ مات، نعم مات، اليوم سمعت هذا الخبر وأنا آتية إلى هنا، واليوم أكيد نهايتنا، واليوم أيضًا يضع الأساس لبناء منزل في أرض جدتك بعد الحادث، أقسَمَ مرزوق أنه سيشيّد منزل في غضون أسابيع، وسيجعل حليمة تتحسرّ على أرضها، وهذا هو الحديث الذي يدور على ألسنة الخلق في العزبة.

انتفضَت فريدة من مكانها وهي تضع يدها على فم عزيزة قائلة:

- اصمتي، لا أريد لجدتي أن تعلم بشيء مهما حدث، كوني قريبة منها ولا تسمحي لها بالنهوض.

جذبت عزيزة فريدة من ذراعها قائلة:

- إلى أين ستذهبين؟

جذبت ذراعها بقوة وسارت تقول:

- إلى مرزوق؛ لأنه هو من سيتحسّر اليوم على ما يفعله بنا، أقسم أنه سيكون عبرة لمن لا يعتبر.

ركضت عزيزة خلفها وهي تقول:

- نحن الآن قاتلون في نظره ويريد الانتقام، إذا ذهبتِ إلى هناك فسوف يقتلك ويقتلنا جميعًا.

- نحن لم نقتل أحدًا، هم من قتلوا، وقلتُ لكِ عودي إلى جدتي.

لم تعلم عزيزة ماذا تفعل، كل ما فعلته أنها أجلست ليلى بجانب الجدة؛ فهي شبه غائبة عن الوجود، وراحت تبحث عن رضوان كي يلحق بها وإلا سوف تُقتَل عندما يجدوها بمفردها، لم تجد لرضوان أي أثر، رأت بالصدفة الأستاذ أنور قادمًا؛ فهرعت إليه تستغيث به، فعندما علم بالأمر هرع، بينما عادت عزيزة إلى الصخرة مرة أخرى.

وقفت فريدة أمام الحقل تتأمله، كم تغير بين ليلة وضحاها! الشجر قُطِّع وتراكم الرمل في الأرض، وقُلِعَت الثمار وهدموا الغرفة التي كانت تبيت فيها الجدة، والأغنام أصبحت شريدة، وجدت ضحكة مجلجلة تخرج من أحد خلفها، مسحت دموعها والتفتَت للخلف وجدته مرزوق والملوم يجلسان وأمامهما كوم من الأوراق، وكان بجانبهما رجل غريب لم ترَه فريدة من قبل، كان طويل القامة ذا عين زرقاء ونحيف، وله بعض الشعيرات في مفترق راسه الأصلع وكأنه ببغاء، اتجهت فريدة لهم قائلة:

- تحولت من أرض تُطعِم أهل العزبة لمنزل حقير ستعمره كلاب.

نهض لملوم من على كرسيه، وأعطى لهذا الرجل الذي يشبه الببغاء قائلًا:

- هذا الذي سيعمره، تفضل امضِ هنا يا سيد بهاء، من اليوم هي ملك لك؛ فأنت تستحق.

- كل من هب ودب تجلبه هنا ليجلس بمنزلنا وأرضنا، لماذا؟ وتطردونا نحن منها على الرغم من أننا أهلها، وُلِدْنَا فيها وسنموت فيها، أما أنتم مشردون، تعلم أن الذي يتشرّد في أرض الله عندما يغلب ويضع يده على خده مثل النساء يفعل أفعالكم الرخيصة القذرة كي تجدون مسكنًا، ولكن أنتم لا تستحقون حتى غرفة ولا حتى شبرًا من هذه الأراضي التي استوليتم عليها بالقوة، قُلِعَت الأشجار وشُرِّدَت الأهالي بسببِ مَن؟ بسببكم أنتم، لا تحسبوا أنكم سوف تظلون هكذا، مهما زرعتَ ومهما حصدت سيأتي يوم وستنقلب الموازين ضدك؛ لأن لا بُدّ من عودة الحق لأهله، نعم كل شيء سيعود، العيون التي ذرفَت الكثير من الدموع سوف تفيض حتى تغرَقُوا، والقلوب التي كتمت الغيظ سوف تخرج الغيظ عليكم، وسيكون هذا الغيظ مثل البركان الذي سينفجر في وجوهكم، ولن ينجو كبيركم ولا صغيركم؛ لأنكم لم تفرقون بين طفل يرضع وبين شيخ وامرأة، القادم لكم أنتم، أنتظر منك لو.

ضحك لملوم ضحكة هستيرية وبدأت نوبة السعال:

- كح.... كح اذهبي يا أمورة واتركي هذا الكلام لأحد غيرك، ثم أهلك كح.. كح، ثم أهلك يجلسون وينتظرون الطعام، إنهم يربطون بطونهم كح..كح، اللعنة على هذا السعال، يربطون بطونهم من الجوع.. اذهبي كح..كح.

- لن أذهب، سوف أجلس هنا، وفي هذه الأرض بالأخص.

قالت هذا وتوجهت لأرض جدتها، وجلست وسط الرمال والطوب الذي كان يتساقط فوق رأسها وهي لا تبالي لشيء، ذلك جعل مرزوق يشتعل من الغيظ؛ فتوجه لملوم إليها قائلًا:

- إذا لم تذهبي أقسم سأجعلكِ تلحقين بالذي مات على أيديكم.

- أنتم من ستلحقون به عن قريب، وأعلم أنه مات بسببكم وليس بسببنا نحن.

أتى الأستاذ أنور مهرولًا ليوقف ما تفعله فريدة، وحاول أن يجعلها تنهض ولكنه أبت النهوض، ومكثت نصف ساعة في الأرض؛ فمكث بجانبها وهو يترقب أي رد فعل من لملوم، يعلم أن هذه اللحظة الحاسمة ولا بُدّ من استغلالها، لمحت فريدة عزيزة التي كانت تركض وتتعثر؛ فهرعت وركضت تجاهها، فقالت عزيزة من على بعد خطوتين:

- جدتك.. جـ. ك.

هرع خلفهما أستاذ أنور، بينما وقف لملوم يضحك ضحكة جنونية، وكلما ازداد في الضحك كلما ازداد السعال معه.

وصلت فريدة إلى الصخرة، وكلما كانت على وشك الوصول تمنعها قدمها من أن تخطو خطوة واحدة تجعل قلبها يتمزّق ويتحسّر، كان رضوان يحتضن الجدة وينتحب، بينما أمها تحمل مُنَى وتضمها بذراعها وتلطم خدها، بينما مُنى تضع إبهامها في فمها وتنتحب، وصادق يتلفَّت يمينا ويسار وكأنه يبحث عن غنيمة، وقفت فريدة بجانب ليلى التي كانت تبكي بصوت مسموع وقدمها ثقُلَت في الأرض، لم تستطع أن تصل إلى جدتها، ولكن كان لا بُدّ من أن تسير؛ فارتمت

بجانب رضوان الذي سلّم جدتها إلى حضنه، وجلس أسفل قدمها؛ فاحتضنت فريدة جدتها وشعرت برجفة جسدها؛ فكان جسدها باردًا لدرجة تسير القشعريرة في الجسد، تتنفس بعمق وكأن الهواء مقطوع عنها؛ فصرخت فريدة فيهم قائلة:

- ابتعدوا، ابتعدوا كي تتنفس، ابتعدوا.

فتحت الجدة عينها ونظرت في عين فريدة، وظهرت على شفتها الزرقاء ابتسامة خفيفة؛ فمسحت دموع فريدة وهي تقول:

- أحزن لعدم.. سـ سماع صوتك مرة أخرى، ولن أرى وجهكِ الجميل.

سال مخاض فريدة وهي تنتحب وتضم جدتها إلى حضنها قائلة:

- لا، لا تتركيني بمفردي، خذيني معكِ، كيف أحيا من بعدك؟ كيف أحيا؟ قولي لي كيف أحيا؟ أنتِ كل شيء، سأفقد الكل؛ فماذا يبقَى لي يا أمي فماذا يبقى لي؟ أنتِ أمي وكل شيء في هذه الحياة، يحزنني فراقكِ، لماذا يريد الموت إن يحرمني منكِ لماذا؟ أهونُ عليكِ أن أكون بمفردي في هذه الحياة؟ أهون عليكِ؟ لا أعلم، إذًا انهضي.. سنعود إلى المنزل وسوف أجلب لك العنب المجفف، أعلم أنكِ تحبينه، اجعلها تنهض يا رضوان.. اجعلها، حلّفتُك بالله اجعلها تنهض.

قالت الجدة بصوت متقطع:

- لا أخشى الموت، ولكن أخشى الزمن عليكِ.

لم تستكمل الجدة حديثها وشهقت شهقة قوية؛ فرفعت فريدة رأسها واقتربت منها وكأنها تدعو الموت أن يأخذها معها، فتنهدت بقوة وارتفع صدرها ثم انخفض وانقطعَت أنفاسها، دفنت فريدة

وجهها في صدر جدتها وهي تنتحب قائلة:

- لماذا رحلتِ وتركتِني بمفردي؟!

نظرت لهم وأضافت:

- قولوا لي لماذا رحلَت وتركَتني هنا؟! أريد أن أذهب معها، لا أريد أن أبقى بمفردي رجاء.

اقترب منها أستاذ أنور وأبعدها عن جدته كي تُهيأ للدفن، صرخت فريدة كثيرًا والجميع بكى علي حالها الذي كان يشبه حال طفل فقَدَ أمه، بينما وقف صادق خلف الصخرة ووضع يده على رأسه وهو ينتحب على حال فريدة؛ فهو يعلم جيدًا أنها رحلت برحيل جدتها؛ فهي كانت المياه التي تسقي أرض بور فتُحيِيها، وكانت النور الذي يجعل الظلام يتلاشَى؛ فاليوم ماتت بموتها ورحلت برحيلها؛ فهي فقدت حبًّا وعطفًا سيكونان تحت التراب، فمن ذا الذي سيعطيها بعد اليوم؟ ستكون أرضًا جرداء ومكانًا ليس به حياة، وستعمره الوحشة والظلام، وستكون جسدًا بلا روح؛ فاليوم زال الوجود، فصمتها يقول هذا حقًّا، صمتت ووقفت دموع عينيها ولكنها تبكي من داخلها، والبكاء من الداخل ألعن؛ فهو ألم ووجع وحزن كشبحٍ يحسّر قلوبنا بين يده.

هُيئَت الجدة للدفن، واشترك جميع أفراد العزبة في دفنها، حتى لملوم خرج في الجنازة وحسن الذي كان يتطلّع إلى فريدة ويريد أن يحتضنها ويفر من هذا العالم، نظرت فريدة إلى لملوم نظرة مليئة بالاحتقار، كانت تريد أن تراه هو الذي ينهال عليه التراب وليس جدتها، لو كان بيدها لكانت قتلته دون أن تتردّد لحظة واحدة، ولكن هي لن

تلوث يدها في دم رجس.. دم فاسد مثل دمه؛ فهو الذي يسلب الأهالي ويأخذ قوت يومِهم ويجعلهم غارقين في كلام معسول حتى تراكم الذباب عليهم، ويكتب أقدارهم وكأنه إله على الأرض يُحيِي من يريد ويُمِيت من يريد، ويجعل الآخرين يأخذون أماكنهم ويقول لا أصل لهم؛ فهو كوّنَ مستعمرة خبيثة خلقَت العنصرية بين الخلق.

رحل الجميع بعد العزاء الذي كان على القبر، وبقيَت فريدة بجانب المقبرة وكأن جدتها ستخرج مرة أخرى، طلب أستاذ أنور منها الرحيل ولكنها أبت؛ فأصرّ صادق على أن تعود حتى إلى الصخرة وتبقى هناك، فأمسكت عزيزة بذراعها وسارت إلى الصخرة؛ فلم يكن لديها القوة الكافية أن تقف وتسير، فسرعان ما ارتمت على الأرض بمجرد أن وصلت إلى هناك، فقالت بصوت غائب:

- أريد ان أجلس هنا بعض الوقت.

أستاذ أنور وهو يجلس بجانبها:

- إذًا سوف أجلس معك.

قالت وهي تتفرّس في وجهه وكأن أول مرة تراه:

- قلت بمفردي.

كانت هذه الكلمة مثل الصعقة الكهربائية، نهض وهو يداري خجله قائلًا:

- كما تريدين.

فرحل وهو يتطلع إليها، وكان على وشك البكاء على حالها الذي تبدّل في يوم وليلة؛ فكانت تملك حبًّا لم ينقطع عنها ولو قليلًا لشخص لا يمتلك سوى الألم والخوف والصمت الذين سيكونون بمثابة

زائريـن ينزلـون في فنـدق قلبهـا بـين الحـين والآخـر؛ فقـد سـقطَت في بحـر لـن تنجـو مـن تلاطـم أمواجـه العاليـة، رحـل رضـوان بـدوره بعدمـا لثـم يدهـا قائـلًا:

- جميعنـا سـنرحل، ولكـن هنـاك فـرق توقيـت بـين ذهابنـا؛ فـلا تقلقي، سـنلتقي جميعًـا هنـاك وسـوف نمـرح في أرض ليسـت لهـا بدايـة مـن نهايـة، وليسـت أرضًـا موضوعـة عليهـا أعـين كثـيرة.

نهـض قبـل أن تسـقط الدمـوع مـن عينيـه، ورحـل صـادق خلفهـما، فجلسـت تحملـق في الشـمس التـي كانـت تغيـب وتودّعهـا، وكأن هـذه الشـمس لـن تعـود مـرة أخـرى؛ فسـوف تغيـب إلى الأبـد، سـمعت صوتًـا يـأتي مـن خلفهـا قائـلًا:

- البقاء لله.

تلفتـت فوجدتـه حسـن الـذي جلـس بجانبهـا وصمـت قليـلًا، ثـم قـال:

- اليوم سأرحل.

نزلـت هـذه الكلمـة في نفسـها وكأنهـا صاعقـة مـن السـماء هبطـت عليهـا، كل مـا فعلتـه هـي الدمـوع التـي سـتكون أنيسـة مـن اليـوم؛ فأمسـك بيدهـا وتشـبث بهـا قائـلًا:

- اعلمـي أننـي أحبـك حبًّـا كبـيرًا، لا أسـتطع أن أصـف هـذا الحـب لـكِ، وعهـدٌ عـليّ سـيبقى هـذا الحـب في قلبـي لا ينقـص، بـل سـيزيد يومًـا بعـد يـوم، عِدِينـي أنـتِ أن تظـلِّي تحتفظـين بهـذا الحـب إلى أن أعـود، واعلمـي أننـي سـوف أعـود يومًـا مـا.

نظرت فريدة في عينه، وقالت بصوت ممتلئ بالدموع:

- أعدك.

نهضَت وجذبت يدها، وسارت بخطى بطيئة، بينما وقف هو يتطلّع إليها بحزن يملؤه الشوق، تعلم أن اليوم رحل اثنان عنها، منهم لن ترَاه مرة أخرى، ومنهم ستنتظره لأجل غير مسمى.

***

(دفنت زهرة برحيقها في التراب، وذاب حبها في وسط الرمال الباردة؛ فتجمد حب، وانطفأ قمر غابت شمسُه برحيلها، وتوقف شراع السفينة؛ فأخذها موج عالٍ وألقاها في حضيض الظلام البارد.)

(١٢)

مـرت الأيام والسـنوات علة فريـدة متثاقلة بعـد فراق جدتهـا وبعد رحيل حسـن، فظلـت تتردّد لخمس سـنوات عـلى الصخـرة يوميًا؛ كـي تجمع صورة جدتهـا التـي تتلاشَـى، وتصبّر نفسـها التـي ضلَّت طريقهـا بعد الفـراق الذي أتـى بفراغـه ومـزَّق حياتهـا، فكانت تجد عنـد الصخـرة الألم والأمـل؛ فتتذكر أن الأمـل سـيأتي، فقـد مـرت خمس سـنوات عـلى رحيلـه، وحتما سـيعود بعد طـول هـذه المـدة التي كان يزداد شـوقها له يومًا بعـد يوم حتى تراكـم، لم تتغيّر كثـيرًا، بـل شـحب وجههـا وازدادت نحافـة، وأصبحَـت تقرأ كثـيرا وطوال اليـوم؛ مما دفـع ذلـك إلى تعيينهـا كمعلمـة مسـاعدة في فصـل المعرفـة، الذي أصبـح فصلـين بجانب بعضهـا البعض، وعـادوا إليه كـما كانوا بعدمـا كانوا يذهبـون إلى الصخـرة، ولكـن هي احتفظَـت بالذهاب إليه يوميًـا قبل غروب الشـمس التي تتأملها وترسـل سـلامها إلى حسـن؛ فكانت هـذه الصخرة هي همـزة وصـل بين المـاضي الـذي تتعذَّب بـه والمستقبل التي تخشـى قدومه.

ازداد عـدد التلاميـذ داخـل الفصـل وانضـم صـادق إليهـم وتوقـف عـن السرقـة؛ مما دفـع ذلـك أبـوه إلى طـرده مـن المنـزل، وأصبـح رفيـق رضـوان في النـوم بجانـب الصخـرة، بينـما حـاول رضـوان كثـيرًا أن يعـود إلى المنـزل، ولكـن رفـضَ أبـوه عودتـه، وبينـما تسـير فريـدة في الشـوارع التـي تشـبه المتاهـة وتنبعـثُ منهـا رائحـة البـول التي تختلـط برائحـة الخبـز والطعميـة التـي تداعـب الخياشـيم، وتـرى الأطفـال يرتـدون ملابـس مهلهلـة ويركضـون خلـف حمـار، بينـما فتـاة تركـض بفسـتان ممـزّق مـن

على ظهرها، أصبحت منازل أهل الكاشف مجاورة لمنازل أهالي عزبة الصخرة، ولكن رفضَت الأهالي ذلك؛ فقسَم لملوم العزبة إلى نصفين وبنى بينهما سياج يفصل بين هذا وذاك؛ فكان يصعب على أهالي العزبة المرور؛ فكانوا يسلكوا الطرق الخارجية التي تتشعَّب بجانب الصخرة، وعندما يتخطَّى الصبية الحاجز الذي صنعه لملوم يجعل نهاره ليلًا وليله نهارًا، فكان يقوم على الأهالي ويمنع عنهم وصول المياه، ويسلّط عليهم حمودة وحارس بقتلهم وضربهم، ولكن الصبية لم يكفوا يومًا واحدًا عن تخطي الحاجز واشتباكهم مع أهالي الكاشف؛ فكان الضرب بالحجرة والرمال فوق رؤوسهم دائما، لم يستسلم أحد منهم، وجعل أهالي عزبة الصخرة في خندق صغير كادوا أن يختنقوا فيه.

وصلَت فريدة إلى فصل المعرفة؛ فوجدت صادق وبجانبه ليلى وبعضًا من التلاميذ، فكان النظام في الفصل يبعث الاطمئنان في النفس؛ فكانت المقاعد متراصة ويجلسون عليها بعدما كانوا يجلسون أرضًا، وكانت الأضواء منيرة لدرجة توحِي بالبهجة، بدأت فريدة في إعطاء الدرس، ولكن سمعت صوتًا غليظًا يخرج فجأة من بين الجالسين قائلًا:

- نحن نأتي إلى هنا يوميًّا، ماذا نستفيد من هذه الدروس سوى أن نصاب بالصداع ونرحل؟ منذ متى ونحن هنا على أمل أن تعود أرضنا ولكن لم يعُد شيء؟

قالت فريدة غاضبة:

- منذ متى وأنت تأتي إلى هنا؟

قال التلميذ:

- منذ سبعة أشهر.

- أنت تريد أرضك صحيح ولكن احب ان أقول لك أن أرضك لن تعود تعلم لماذا؟ لأننا صمتنا خمس سنوات علي كل ما يفعله بنا الملوم ونحن بعنا الأرض وأخذنا ثمنه وهو الذل والاهانة والجبن الذي جعلكم تلتفتون حولكم أينما ذهبتم.

خرج التلميذ وهو يسب ويلعن في الملوم، وضعت فريدة طرف الإبهام في فمه وصمتت برهة، ثم عادت تقول:

لا أريد أن يذهب أحد منكم خارج العزبة كما ذهب الكثير، اجعلوا كل من ذهب يعود إلى هنا مرة أخرى، أنا سمعت عن ثلاث عائلات رحلَت، لماذا رحلوا وتركوا مكانهم الذي ولدوا فيه؟

- لكن رحل عدد من العزبة ليس ثلاثة فقط، ثم كيف سنبحث عنهم؟ أنت تعلمين أنهم متفرقون في أرض الله.

- ابحثوا في كل مكان، هذه مهمتكم الآن، هم بنوا لأنفسهم مستعمرة وأصبحوا يحيطون بنا من كل جانب، ونحن مثل الفئران المذعورة التي تخشى أن تخرج من مكانها، ولكن نحن سنهدم هذه المستعمرة فوق رؤوسهم.

دخل الأستاذ أنور وهو يقلّب صفحات كتاب بين يده قائلًا:

- من الذي ستهدمين مستعمرته فوق رأسه؟ إنها أحلام وردية.

قالت فريدة بابتسامة مصطنعة:

- اترك الأحلام الوردية تنضج على الأقل.

التفت الأستاذ يمينًا ويسارًا، ثم قال:

- أين رضوان؟ يتغيب كثيرًا هذه الأيام، لماذا؟

- لا أعلم، لكن يا سيد أنور أريدك أن تأتي إلى الصخرة اليوم قبل غروب الشمس وستجد رضوان، ويا ليت الجميع يأتي أيضًا.

- لماذا نأتي جميعنا إلى الصخرة؟ أليس هذا المكان مناسبًا؟

- لا تتعجل، ثم اعلم أن الحائط له أذن تسمعُ في أي وقت.

ودعت فريدة الأستاذ وبلّغَت الجميع وخرجت، ورحلت إلى المنزل الذي ستجده في حالة مزرية، فمهما كبرت مُنَى لن تستطيع تنظيف المنزل بالطريقة الصحيحة، انعطفت فريدة يسارًا مارة بالقهوة، صُدِم كتفها بشخص يسير بخطى متعجلة، وقفت تجمع ما سقط من يدها، فتفرست في وجه الرجل الذي كان يغطّي وجهه بالكامل؛ فوجدته رضوان، نهضت وجذبته من يده ثم اختفت بعيدًا عن الأنظار؛ فنهرته قائلة:

- عُدت للسرقة مرة أخرى! لماذا؟!

قال رضوان وهو يزيل الغطاء من على وجهه:

- ماذا أفعل؟! أمي التقَت بي اليوم وطلبت مني بعض المال؛ فالمنزل ليس به قطعة خبز واحدة وأبي مريض، وأنا لا أمتلك سوى ما يطعمني؛ فلم أعلم ما الذي أفعله سوى أن آخذ أي شيء أجده أمامي.

- أمك وأبوك مثل النار لا يشبعان قط؛ فلا تفعل ذلك مرة أخرى، فأنت تسرق قوت يوم أهلك، يعني تسرق نفسك يا رضوان، سعدتُ أنكَ تحمَّلتَ عذاب خمس سنوات.

قال رضوان بعنف:

- ها أنتِ قُلتيها، خمس سنوات آكلُ وأشرب وأنام بجانب الصخرة، أقسمُ لكِ أنّني نسيتُ منزلنا، نسيت كل ركن فيه، أريد أن أعود إليه، سئمت هذا الوضع؛ فهو لم يتغير، انظري.. أهل الكاشف

يتغـيرون ويسـبقون الزمـن ونحـن نركـض خلـف لا شيء يُدعَـى أرضًـا أصبحَـت منـازل شـاهقة، هـم فعلـوا مـا يريدونـه؛ فنتركهـم وشـأنهم ونفعـل نحـن مـا يريـدون فعلـه.

- عيبكَ أنكَ تيأس دائمًا.

- ومـا هـي النفـس التـي تظـل صامـدة طـول هـذه الفـترة؟ بـالله عليـكِ يرضيـك هـذا؟

- لا يرضينـي، ولكـن عندمـا تأخـذ شـيئًا خـذ، ولكـن يكـون ملـكًا لـك، وهـا هنـا كل الأشـياء ملـك لنـا؛ فخـذ منـه كـما تريـد.

- ماذا تعنين بذلك؟

قالت وهي تسير:

- تعالَ إلى الصخرة قبل غروب الشمس وستعلم.

ذهبـت فريـدة بينـما، خرجـت امـرأة مـن خلـف الحائـط؛ فكانـت أم رضـوان، تغـيّرَت كثـيرًا، كانـت شـاحبة والدهن الـذي كانت مكتظـة به زال مـن جسـدها، فعندمـا تراها تشـعر أنها مريضـة، قالت المـرأة وهي تمـد يدها:

- أين المال؟

أسرع رضـوان وأدخـل يـده في جيبـه وأخـرج عـشر جنيهـات وضعهـا في يدهـا قائـلًا:

- لا أمتلك سوى هذه.

تفرست المرأة في وجهه قائلة:

- طـول مـا هـذه الفتـاة خلفـك لـن تكسـب شـيئًا؛ فهـي وجـه نحـس عـلى الجميـع، لا أعلـم لمـاذا تركـض خلفـك؟

- فريـدة ليـس لهـا ذنـب في شيء، ثـم لا تطلبـي مـالًا مـرة أخـرى،

فعندما يكون معي سوف آتي وأجلب لكم ما تشاءون.

قالت المرأة وهي تضع العشرة في جيبها:

- كفى، وتحدث كلامًا معقولًا، نحن أطعمناك وأتى اليوم الذي ستردُّ فيه كل شيء.

- عجبتُ لذلك، أنت تطلبين مني ذلك مقابل شيء لم آخذه أصلًا، ماذا أعطيتما لي؟! أنتما؟! هه ماذا؟ قولي لي، لا تريدين أن تقولي لأنكِ تعلمين أنكِ لم تعطي شيئًا، اذهبي يا أمي، عندما يكون معي سأعطي، لا تقلقي.. سأرد كل شيء عن قريب، ولكن هل يجوز لي العودة إلى المنزل مرة أخرى.

هزت المرأة رأسها قائلة:

- ستعود، ولكن عندما تترك وجه النحس.

رحلت ولم تهتم بأمره، بينما رحل بدوره يبحث عن عزيزة التي لم يرها منذ الصباح، أعدَّت فريدة الطعام، بينما دخل أبوها وهو يضع يده على معدته وكأنه يُنصت إلى ما تطلبه من طعام، تشمم إدريس قائلًا:

- ائتي بالطعام، أنتِ تجعليني دائمًا جائع.

أسرعت فريدة بوضعه كي يكف عن الحديث، فقالت وهي تضع الخبز والعدس أمامه:

- اجعل صادق يعود إلى المنزل مرة أخرى؛ فهو خارج البيت منذ زمن.

قال الرجل وهو يزمجر:

- ائتي بالطعام وارحلي، ولا تجعليني أرى هذا الوجه إلا في الصباح.

- لماذا لا تريد له العودة كما كان، والله أتعجب لك عندما تحرضه على السرقة وتصفق له بيدَيك، كيف تفعل هذا الشيء؟ ألم تشعر

بثقـلِ ضمـيرك؟

قال إدريس ساخرًا:

- ضمـير؟! يـا سـاتر يـا رب! مـن هـو هـذا الضمـير؟ ابـن عمـك ولا ابـن خالـك؟ صراحـة أول مـرة أسـمع عنـه، أهـو أحـد مـن جيراننـا ولا فـرد مـن العزبـة ولا مـن أقاربنـا؟! ولكـن لا أعلـم إن هنـاك أحـدًا يُدعـى ضمـيرًا، منـذ متـى والأسـتاذ ضمـير هنـا؟ إذا لم تكفِّـي عـن الحديـث فسـوف تموتـين عـلى يـدي أبشـع موتـة رأيتِهـا في حياتـك.

رحلـت ولم تنبس بكلمـة، علمَـت أن هـذا الرجـل لم يتغـيّر مهـا حدث، رحلـت إلى الصخـرة التـي تصـب فيهـا أحزانهـا ودموعهـا وتشـتكي إليهـا، وكأن الصخـرة قلـب يشـعر؛ فوجـدت بالقـرب مـن الصخـرة الأسـتاذ أنـور غارقًـا في النـوم وهـو جالـس سـاندًا ظهـره، هزَّتـه برفـق قائلـة:

- لماذا تنام هنا يا سيد أنور؟

قال بصوت يحمل النعاس:

- ألم يصل أحد إلى الآن؟

- سوف يصلون قريبًا بالتأكيد.

- على ماذا تنوين بالضبط؟ فأنتِ ما زلتِ صامدة أمام الملوم!

تبسمت فريدة ثم قالت:

- الصمود هو الغد الذي نتلهف لقدومه.

- أوجدتِ صعوبة بالكتب التي أخذتيها؟

- لا، كانـت ممتعـة لدرجـة كبـيرة، ولكـن أؤمـن أن ليـس مـن هـذه الكتـب نحصـل عـلى العلـم، ولا حتـى المـدارس لم نحـظَ بعلـم منهـا.

قال الأستاذ متسائلًا:

- إذا لم نحصل على العلم من الكتب والمدارس من أين إذًا نحصل؟ إن أمرك غريب.

- ماذا يعني العلم كي أحصل عليه منهم؟ هل يعني القراءة والكتابة والحساب؟ لا، بل يا سيد كل هؤلاء يُسمّون محو جهل لا أكثر، العلم هو الحياة، والحياة هي المعلم الوحيد التي تعطي بدون مقابل، العلم هو معرفة كل كبيرة وصغيرة، هو التأمل والتجريب ورفع صخرة من نفوسنا تثقله، وهو الركض للأمام لا الخلف والعودة إلى الماضي الذي يهذّب نفوسنا ويحسن تهذيبها، والتطلع إلى المستقبل بحماس ودهشة مما فيه.

ضحك الأستاذ قائلًا:

- تتفلسفين كثيرًا هذه الأيام.

- وهل في ذلك جرم؟

- لا، من قال ذلك؟ في الحقيقة أُعجِبتُ بوجهة نظرك، ثم لماذا لا تتفلسفين في قصة الغائب الذي لم يعُد إلى الآن؟ ألم يسأم الخمس سنوات؟

قالت فريدة بنبرة حالمة:

- أنتظر البئر الذي سيروي ظمأ طال خمس سنوات فلم أسأم، وهو أيضًا لن يسأم من شيء قط.

- أتعجب لأمرك! أنت حتى لم تعلمي عنه شيئًا سوى أنه يدرس الطب، هذا كل ما لديكِ من معلومات، حتى لا تعلمين متى سيعود هو؟

- سيعود قريبًا.

- أعلم أنه سيعود، لكن الخمس سنوات كفيلة أن تغير أي شخص منا.

قالت فريدة وهي تفكر:

- وهل أنا تغيرت أمامك الآن؟

- لم أقصدكِ أنت، بل هو.

- جاوب على قدر السؤال، هل أنا تغيرتُ أمامك؟

- لا لم تتغيري، وهذا ما أتعجب له.

- إذًا هو لم يتغير، تعلم لماذا؟ لأنني هو وهو أنا، نحن جسدان في روح واحدة.

تنحنح الأستاذ قائلًا:

- الحب، الحب عمَى للقلوب والنفوس أيضًا، حتى أحيانًا تكبّلنا وتفرض علينا رقابة قاسية لم تكن في صالحنا، ولكن نفعلها ونحن مرغمين على فعلها.

- أقول لك شيئًا ولا تنزعج منه يا سيد أنور؟

- وما هو هذا الشيء؟

- أنت لن تستطيع أن تحب مهما فعلت، آسفة لذلك، ولكن ما دفعني لأقول هذا هو حديثك الذي يجعل الشخص يصاب بالفالج، الحب لم يعرف كلمة لصالحي وصالحه، إنه معنى سامٍ لا يدركه عقل ولا يشعر به قلب سيكون يومًا ترابًا، بل روح تسمو على قلب يجعلك تحلّق فوق السحاب، ويكون بعلمِك.. إذا أحببتَ يومًا اجعل هذا الحب في روحك حتى تصل لمن تحب.

- لكن القلب هو ما يحب وهو ما يكره، ثم إذا لم يكن هو فماذا يكون؟

- لا، القلب لا يحب، بل يؤدي وظيفة بيولوجية لا أكثر؛ لأن صعب على القلب أن يحمل حبًّا بداخله؛ فالحب له معانٍ كثيرة ومختلفة، كل معنى يجعل الإنسان يذهب بعيدًا ولا يعود، حاول أن تبحث في نفسك

لعلَّك تصادف هذا الحب يومًا ما.

لوح أستاذ أنور بيده قائلًا:

- أنتِ تبالغين كثيرًا في الأمر؟

- لم أبالغ، بل شيء أؤمن به؛ فأنتَ تقول القلب لا بُدّ من أن يحب، إذًا أقول أنا إذا كان القلب مكانَ الحب فالعين لا بُدّ من أن ترى حتى ينفذ بصري السماوات السبع ويصل إلى الغائب كي أراه وأرسل سلامي له، ولكن هي ترى لبضعة أمتار فقط كي نشتاق ونتلهّف ونندهش أنه معادلة؛ فالروح ثقيلة بالجسد؛ فلذلك القلب لا يحب والعين لا ترى، حتى الأذن لا تسمع، كنت أتمنى أن تسمع لأبعد أميال كي أسمع صوت أنفاسه تختلج بروحي في يومٍ يُملِي الهوي صدورنا، ولكن هيهات.

- ألم أقل أنكِ تتفلسفين كثيرًا في هذه الأيام.

لمحَت فريدة رضوان يأتي مهرولًا ويجذب أحدًا من يده، أو بالمعني الصحيح يجرجره خلفه، نهضت فريدة والأستاذ أنور مفزوعَين، بينما اقترب رضوان وهو يصفق بيده قائلًا:

- جلبتُ لكِ شيئًا سوف يسعدك.

حملقَت فريدة في الشخص الذي يقف بجانبه؛ فكان شابًّا في عمرهم تقريبًا، يتميز باللون العسلي، وله عين سوداء واسعة وشعره مسترسل على جبينه؛ فمد رضوان يده ثم أشار إلى من يقف بجانبه قائلًا:

- قل يا جِيه ما رأيتَه في مصر، وأعطني هاتفك، هيا يا رجل.

لم تفهم فريدة شيئًا؛ فقال رضوان لاهثًا:

- هو رأى حسن هناك، آه والله، وحسن أعطى له رقم الهاتف، وقال له اجعل رضوان يكلمني وفريدة أيضًا، تخيّلي هذا.

كادت فريـدة ترقـص مـن الفـرح، هرعَـت إلى جيـه الـذي كان يمسـك هاتفـه ويتفـرّس فيـه؛ فكـم كان يلتـفّ ويلصقـه مثـل الـذي كُـسِر؛ فـكان الهاتـف عبـارة عـن خـردة، فقالـت بصـوت يرقـص مـن الفـرح:

- أصـ.. أصحيـح رأيتـه؟ كيـف كان؟ وأيـن رأيتـه ومتـى؟ وهـل سـيعود قريبًـا؟ هـل سـألك عـليّ وعـلى أحـوال عزبتنـا؟

نظـر لهـا جيـة وكاد يبكـي، كيـف يجيـب عـلى كل هـذه الأسـئلة؟ فقـال سريعًـا:

- أنـا رأيتـه، كان يسـير في شـارع المعـز، نعـم.. عندمـا رأيتُـه هرعـتُ إليـه واحتضنتـه، وعزمنـي عـلى فنجـان قهـوة، ثـم طلـب منـي هاتفـي وقـال أجعلهـم يطلبـوني عندمـا تصـل إلى عزبـة الصخـرة، وحلّفَنـي بـالله أول مـا أضـع قدمـي أذهـب إلى رضـوان، وهـا أنـا أتيـت وأنـا أعمـل هنـاك، وقـال لي سـوف نلتقـي، سـأل عـلى الجميـع في العزبـة، وعنـكِ أنـتِ أيضًـا يـا فريـدة، إذا أردتِ أن ترسـلي لـه شـيئًا قـولي لي؛ فأنـا سـوف أعـود بعـد غـدٍ، وسـوف آتي؛ فأنـا أعمـل هنـا وهنـاك وسـتجديني دائـمًا هنـا.

أخـذ رضـوان الهاتـف مـن يـده وطلـب الرقـم، بينـما وقـف أسـتاذ أنـور متعجبًـا منهـما، كان قلـب فريـدة يقـرع مثـل طبـول الحـرب، فقـال رضـوان وهـو يضـع الهاتـف عـلى أذنـه:

- يعطي جرسًا يعطي.. سوف يفتح، ألو.. ألو، ها هو حسن يتحدث.

جذبَت فريدة الهاتف من يده، وقالت بصوت مرتجف:

- ألو.. حسن هل تسمعني؟ ألو، لم يسمعني لم يسمعني، لماذا يا جيه؟

قال جيه وهو يأخذ الهاتف:

- هو شبه معطل؛ فلم تستطيعي أن تتحدثي.

فراح هو الآخر يقول:

- حسن، هل تسمعني؟

خـرج صـوت مرتعـش مـن الهاتـف وكأن أصواتهـم تتخبّـط في ذرات الهـواء كـي تلتقـي وتحتضـن بعـد فـراق دام طويـلًا:

- نعم أسمعك.

أعطى الهاتف سريعًا لفريدة التي سارت يمينًا ويسارًا وهي تقول:

- حسن، ألم تسمع صوتي؟ حسن متى ستأتي؟

انطفأ الهاتف مرة واحدة؛ فقال جيه:

- أظن أن الرصيد نفد، ليست هناك مشكلة، المهم أننا عثرنا على رقمه.

جلسـت فريـدة وهـي تضحـك ودموعهـا تسـيل، ضرب رضـوان كفًّـا بكـف، ثـم قـال:

- ماذا حدث لهذا؟

قالت بصوت فرح:

- سعيدة لأنني سمعتُ صوته، كم اشتقت لسماع صوته.

نهضت إلى جيه الذي وقف متفقدًا هاتفه؛ فقالت متوسلة:

- سوف أرسل معكَ رسالة أوصلها له، اصنع هذا المعروف معي.

هز جيه رأسه، ثم قال:

- غدًا أرسلِيه لي؛ لأنني أسافر فجرًا.

هـرع جيـه، بينـما وقفـت تتأمـل الشـمس وكأنهـا ترسـل سـلامها إلى حسـن، بينـما أتـى صـادق وفي يـده ليـلى وبعـض التلاميـذ خلفـه.

***

تغيب القلوب كثيرًا، ولكن تعود بما غابت به، نحن نحسب ذلك، ولكن تكون صورة تختلط علينا، لا نستطيع تفسيرها ولا التدقيق فيها، ولكن تتّضِح لنا تدريجيًا.

(١٣)

التفّ الجميع من حول فريدة، بينما بحث صادق عن مكان كي يُجلس به ليلى؛ فهو أصبح عونًا لها بعدما امتنع عن السرقة، وعلمت منه أنه يحبها، ولكن هي تأبى هذا الحب الذي سيجعلها تتألم كثيرًا؛ فهي لا تمتلك شيئًا سوى قلبها لتهبه له، ولكن هذا لا يكفي؛ فهي لا ترى ولا تسمع إلا قليلًا، تساءَل الجميع عن ما تريده فريدة؛ فوقفت فريدة في وسطهم ثم قالت:

- أنتم تريدون حقوقكم؟

قال رضوان متلهفًا:

- بالتأكيد، ولكن لم أفهم شيئًا مما قُلتِ، ماذا كان يعني خذ شيئًا ملكًا لك وكل شيء هنا ملك لنا، ولكن ليس بأنفسنا بل غيرنا؟ صدقيني لم أفهم أي شيء قط.

قالت فريدة وهي تطوي ذراعها إلى صدرها:

- سوف نسرق.

فُتِحَت الأفواه وضاقت الأعين وضربت الأيادي؛ فقال رضوان وهو يزدرد ريقه:

- ماذا؟

قال أستاذ أنور وهو عابس:

- أنت الفرحة سبّبَت لك جنان بالتأكيد، هل أنت مجنونة؟ أم كنت ناوية على ذلك من قبل ما حدث منذ قليل؟

- لم أُجَنّ، ثم لا تخلط الأمور؛ فهم استولوا علينا ونحن لم نستطع فعل شيء، صمَتْنا خمس سنوات.. نعم خمس سنوات ضاعت هدَرًا من أعمارنا، ماذا كنا نفعل غير أن نفكر في هذا؟ ونستخدم نفس أسلوبهم الحقير كي ترجِع لنا الأشياء التي سُلِبَت.

توجّهَت إلى شاب يقف يرمقها بنظرة مليئة بالشك قائلة:

- ماذا أعطوك عندما أخذوا منزلك وكنت تبحث في الشوارع عن مكان لأهلك؟

- لا شيء، لم يعطوا أي شيء.

- سمعتم؟ لا شيء، هذا يعني أننا لم نحصل على شيء سوى القهر والفساد، وكل ما يمتلكون ويحيون به هو لنا نحن، ونحن سنأخذه.

- لكن كيف؟

- صادق يا أخي، لا تسألني كيف؟ فأنت أستاذ في ذلك.

قال صادق وهو يقطب حاجبيه:

- ولكن أنا امتنعتُ عن ذلك، وأنت تعلمين.

- أعلم ذلك، وهذا ما نريده هو الامتناع عن ارتكاب الحماقات، وأريد أن تفهموا شيئًا واحد فقط، أننا لن نسرق، بل نرجع شيئًا أُخِذ منا بالقوة، ونحن سنسير على هذا النمط.

قال رضوان وهو يجلس ليريح قدمه:

- إذا كان هذا المبدأ الذي سنسير عليه أنا موافق وأمرنا لله، ولكن مَن سنسرق؟

- مرزوق.

ضرب الأستاذ أنور كفًّا بكف قائلًا:

هنا أقول إن الجنان نالَ منك، هل هناك أحد عاقل يسرق مرزوق؟! بفرد من أهل الكاشف وليس كبيرهم، يا لها من مصيبة ستدقّ فوق رؤوسنا.

- عندما تبدأ في فعل شيء ابدأ بالأكثر قوة حتى ينهار الضعيف، وتعلم أن سرقتنا لمرزوق سيجعل أهالي الكاشف يرهبون ويحيون في اضطراب، ويجلسون منتظرين أدوارهم.

- ومتى سنقوم بذلك إذًا؟

- الساعة الواحدة صباحًا.

قال رضوان وهو ينهض:

- متبقي وقت، أفضّل أن ننتظر هنا جميعًا حتى لا نلفت الأنظار، ولا يذهب مَن لن يقوم بشيء في هذه المهمة، ويبقى من سيفعل حتى لا يشعر أحد بنا، وأنا سوف أذهب لجلب الطعام؛ فكل واحد يخرج من جيبِه مائة وخمسين قرشًا كي نجلب طعامًا.

أخرج البعض والبعض الآخر رحل، فذهب رضوان بينما جلست فريدة تدرس الخطة، فقالت وهي تشير لصادق:

- صادق، أنت ورضوان وثلاثة من التلاميذ الذين بقوا سوف تدخلون منزل مرزوق، أما أستاذ أنور سيقف أسفل السور يصفّر إذا شعر بقدوم أي خطر.

توقفت عندما رأت رضوان يأتي ويأرجح الطعام في يديه قائلًا:

- الجميع سوف يأكل.

أخرج الطعام ووزعه، وجلسوا يتناولون بنهم، فقال صادق وهو يمضغ طعامه:

- مرزوق يمتلك سلاحًا، وأخشى أن...

قاطعته فريدة قائلة:

- سيفعله بالتأكيد؛ فنحن بالنسبة له فئران مذعورة لا بُدّ من التخلص منها، ولكن سوف تدافعون عن أنفسكم إذا شعرتم بأي خطر قادم؟ وإذا كان هناك خطر اهربوا فورًا ولا تتطلّعوا للخلف؛ لأننا لا نريد شيئًا سوى أن يصابوا بالخوف والهلع، هذا هو هدفنا، ولا تجعلوا أحدًا يلمح وجوهكم.

قال الأستاذ أنور وهو يبتسم:

- كم أحب صراحتك! رجل علم يتلصّص على البيوت ويسرق! عجبتُ مما أنا فيه.

تنهدت فريدة بعمق، ثم قالت:

- أنا أترقّب الوضع منذ فترة، لا تقلقوا.. سوف تجدونه مخمورًا؛ فهو يشرب الكثير من بعد صلاة العشاء حتى تثقل رأسه وينام، أما زوجته فهي امرأة عجوز ستخشَى أن تخرج حتى صوتها، أما الخدم فلا تقلقوا منهم، ولكن ابتعدوا عن قتل أحدِهم وكونوا يقِظِين لذلك.

- كم من الخدم يوجد بالمنزل؟

قال أستاذ أنور متلهّفًا:

- ثلاثة.

- من أين علمت ذلك؟

- لا أعلم، قلت تقريبًا، لا أعلم.

- هم حقًا ثلاثة، أحدهم يحرس البوابة الرئيسية، ثم ستجد الآخرَيْن داخل المنزل، والذي يحرس الباب الخارجي سوف تجدونه

يقظًـا؛ فهـذه مهنتـه.

صمتـت فريـدة وصمـت الجميـع يترقـب بخـوف شـديد مـن القـادم، مـرَّت السـاعات مـر السـحاب عـلى الجميـع، فقالـت فريـدة وهـي تتثـاءب:

- مستعدون؟

لم تجـد صوتًـا يجيبهـا؛ فـكل منهـم يتثـاءب والنعـاس يمـلأ جفونهـم، وصمـت يزلـزل نفوسـهم، فقـال رضـوان وهـو يضـع جلبابـه بـين أسـنانه:

- أشعر أنني أول مرة أسرق، لماذا هذا الشعور؟

- لأنـك سـوف تـسرق مـرزوق لا أكثـر، يـا ليـت هـذا يصيبُـك وأنـت تـسرق أهـل العزبـة.

سـار صـادق وثلاثـة مـن التلاميـذ، بينـما هـرع رضـوان وأسـتاذ أنـور خلفهـم، بينـما وقفـت عزيـزة وبجانبهـا فريـدة وليـلي وبعـض مـن التلاميـذ القلائـل، كان الجـو حـارًّا ليـس بـه نسـمة هـواء خفيفـة، ونقيـق الضفـادع يتصاعـد لدرجـة يصـمّ الآذان، فوقفـت فريـدة تترقّـب في الحـرّ الخانـق، بينما وصـل صـادق وتسـلّل السـور، ووقـف أحـد مـن التلاميـذ يطـرق البـاب وينـادي؛ فخـرج لـه الخفـير الـذي كان شـبه نائـم، فقـال التلميـذ متظاهـرًا بأنـه فـرد غريـب عـن العزبـة يبحـث عـن منـزل لملـوم؛ فقـال لـه الخفـير:

- هـذا ليـس منزلـه، ولكـن لمـاذا تبحـث عنـه؟ وخاصـة في هـذا الوقـت المتأخـر، أليـس غريبًـا هـذا؟

قال التلميذ وهو يرتجف من أن ينكَشِفَ أمره:

- قلـتُ إنـكَ رجـل تعـرف الكـرم؛ فلذلـك لجـأت لـك، وهـا أنـت قُلـتَ وقـت متأخـر، لمـاذا لا تجعلنـي أنـام هنـا إلى الصبـاح ثـم أذهـب لـه؟ والله أحتاجـه في مسـألة مهمـة جـدًا يـا أخـي.

قال الخفير وهو يصر على أسنانه:

- غير مسموح طبعًا، أنت تريد أن تخرب بيتي.

قفز صادق في وسط الأشجار المتشابكة، ثم أتى من خلفه وطاخ على رأسه، سقط مغشيًّا عليه، بينما دخل رضوان والباقين ووقف أحدهما مكان الخفير، أما أستاذ أنور وقف يترقب أسفل السور ذهابًا وإيابًا، فتح الباب بسكين وقفز التلاميذ وهم ينتشرون، بينما سار رضوان على أطراف أصابعه؛ فكان المنزل مظلمًا لولا المصباح الذي كان يعلق في الخارج، فكان يعكس ضوءًا طفيفًا في الداخل لكان سقط، دخل الاثنان غرفة على اليمين بينما صادق كان يهرول وكأن المنزل منزله ويحفظ كل ركن فيه، تحسَّسَ رضوان ودخل غرفة، بينما قفز صادق داخل غرفة وتحسّس جيبه، ثم أخرج عود كبريت وأشعله؛ فكانت غرفة المكتب مليئة بالأوراق والكتب، لم يهمه كل هذا، بل الأموال.. أين هي؟ علم أنها ليست هنا، أكيد هو وضعها في مكان آخر، ألقى عود الكبريت بعدما لسع أصبعه وأشعل واحدًا آخر، تفقّد بعض الأوراق وجد ملفًّا لفت نظره؛ فكان ذو ورق يوحي بالتراث الذي اندثر؛ فأمسكه وقلبه يمينًا ويسارًا ثم ألقاه مرة أخرى وخرج، ولكن سرعان ما عاد يضع الملفات على بطنه حتى لا تسقط وربط جلبابه بقوة على خصره؛ فهي ثمينة بالتأكيد وكل شيء سينفع، صعد إلى أعلى لعله يجد شيئًا ما، اصطدم بقوة في رضوان، فقال رضوان بصوت منخفض لدرجة لا تستطيع سماعه إلا وأنت قريب جدًا:

- أخذنا ما استطعنا، هيا.

هز صادق رأسه قائلًا:

- لا، نحن لم نأخذ شيئًا بعد.

- يا أخي، المال ليس هدفنا، إنما الهلع.

قال صادق وهو يجذبه من يده داخلَين إلى غرفة على الطرف الأيسر؛ فكانت هذه هي غرفته زوجته، دخل الاثنان وهما متوجسان، فتش صادق الدولاب فوجد بعض المال وضعه في جيبه، ثم فتّش عدة أدرج متراصّة فوق بعضها، فبحث بها، وأثناء بحثه لم ينتبه إلى جلبابه الذي على خصره فمسَك في أُكَر إحدى الأدراج، وعندما سار كل شيء سقط، نهضت المرأة وهي تتفرس في وجهيهما، وقفا يتطلّعان بها وكأن أقدامهما عجزت، وهنا دوى صوت صراخ حاد؛ فكان صوتها، فهرع صادق نحوها ووضع يده على فمها، ولكن المرأة عضَّت إصبعها وكأنها كلب مفترس، صرخ صادق وكأن صعقة كهربائية صعقته؛ فأعطى المرأة ضربة قوية على مؤخرة رأسها فجعلته تنام كما كانت، بينما نزل رضوان سريعًا وهو يلعن صادق وطمعه الذي سيهلكهما؛ فأثناء هبوطه الدرج تعثّر في شخص كان يصعد؛ فسقط الاثنان، كان هذا مرزوق بقامته القصيرة، كان المسدس في يد مرزوق، تمسَّك بجلباب رضوان عندما نهض ووجّه المسدس، وطاخ كانت الرصاصة في الهواء؛ فهو كان يضرب بطريقة عشوائية بسبب الظلام والخمر الذي كان يترنح منه، فهذا من حُسن حظ رضوان، ضربه رضوان بقدمه في أنفه ودفعه، ثم أخذ مسدسه وهوى على راسه فأصاب جبهته، وهرع إلى الخارج.

أخذ التلميذ الذي كان يقف مكان الخفير وجذب الأستاذ أنور وهرعوا إلى الصخرة، ركض الثلاثة وهم يتطلّعون للخلف لعل يجد أحدَهم، لم يجد.. وهذا في حد ذاته مصيبة، وصلوا إلى هناك وكانوا يلهثون، ارتمى رضوان على الرمل، بينما هرعت فريدة وهي تتطلّع هنا وهناك لعلها تجده،

أشارت عزيزة إلى التلميذين الذين كانا يحملان بعض قطع الأساس؛ طاولة وكرسيين، أما صادق ليس له أثر!

بينما صادق لم يجد له مفرًّا سوى القفز من النافذة؛ فالمنزل كله منار، وبمجرد نزوله سوف يتعرفون عليه، قفز من النافذة وهرع إلى الصخرة، كانت الأموال تتساقط من جيبه وهو يركض؛ فقد كان في حالة رثّة وكأنه أول مرة يسرق، وصل إلى هناك، بينما أوقفته فريدة تعاتبه قائلة:

- لماذا فعلت ذلك؟

- لم أفعل شيئًا سوى ما طلبتِ مني.

قال رضوان وهو ما زال يلهث:

- بسببك كنت سأموت.

قالت فريدة بغضب:

- قلت لكم هدفنا هو زرع الخوف في نفوسهم، وليس الطمع في الكثير الذي لا يجني شيئًا، لا أريد أن يتكرر هذا المرة القادمة.

قالت عزيزة وهي تضع يدها على جبينها متعجبة منها:

- أهناك مرة قادمة؟

- نعم هناك مرة قادمة، ثم هذه كانت البداية، نعم البداية فقط؛ فهي درجة من سُلّم يتكون من آلاف الدرجات.

- أنتِ تغامرين، على كلٍّ حال أنا أخذت بعض المجوهرات، وهذه الملفات أيضًا وجدتها؛ فقلت تنفع في شيء، شكلها أعجبني كثيرًا.

وضعت فريدة كل شيء في يد رضوان، وأمرته أن يذهب إلى السوق فجرًا ويبيع كل شيء، ثم يوزع الأموال على أفراد العزبة، أمرَت الباقين بالرحيل، ولم يتبقَّ سوى هي وصادق، فأخذت الأوراق قائلة:

- هاتِها سوف أتفقدها، ولكن هذا الورق عتيق، كم أحب الورق العتيق الذي تُلقِيه في الشمس وتحوّله للون الأصفر؛ فهو يدل على ماضٍ أصيل، سوف أذهب حتى لا يحدث شيء، وكما قلتُ لكم كونوا حذرين؛ ففي الصباح سوف تكون نار علينا، وأتمنى أن ننجو منها.

***

عندما يتحرر الإنسان من قيود فُرِضَت عليه ستُبتَر قدمه من شدة الفرح، ويظن أن هناك أجنحة ستنبُتُ له وسيحلق في الهواء.

(١٤)

يعلمـون أن النـصر لـن يـدوم طويـلًا، بـل سـتكون رياحًـا شـديدة تقتلعهـم وتقتلـع هـذا النـصر معهـم، علـم لملـوم بالحـادث؛ فسرعـان مـا ذهـب إلى منـزل مـرزوق الـذي أخـبره بأنـه رأى وجـه رضـوان أثنـاء الشـجار الـذي حـدث بينهـما، فتوجـه لملـوم بزوبعتـه إلى الصخـرة؛ فهـو يعلـم أن رضـوان يبيـت بجانبهـا منـذ خمـس سـنوات، ولكـن لم يجـد سـوى صـادق الـذي كان غارقًـا في النـوم، فتـح صـادق عينَيـه فوجـد لملـوم واقفًـا فـوق راسـه، أمسـكه لملـوم مـن عنقـه قائـلًا:

- أين الكلب ابن الجوعان؟

قال صادق متفرسًا في وجهه:

- لا أعلم أين؟

- لمـاذا تريـدون الأذى لأنفسـكم دائـمًا؟ أتحبونـه لهـذه الدرجـة يـا ولاد الــك... أسـتغفر الله.. أسـتغفر الله، دائـمًا تثـيرون غضبـي، لمـاذا سرقتـم منـزل مـرزوق؟

- نحـن لم نـسرق أحـدًا؛ لأن كل مـا أنتـم فيـه ملـك لنـا وليـس لكـم، ونحـن أخذنـا مـن أموالنـا القليـل، هـل أذنبنـا في ذلـك؟

دفع لملوم صادق للخلف ودخل في ضحك هستيريّ قائلًا:

- أموالكم! نعم هي بالفعل ملك لكم وليس لنا.

ثـم توقـف عـن الضحـك، وعـاد يُمسـك صـادق مـن عنقـه، وأعطـى لـه لكمـة في أنفـه قائـلًا:

- أتذكر هذه اللكمة الذي أخذتها منك؟ ها أنا رددتها لك، تستحقها حتى تتأدّب قليلًا، أنا والله أحبكم كثيرًا وأحب أن أؤدبكم، وأحب لكم الخير، بنيت الحاجز بيننا وبينكم كي يمنعنا، ولكن أقدامكم القذرة تتخطّى الحاجز، ماذا أفعل أنا قُل لي؟ أقول لك أنا.. سوف تأتي معنا حتى تعود أختك بما أخذتموه.

أعطى صادق لكمة أخرى في أنفه، وضربه حمودة ضربًا شديدًا جعله يسقط لا حول له ولا قوة.

علمت فريدة بالأمر؛ فذهبت إلى فصل المعرفة، وجدت الجميع يتحدث، فتركت الجميع وذهبت إلى الصخرة حتى تلتقي برضوان، انتظرَت ما يقارب النصف ساعة، وكان رضوان قادمًا يتمخطر؛ فعلم بالأمر أيضًا منها، طلبت فريدة تأجيل الأموال التي ستوزَّع على أهل العزبة حتى يعود صادق، فقالت فريدة وهي ترتجف خوفًا من أن يفعل شيئًا بصادق:

- ماذا يريدون؟ أظن الأموال، ولكن سأذهب بدون الأموال وأعلم ماذا يريد بالضبط.

قال رضوان ممتنعًا:

- ولكن لا يجب ان تذهبي بمفردك.

قالت عزيزة متوسلة:

- لا، بل يجب أن تذهب بمفردها، تعلم أن الملوم لم يكن يقصد صادق من الأساس، بل كان يبحث عنكَ أنت، نعم كان يبحث عنكَ وليس عنه، ولكن من سوء حظه وقع هو في يده.

- عندها حق يا رضوان، لا يجب أن تذهب معي، ماذا يحدث إذا

ذهبتُ بمفردي؟ لا شيء.

تركتهم فريدة وهرولت إلى منزل لملوم، فوجدت حمودة يجلس متّكئًا علي الشجرة، نظرت له فريدة باحتقار ثم قالت:

- أين لملوم؟

نظر لها، ثم نظر إلى حبات الرمان التي في يدها، فقال:

- لملوم مرة واحدة! قولِي سيدي؛ لأن الرؤوس لن تتساوَى مهما فعلتم.

- ها أنت قلتها.. الرؤوس لن تتساوي مهما فعلتم أنتم وليس نحن، فنحن خيرٌ منكم، ثم ليس لدي وقت كي أتحدث في كلام فارغ، أخبره أنني هنا، هذا من المستحسن لك.

دخل وغاب بعض الوقت، ثم عاد يقول:

- هل لديكِ شيء مهم سوف تقولينه أم ستضيعين وقته وتوجعين رأسه؟

أزاحته فريدة براحة يدها وقالت:

- سوف أسبّب له الصداع، هل لديك مانع؟

قالت ذلك وقفزت للداخل وهي تتطلّع خلفها وفي أرجاء المنزل وكأن حسن سيخرج لها من مكان ما وتراه ولو لدقيقة واحدة تسأله لماذا كل هذا الوقت؟ كانت شاردة لدرجة أنها لم تنتبه أن هناك كرسيًّا أمامها؛ فتعثرت فيه، فوجدت صوتًا رخيمًا يقول:

- أنتم لستم معتادين على ذلك، أعلم.

التفتَت نحو الصوت سريعًا، وجدته لملوم يجلس ويدخن سيجارة في يده؛ فتوجهت إليه قائلة:

- أين صادق؟

نهض وهو يقول:

- اجلسي استريحي أولًا.

- قُلت أين هو؟ ولماذا أخذته؟

قال لملوم وهو يصر على أسنانه قائلًا:

- أنتِ تعلمين لماذا أخذته؟

- من أجل المال والذهب، كل شيء هو لنا؛ فلماذا تحزنون عندما نأخذ القليل؟

- لا، ليست هذه الأشياء التي تتحدثين عنها لا تهمني كثيرًا، إذا أردت ذهبًا الآن أقسم أملاكِ منه، لكن أنا أتحدث عن شيء آخر أُخِذ؛ وهي الأوراق.

قالت فريدة هامسة:

- الأوراق؟!

اقترب منها وهمس في أذنها بنفس النبرة قائلًا:

- نعم الأوراق، أخذها أخوكِ؛ فأنا أريدها فورًا، لا.. بل الآن.

فكرَت قليلًا، ثم قالت:

- ولكن هذه الأوراق حرقتها كي أتخلص منها؛ فهي لم تكن مهمة بالنسبة لنا، قد أصبحت رمادًا يا سيد.

تحول لملوم سرعان ما ذكرت له حريق الأوراق، ضرب الحائط بيده لعل يكون كسر إصبع من يده، وصرخ في وجهها، ثم أمسكها من عنقها قائلًا:

- أيتها القذرة، لماذا حرقتِ الأوراق لماذا؟ إذا حرقتيها اذهبي واقرئي على روح أخيكِ الفاتحة، بالإضافة لذلك انتظري دائمًا الليل وسواده؛ لأنك لن تري الصبح مرة أخرى.

دفعته فريدة للخلف، وتحسَّست عنقها قائلة:

- لن تستطيع فعل شيء؛ لأن الأوراق معي.

- كنت أعلم ذلك، إذًا أنت معك الأوراق وأنا معي صادق، أحضِري الأوراق ثم سيكون صادق معك.

هرعت فريدة إلى المنزل لتعلم ما خلف هذه الأوراق بالضبط، وما الذي يوجد بها؟ إنها مهمة لدرجة جعلته كاد أن يُجن ويقتلها، ستعلم حتمًا عندما تصل إلى المنزل، هرعت إلى غرفتها وجلبت الورق من فوق صندوق خشبيّ يلتصق بالحائط، تفقّدَت الأوراق بقلق فلم تستطع روية شيء؛ المصباح خافت، فهرعت إلى النافذة لعلها ترى بوضوح، فبدأت الكلمات تظهر واضحة، وجدت رقم عشرة، هذا يعني كان يوجد أرقام قبل عشرة، ولكنها ليست موجودة..

(١٠. اقتلوا الكرامة إذا وقفَت في وجوهكم)، (١١. الحرية ليست حرية، بل عبودية تقيّدكم؛ فاصنعوا لأنفسكم حرية جديدة تحظُوا بها أنتم وليس غيركم)، (١٢. ابنوا وشيّدُوا حتى تكون مبانيكم شاهقة تجعل أعناقهم معلّقة بها دائمًا حتى يسقطون فتُكسَر)، (١٣. قولوا لا أصل لكم؛ فهذه الكلمة موسيقى حزينة تكسر وتذلّ نفوسهم)، (١٤. عندما يقف في وجهِكَ أحد ويمنعك من التعمير فاقتله ولا تأخذك به رحمة؛ فهو يمنع جبلًا عاليًا من الشموخ)، (١٥. تكاثروا حتى تفيق أعدادكم أعداد النمل في الجحور؛ فهذه قوة)، (١٦. الوهم هو الداء الوحيد الذي ليس له دواء؛ فأوهمُوهم واجعلوهم يحيُون فيه)، (١٧. كونوا الظالمين أعظم من أن تكونوا المظلومين الذين يجلسون ينتظرون عدالة أرض لا أصل لها)، (١٨. اجعلوهم في صندوق الظلام والجهل

حتـى يختنقـوا ويموتـوا؛ فالجهـل سـلاح سيُسـتَخدم غـدًا مـن قِبَـل كل طامـح في التوسـع والتوغـل في هـذه الأرض)، (١٩. ازرعـوا الشـك في نفوسـهم حتـى يتفرقـوا ويشـتتوا في الأرض).

انتهـت مـن القـراءة وحملقـت، فعـادت تنظـر مـرة أخـرى فوجـدت أسـفل كل مقطـع يكتـب بخـط عريـض (الحكيـم الـذي قتلتـه حكمتـه)، علمَـت أنهـا وصايـا يسـيرون عليهـا حتـى يقضُـوا عليهـم؛ فخرجـت وهـي حاملـة الأوراق بـين يديهـا بقـوة خوفًـا مـن أن يُسـلب منهـا؛ فهرعـت إلى الصخـرة، وجـدت رضـوان وعزيـزة والأسـتاذ أنـور؛ فقـال رضـوان وهـو يسـير تجاههـا:

- ماذا فعلتِ؟

ردت بصوت محشرج قائلة:

- الأوراق!

قال رضوان وهو يحاول جذبها من يدها:

- ماذا بها؟

جذبت الأوراق من يده سريعًا، ثم قالت:

- بهـا الوصايـا التـي يسـيرون عليـه في تدميرنـا وقتلنـا، يريـدون لنـا الإبـادة والمـوت والنهايـة التـي سـتكون حتـمًا تنتظرنـا.

قال أستاذ أنور بتعجل:

- وما هي هذه الوصايا؟

قالت فريدة بغضب يملأ نفسها:

- اجعلوهـم في خنـدق الجهـل والظـلام حتـى يختنقـوا ويموتـوا؛ فالجهل سـلاح سيُسـتخدَم من قِبَل كل طامـح في التوغل والتوسـع في الأرض، كانت

هـذه وصيـة مـن الوصايا التـي تسـتخدم معنا، هم يسـيرون بدقـة وكأنه خطة رُسِـمَت لهـم بالورقـة والقلـم، فـكان قدومهـم إلى هنا مدبّـرًا منـذ زمن؛ لأن أسـفل كل وصيـة رأيـتُ يكتـب (الحكيـم الـذي قتلتـه حكمتـه)، أو (الـذي أنهـى نفسـه بحكمتـه) لا تفـرق كثـيرًا، وهـذا مـا كتبه على مـا أظن؟

- لا أظـن أن هـذا مفيـد الآن؛ فهـم فعلـوا فعلتهـم مـن خمـس سـنوات وحفظـوا هـذه الوصايـا عـن ظهـر قلـب، وهـا نحـن نراهـا أمامنـا واضحـة كالشـمس.

- ألم تشـعر أنـك في خنـدق وتختنـق؟ انظُـر.. إنهـم جعلونـا في مـكان واحـد مكدّسِـين فـوق بعضنـا وعزلونـا بجـدار، ويـا ليتهـم يتركونـا في حالنـا، هـم يريـدون المـوت لنـا والاختنـاق، ولكـن نحـن سنُفسِـد مـن اليـوم كل خطـة يقومـون بهـا.

- وهذه الأوراق؟

- هو طلبها من أجل أن يخرج أخي وإلا سيقتله.

- إذًا ماذا تنتظرين الآن؟ اذهبي وأعطي له الأوراق.

- هـذه الأوراق اللعينـة رُسِـمَت لهـم بدقـة، لم أسـتطع أن أرى الوصايـا الأخـرى.

- سـيُقتل صـادق إذا لم تذهبـي، هيـا اذهبـي وأعطيهـم الأوراق ونحـن سـنرى مـاذا سـنفعل؟

ذهبـت فريـدة إلى منـزل لملـوم مـرة أخـرى؛ فهـذه المـرة لم تجـده بمفـرده، بـل وجدتـه هـو ومـرزوق جالسَـين في الحديقـة منتظرَيـن قدومهـا، فلمـح مـرزوق فريـدة والأوراق التـي كانـت في يدهـا، فهـرول وجذبهـا قائـلًا:

- لصوص كلاب.

قال لملوم ساخرًا:

- قـرأتِ الأوراق، أعلـم أنـكِ فضوليـة مثـل القطـط تمامًـا، ولكـن هـذا ليـس مهـمًّا الآن.

اقترب من أذنها، وهمس قائلًا:

- أنـت عرفـتِ الكثير؛ فابحثـي عـن مـكان مـن الآن تختبئـين فيـه مثـل القطـط؛ لأنني لـن أرحمـك.

قال مرزوق وهو يقلب الأوراق:

- أنـا لـن أنسـى هـذه الضربـة التـي تؤلمنـي، وزوجتـي التـي اعتـدى عليـه الكلـب صـادق.

- أنتـم تسـتحقون أكثـر مـن ذلـك، أيـن صـادق؟ ألم آتي بهـذه الأوراق؛ فأيـن هـو؟

أخـرج حمـودة صـادق وألقـاه أسـفل قدمهـا، فـكان أنفـه يشـبه البرتقالة، وتحـوّل وجهـه وكأنـه أرض متعرجـة؛ فزعَـت فريـدة عندمـا رأتـه في هـذه الحالـة، وهرعـت تسـنده كـي ينهـض؛ فلـم يسـتطع الحركـة، كانـت ركبتـه مصابـة بضربـة قويـة.

***

عندمـا تريـد اليـد أن تسـتبِّد عـلى الضعيـف فـلا تتوقـف مهـما حـدث؛ فالنفـس حيـوان تـترك للجسـد اللجـام وهـو يبطـش ويفـرّ ويـضرب دون أن يتوقـف، حتـى ولـو كان أمـام قلـب ونفـس أراده يـوم؛ فالنفـس تعمَـى عندمـا تريـد والجسـد يسـلّم أمـره بضعْـفٍ لـروح هزيلـة.

(١٥)

قبل أن تصل فريدة إلى الصخرة وجدت أباها يأتي ركضًا؛ فأمسك بذراع صادق وقال:

- سنذهب إلى المنزل، هذا أفضل له.

تعجب الاثنان من حديثه وساروا إلى المنزل؛ فوجدت فريدة المنزل منقلبًا رأسًا على عقب بسبب عدم وجودها، أجلست صادق وجلست بجانبه تضمد جروحه، فقال إدريس وهو يقف متطلّعًا مثل الطفل الفضولي:

- كم سرقتَ من منزل مرزوق يا صادق؟ عدت إلى أيام زمان.

نظرت له فريدة، ثم قالت:

- نحن لم نسرق شيئًا.

قال إدريس وهو يصر على أسنانه:

- كاذبة، سرقتم الكثير ثم أنا أبوكِ، أتبخلين عليه بالقليل؟ وأنتِ.. أنتِ يا فريدة التي تسرق وتحرّض على السرقة؟! سبحان مغير الأحوال ومبدل الأفعال.

- قلت لم نسرق شيئًا، فعلنا ذلك من أجل هدف ما.

- آه قُلتِ لم تسرقي.

توجه إلى فريدة وكاد أن يمسكها ويجذبها من ذراعها، لولا صادق الذي وقف في وجهه وأوقفه، ثم قال:

- لا تفعل شيئًا سوف أخرج، أعلم أنكَ جعلتني أعود حتى تعلم كم سرقت وكم سأعطيك! ولكن أنا لم أمتلك شيئًا سوى خمسة

جنيهـات في جيبـي.

قالت فريدة بغضب:

- لن نرحل، هذا منزلنا نحن.

نظر إدريس إلى فريدة، ومد يده إلى صادق قائلًا:

- أعطِني الخمسة جنيهات وامكث هنا خمسة أيام.

أخـرج صادق الخمسـة جنيهـات من جيبـه وأعطاهـا له؛ فأخذهـا وخرج وهـو يرقـص مـن الفـرح، بينـما جلسَـت فريدة تبكـي على حـال هـذا الرجل الـذي لـن يتغـيّر مهـما حـدث، فربت صـادق عـلى يدها ثـم قال:

- كل شيء سيعود كما كان.

قالت فريدة بصوت مخنوق:

- أبوك جشِعٌ يحب المال أكثر منا.

- ومَـن اليـوم لا يحـب المـال يـا فريـدة؟ ثـم لا تفكـري بالأمـر كثـيرًا، في النهايـة خمـس جنيهـات لا تسـتحق، ولكـن مـا يزعجنـي حقًـا هـو فشـلُنا في هـذه الخطـة، سـمعتُ أنـكِ عُـدتِ بـالأورق لـه، أظـن أنهـا كانـت مهمـة، كنـت أعلـم أنهـا تحتـوي عـلى شيء مهـم.

- المـرة القادمـة لـن نفشـل، أقسـم لـكَ سـيكون المـوت عـلى أيدينـا، والحـرب بـدأَت وسـنرى مَـن ذا الـذي سـينتصر ومـن ذا الـذي سـينهزم؟ في النهايـة يـا أخـي حـرب ولا بُـدّ مـن النـصر والهزيمـة.

- لكـن أنـتِ تفتحـين أبـواب جهنـم علينـا، ألم تـرَي كيـف أخـذني للـوم دون أن يرحمنـي؟

- نعـم أفتـح أبـواب جهنـم، لكـن ليـس علينـا، بـل عليهـم؛ لأننـا سـنقتلهم بهـا، أريـد أن تعلـم أننـا لـن نفعـل ذلـك مـن أجلنـا نحـن، بـل

من أجل كل طفلٍ عارٍ لم يجد حتى الثوب، ومن أجل الذين يربطون بطونهم من الجوع.

تركت فريدة صادق يستريح ودخلت لغرفته تنظر إلى السماء المرصعة بالنجوم، تذكرت جيه؛ فلا بُدّ من أن تكتب رسالتها، نهضَت وأحضرَت قلمها، وجلسَت تكتب الرسالة بدموعها قائلة:

(لم أصدق نفسي أنني أكتبُ لكَ، وأنكَ سوف تمسك هذه الورقة وتقرأ ما كتبته لكَ، ليس هذا مهمًّا، ولكن اشتقتُ لكَ كثيرًا، لم ولن أستطيع أن أصف لكَ شَوقِي مهما فعلت، فمتَى ستعود؟ متى سوف تراك عيني بعدما حُرِمَت من رؤيتك سنوات كثيرًا؟ متى سوف تعود كي تقرأ لي بصوتِكَ الحسن؟ أتعلم أنني تعيّنتُ معلمة في فصل المعرفة منذ سنتين؟ أصبحت أقرأ وأكتب، نعم.. وخزَّنتُ كتبًا كثيرة عندما تأتي سوف أقرأ أنا لك، كم تمنيت أن تكون بجانبي في الأيام التي مضَت! كم اشتقتُ لك كم! من يشتاق لرؤية أحد لم يرَه منذ خمسة سنوات فلن يستطيع أن يصف هذا الشوق مهما فعلت، أعلم ذلك جيدًا، لكن بعد رحيلك تبدّل الحال، كل شيء تبدّلَ هنا.. أصبحنا نسير في العزبة برقابة قاسية بعد الجدار الذي بناه جدُّك ليفصلنا عن العزبة؛ فأصبحنا نسلك الطريق الزراعي الشرقيّ الذي يوجد خارج العزبة كي نستطيع أن نصِل إلى مستعمرة أهل الكاشف، أقصد إلى هناك.

كل يوم أذهب إلى الصخرة بمفردي وأتأمل الشمس وهي تغيب نحو الأفق، كنت أرسل لك سلامي وقُبلَاتي، هل كانت تصل لك؟ أعلم أنها لم تصل؛ فكان وهمًا أحيا وأضع نفسي به، أقسم أنني لم

أصدّق جيه عندما أتى وقال لي إنه رآك، كيف أصبحتَ؟ هل تغيّرتَ كثيرًا أم مثل ما كنت؟ ترتدي نظارتَين ولك وجه بريء يبتسم ويجعل العابس مثلي يبتسم؛ فأنت كنت مصنع ابتسامتي التي اختفَت بعد رحيلك ورحيل جدتي رحمها الله.

كانت جدتي تحلم بزيارة مصر، ولكن كانت تخشَى زحام السيارات؛ فهي كانت تشاهد التلفاز وتقول إذا ذهبتُ يومًا إلى مصر فسوف أموت أسفل عجل هذه السيارات، كنت أضحك كثيرًا عندما تقول لي مصر، لماذا الناس هنا يقولون ذاهبِون إلى مصر أتينا من مصر؟ أليس الجميع في مصر يا حسن؟ أم مصر التي أنت فيها تختلف عن مصر التي نحن فيها؟ أم نحن تابعون لدولة أخرى؟ عجبت لهؤلاء الذين يجعلونك تمسك خريطة وتقلّب فيها كي تعثر علي مصر هذه، وفي النهاية تجد مصرَ واحدة، ليس مهمًّا؛ فنحن في مصر، لا أريد أن يتشتّت عقلي لكن أريد أن آتي إليك كي أراك وتراني، أتمنى أن أراك قريبًا، وأتمنى أن تبعث لي رسالة في أقرب وقت ممكن، وأتمنى منكَ أيضًا أن تعتني بصحتك جيدًا...

حبيبتك المنتَظِرَة)

هرعَت للخارج كي توصل الرسالة لجيه قبل أن يرحل، أوصلت الرسالة وهي توصيه أن يجلب الرسالة التي سيكتبها ويأتي بها إليها، هرعَت وهي تتمخطر، قريبًا سوف يُرسل لها رسالة بالتأكيد؛ فقد وجدَت اليوم بصيصًا من النور وتمثّلَ في جيه، سيكون همزة الوصل بينهما، قبل أن تدخل المنزل سمعت صوتَ أبيها يهين أحدًا في الداخل،

قفـزت داخـل المنـزل فوجـدت إدريـس يمسـك صـادق مـن عنقـه قائـلًا:

- من الذي قال لكَ عُد إلى منزلي؟ أجننت كي تعود إلى هنا مرة أخرى؟

علمـت فريـدة أن الخمـر يثقـل رأسـه؛ فهـو دائـمًا هكـذا، يخرج وسرعان مـا يعـود غائبًـا عـن العـالم ومـا فيـه، أقبلـت نحـوه قائلة:

- أنا جعلته يعود، اتركه وخذ خمسة جنيهات مرة ثانية.

جذب الخمس جنيهات من يدها، ثم قال بصوت يمتلئ بالنعاس:

- هـل أنـا أخـذتُ مـرة أولى كـي آخـذ مـرة ثانيـة؟ كيـف هـذا؟ أنـتِ تنسـين هـذه الأيـام كثـيرًا.

صمت ثم أضاف متعجلًا وهو يترنح:

- تحبـين، نعـم؛ فالحـب هـو مـا يجعـل العقـول تسـبح في بحـر النسـيان، فوقـي وإلا كـسرتُ رأسَـكِ وقلبَـكِ معًـا.

قـال هـذا وارتمـى عـلى الفـراش، بينـما صعـدت فريـدة لأعـلى لتطعـم الدجـاج؛ فتذكـرت أنهـا كانـت تصعـد هنا وهـي صغـيرة، وكانـت تتحدث معهـم كثـيرًا، ثـم يبـدأ الدجـاج يوقـوق بينـما تصيـح الديكـة؛ فتظـن أنهـم يتحدثـون لهـا، وكانـت تغنـي لهـم حتـى يـكادوا يرقصـون.

تذكـرت الشـهر الـذي امتنـع فيـه الدجـاج عـن البيـض، فكـم كانـت أمهـا حزينـة؛ فطلبـت منهـا أمهـا أن تجلـس وتقـرأ لهـم المعوذتـين؛ فهـم مصابـون بالحسـد مـن الجـيران الذيـن يرونهـم، ضحكـت ثـم قالـت:

- يا ليت تظل الأيام على حالها لا تتغير.

قال صادق الذي كان يقف مستندًا على عصا:

- أبوك قال إنّكِ تحبين.

- سامح الله أباك، هو يتحدث بدون أن يفهم.

ضاقت عين صادق، ثم قال:

- أعلـم يـا فريـدة أنـكِ تنتظريـن حسـن بـدر لملـوم، أرجـو ألّا تتهربـين مـن حديثـي؛ أنـا أخ لـكِ وكان يجـب أن أعلـم.

- وها أنت علمت يا أخي.

- منذ متى؟

- منذ سنوات طويلة.

- أليس غريبًا أن تحبي من أعدائنا؟

- ومـا ذنـب قلـبٍ لا يفـرق بـين عـدوٍّ وحبيـب، القلـب ليـس عليـه سـلطة نفرضهـا كلـما أردنـا.

- هل هو ينتظركِ أيضًا؟

- نعم ينتظر.

- أخشى أن تكوني منتظرة عملةً توقّف استخدامها منذ زمن.

- سـيأتي قريبًـا، ولـن يكـون عملـةً توقـف اسـتخدامها منـذ زمـن، ثـم حسـن مثلنـا مـن المهانـين والمذللـين الذيـن تفـرض عليهـم رقابـة قاسـية وشـديدة؛ فهـو يحتقـر جـده ويحتقـر مـا يفعلـه، ولكـن لم يسـتطع كرهـه؛ فهـو مـن أعطـاه في وقـت فقـد والديـه، فهـو بالمعنـي الصحيـح لا يريـد أن يعـض اليـد التـي امتـدت لـه.

- الأيام الآتية سوف تثبت حديثكِ هذا.

- أخشـى الآتي وكأنـه جاثـوم يتسـلل إلى نفسـي ويجعلنـي غـير قـادرة عـلى النهـوض، أخشـاه كثـيرًا وكأنـه ملـك المـوت الـذي سـيقبض روحـي.

سـمعت فريـدة البـاب يطـرق بشـدة؛ فهرعـت إلى الأسـفل، بينـما اسـتند صـادق عـلى الحائـط كي يجلـس على فراشـه الذي اشـتاق لـه كثـيرًا، حقًا يؤلم

ظهره، ولكنه خيرٌ من الرمال التي تملأ أذنك وتكاد تدخل إلى فمك وأنت بجانب الصخرة، جلس وهو يتحسس الفراش بيده، بينما صعد رضوان وهو يضرب كفًّا بكف ويضحك ضحكًا هستيريًّا قائلًا:

- تستحق.

بينما وقفت فريدة وهي تشبك يدها وتضمها إلى صدرها قائلة:

- خيرًا؟ أرى ابتسامة لا توصف.

قال رضوان وهو يربت على كتف صادق:

- انتظري حتى نطمئن على هذا البطل.

قال صادق وهو يتنهد:

- كنت سأموت أسفل أقدامهم.

تفرّس رضوان في وجهه قائلًا:

- يا ربي! هذا كثير، المرة القادمة اجعل الملوم يغير الموضع رجاء وإلا أنفك سيضيع.

علت الضحكات، بينما قالت عزيزة وهي تضبط خمارها الذي تراجع للخلف قليلًا:

- لديه خبر سوف يسعد الجميع.

تحمست لسماع الخبر:

- هيا قولي.

قالت وهي تداري خجلها:

- سوف تكون حفلة زفافي أنا ورضوان بعد الغد.

غمرت الابتسامة وجه فريدة قائلة:

- هنيئًا لكما، سيكون زواجًا مُباركًا.

أضافت فريدة وكأنها تذكرت شيئًا قائلة:

- قُلتِ إن الحفل سيكون بعد غد، هذا جيد، سيكون الأمر تدبر على كل حال.

تقلب وجه رضوان لعدة ألوان؛ فقال:

- ماذا وسوس لك الشيطان اليوم؟ أي أمر تتحدثين عنه أنت؟

- ستعلم بماذا وسوس لي الشيطان، ولكن عصرًا عندما نحضر جميعًا إلى الصخرة، ولكن قل لي أين ستقيم أنت؟ في منزل أم منزل عزيزة؟

- في منزلي، أقصد في منزلنا.. نعم منزلنا، من اليوم ليس ملكًا لأحد، بل للجميع؛ فأنا لن أستطيع ترك ليلى بمفردها وأنتِ تعلمين حالتها جيدًا؛ فرضوان من اليوم سيكون عونًا لنا، أريد منكم أن تدعوا باقي الأصدقاء بالنيابة عنه.

قالت فريدة وهي تشير إلى رضوان قبل ذهابه:

- رضوان، لا تنسَ أن تخبر الجميع أننا سنلتقي اليوم عصرًا بجانب الصخرة.

قال رضوان بنبرة رافضة:

- على ماذا تنوين أنتِ؟ لم يمر يومان على ما حدث وتريدين القيام بشيء آخر! اتركي الأمور تهدأ أولًا.

- نحن سنقوم كل يوم بأشياء تجعل عقولهم تذهب، ثم كن متحمّسًا للأمر ولا تجعل الزواج ينسيك شيئًا.

هبط رضوان درجتين، ثم التفت إليها قائلًا:

- فريدة، ما تفعلينه يطلق عليه لعبة القط والفار، وهي لعبة سخيفة لن تنتهي إلا بموت أحدهما.

***

على قدر ما يتلهف الإنسان إلى القادم على قدر ما يخشى ويجلس مترقبًا للقادم الذي يكون بمثابة شبح يحلّق فوق رأسه.

(١٦)

اجتمع رضوان بالتلاميذ عند الصخرة وأخبرهم بزواجه؛ فعلت الأصوات التي تبارك والتهليلات، فأتت فريدة وكانت مُنى تتشبث بيدها، قد كبرَت وأصبحت تشبه فريدة في قوامها، ألقَت فريدة تحيتها وطلبت من الجميع الجلوس، نظر لها الأستاذ أنور نظرة المتوسل الذي يطلب ألّا يكون هناك شيء ما؛ فقال:

- قولي ما عندك، ولكن لن نفعل ما فعلناه مرة أخرى.

- انتظر يا سيد أنور، لماذا تتعجل دائمًا؟

- لستُ متعجّلًا، بل أخشى أفكاركِ المسمومة.

قال رضوان مسرعًا:

- هذا النقاش لن ينتهي إلا إذا دخلتِ في الموضوع مباشرة؛ فليس هو الوحيد المتعجل هنا، الجميع تقريبًا.

تنهدت فريدة ثم قالت:

- المرة السابقة نحن قمنا بسرقة منزل مرزوق، وهذه المرة سوف نحرق منزلًا.

- ماذا تقصدين من هذا؟

- أقصد أننا سنحرق منزلًا من منازل أهل الكاشف.

- وما الفائدة في حرق منزل ليس ملكًا لهذا أو لذاك؟

- لا أحب يا سيد أنور أن أكرر الكلام كثيرًا، قلت الهدف من خلف كل ذلك هو تخويفهم، وأظن أن هذا هو المبدأ الذي نسير

عليه؛ فلماذا تنسى؟

- لم أقصد ذلك، بل الطريقة العشوائية التي تختارين بها، الجميع ظن أن الدور القادم سيكون على الملوم نفسه وليس على منزل من الأهالي.

- لا تسأل عن الطريقة، المهم أننا سنفعل.

- ومتى سيكون هذا؟

- بعد الغد.

فتح رضوان فمه، ثم قال:

- ماذا؟ بعد الغد سيكون حفل زفافنا، أنسيتِ ذلك؟

- لم أنسَ، بل حفل الزواج هو الوقت المناسب لنفعل فعلتنا حتى لا يشكّ أحد منهم أننا نحن من فعلها، وإذا أتوا إلينا مثل المرة السابقة سوف يجدون حفل زفاف ونحن سنقول أننا لم نخرج من بيت عزيزة منذ الصباح، وحفل الزفاف سينتهي في الحادية عشر حتى ننتهي من مهمتنا.

- ومن الذي سيفعلها؟

- رضوان.

ضرب رضوان يده بجبهته، ثم قال:

- أنا؟! كيف؟!

- نعم أنت، ومَن غيرك سيقوم بذلك؟

- ولكن...

- لا تقلقي يا عزيزة، كل شيء سيكون بخير، ثم نحن نسير ضمن خطة محكمة، رضوان سوف يخرج في العاشرة يفعل فعلته ويعود،

وسيذهب بمفرده، ولن يخطر على ذهنهم أن هناك عاقلًا يخرج ويترك حفل زفافه ليحرق منزلًا، ونحن سوف ننتظر رضوان حتى يعود ونتصرّف على أساس أن رضوان داخل المنزل معنا، وعندما يعود نظل ربع ساعة ثم نرحل، حتى لا يتسلّل إلى أذهانهم أننا فعلنا ذلك.

صمتت فريدة برهة، ثم عادت تقول:

- سامحني يا رضوان، إذا كان صادق بصحة جيدة لكنتُ جعلته يفعلها، ولكن في الحقيقة يسير على عصا.

- سأفعلها لا تقلقي، ولكن مروري من جانب الصخرة وأسلك طريقًا آخر كي يوصلني بمستعمرة أهل الكاشف سوف يستغرق وقتًا طويلًا جدًا.

- لا، أنت لن تسلك طرقًا أخرى، بل سوف تتسلق الجدار، وسوف يساعدك في ذلك اثنان من التلاميذ، ثم هذا الجدار أصبحت الصبية تتسلق عليه بسهولة، لا تقلق من هذا الشيء.

دخل الجميع في صمت، كل منهم غارق في التفكير، فماذا سيحدث بعدما يعلم لملوم بذلك؟ بل سوف يحرقهم جميعًا؛ فهو لا يرحم أحدًا قط، فهذه النيران التي سوف يشعلها رضوان سوف تسقط فوق رؤوسهم دون رحمة، كسرَ هذا الصمت أستاذ أنور الذي كان يشتعل من فريدة وأفعالها؛ فهي حتما ستوقع الجميع به، فقال:

- وهل هذا لن يجعلهم يشكون بالأمر؟ إنها طريقة متخلفة ستفضح أمرنا.

- سنفعلها أولًا ثم تحكم في الأمر يا سيد أنور.

عادت فريدة تقول وكأنها تذكرت شيئًا ما:

- نحـن سـنفعلها غـدًا، نعـم.. الزفـاف سـيكون غـدًا يـا رضـوان وليـس بعـد الغـد.

شهقت عزيزة قائلة:

- لكن نحن لم نعدّ شيئًا بعد، ثم لماذا غدًا؟

- كل هـذه رسـميات ليـس لهـا داعٍ، مَـن ذا الـذي سـيحضر سـوى نحـن؛ فالمنـزل الـذي سـتحرقه هـو منـزل وزيـر رشـدي، اخـترت هـذا بالأخـص لأنـه ليـس موجـودًا فيـه، نعـم هـو غائـب منـذ ثلاثـة أيـام بأسرتـه، وسـيعود بعـد الغـد، هـذا مـا علمتـه، وسـيكون بعـد الغـد داخـل منزلـه هـو وأسرتـه، ونحـن لا نريـد أن نجنـي عـلى أحـد.

قالـت ذلـك ورحلـت، بينـما كانـت عزيـزة تشـتعل مـن الغيـظ؛ فهـي لم تُعـدّ شـيئًا إلى الآن، وفريـدة قلبَـت كل شيء رأسًـا عـلى عقـب؛ فكيـف سـتُعدّ المنـزل الـذي في حالـة مزريـة، نهـض الأسـتاذ أنـور وهـو يقـول:

- زواجـك خـبر مفـرح، ولكـن حولتـه فريـدة لخـبر تكرهـه النفـس أقسـم لـك.

ربت رضوان على كتفه قائلًا:

- لا تقلق، كل شيء سيكون بخير.

- أيـن الخـير يـا رضـوان؟ فريـدة تتـمادَى في الخطـأ ولا تحسـب حسـابًا لحيـاة شـخص فينـا.

- ليـس خطـأ، بـل هـدفٌ تريـد أن تحققـه وتنتـصر، وليـس هدفهـا هـي فقـط، بـل هـدف الجميـع.

- أنـت الوحيـد الـذي تصفـق لهـا يـا رضـوان، وأنـت الوحيـد أيضًـا مِـن سـيبكي في النهايـة، لا بُـدّ مـن أن تتوقـف فريـدة عـن فعـل هـذه الأشـياء

ونـأتي بحقنـا، ولكـن بطريقـة غـير هـذه.

- وهـل لديـك طريقـة أخـرى يـا سـيد أنـور؟ لا.. بـل ليـس لديـك أي شيء، ثـم هـؤلاء لا تنفـع معهـم طريقـة اللـين والأدب، بـل طريقـة القسـوة والجلـد الـذي يسـتخدموها معنـا، ثـم سـبق لـكَ وتعاملـت معهـم بـما تتحـدث بـه، مـاذا فعلـوا لـك سـوى ضربـة جعلتـك كنـت سـتكون في خـبر كان؟ مـن اليـوم القسـوة بالقسـوة والعنـف بالعنـف، ثـم أنـت دائـما تقـول لنـا (وَكَتَبْنَـا عَلَيْهِـمْ فِيهَـا أَنَّ النَّفْـسَ بِالنَّفْـسِ وَالْعَـيْنَ بِالْعَـيْنِ وَالْأَنْـفَ بِالْأَنْـفِ وَالْأُذُنَ بِـالْأُذُنِ وَالسِّـنَّ بِالسِّـنِّ وَالْجُـرُوحَ قِصَـاصٌ فَمَـنْ تَصَـدَّقَ بِـهِ فَهُـوَ كَفَّـارَةٌ لَـهُ)...

قاطعه سيد أنور قائلًا:

- أعلم ما تقوله، لم أقل شيئًا، ولكن...

أشار له رضوان قائلًا:

- اتركني استكمل الآية ثم تحدث بما لديك، (فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ۚ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)، هل تريد أن تكون من الظالمين يا سيد أنور؟ ما نفعله نحن شيء قليل لا يساوي شيئًا بجانب ما يفعلونه؛ فنحن نحمي أيماننا ونحمي أنفسنا ونحمي أرضنا، ألم تقل ذات مرة إن هذه الأرض مثل رحم الأم التي تحمي جنينها؟ أين ذهب حديثك أين؟ ثم نحن لا نركض خلف أرض كي تعود ونسير في الشوارع مهلّلِين الأرض عادت الأرض عادت، لا.. بل ردّ دين، دين دام طويلًا لم يأخذه صاحبه؛ فلا بُدّ من رده.

سـار الأسـتاذ أنـور دون أن ينبـس بكلمـة، بينـما سـارت خلفـه عزيـزة التـي تجمّـدَت الدمـوع في عينيهـا مـن شـدة خوفهـا عـلى رضـوان الـذي

يتمسك بشيء فوق طاقته، ارتمى رضوان أرضًا ووضع ذراعه خلف رأسه، وبدأ ينظر إلى السماء الذي يرسم فيها حلمه.

كان الصباح ذا رائحة طيبة، نهضت فريدة وهي تبتسم؛ فحتمًا حسن سيمسك الرسالة في يده اليوم، وترتجف عندما تعلم ما ستفعله، بدّلَت ثيابها وأسرعت إلى منزل عزيزة؛ فكان المنزل في حالة مزرية، فالمنزل هو طابق واحد فقط، غرفتان يرتميان أمام بعضهما، وصالة واسعة تشتمل على بعض الحمام التي تحلّق حولك، كان بعض التلاميذ من البنين والبنات يجتمعون في المنزل، فقد كان يعجّ المنزل بهم، منهم من جلب هدية صغيرة ومنهم من لم يجلب شيئًا، أتى صادق الذي ما زال يستند على عصا، فغمرته الفرحة عندما رأى ليلى تنقش يدها بالحنة وتبتسم ابتسامة، ما أجملها! هذه الابتسامة تمدّ له حياة جديدة مليئة بالفرح، فقال هامسًا:

- يا ليت أكون فاقدًا للبصر مثلك حتى نكون في ظلام لا متناهي، ونسير كما يسير الضوء دون أن نتوقف ودون أن نشعر بالخوف.

جلس بجانبها وأخرج من جيبه خاتمًا ووضعه في إصبعها، فكان شبه خاتم وليس خاتمًا بالمعني الصحيح؛ فهو صنعه من سلك نحاس فكان غير مستوي ولم يتخذ الشكل الدائري، بل كاد يأخذ شكلًا هندسيًّا آخر يعلم به صاحبنا، بدأت فريدة تستقبل التلاميذ بينما عزيزة تطهو الطعام مع بعض أصدقائه، بحثت فريدة عن رضوان فلم تجده، دخلت إلى الغرفة التي توجد بجانب درجات السلم؛ فوجدته يقف هو والأستاذ أنور وهناك بعض التلاميذ، فلمحت القلق الذي يظهر جليًّا على وجوه الجميع؛ فقالت وهي قلقة:

- هل أنت مستعد يا رضوان؟

- نعم مستعد، ثم أنتِ تجعلينني أقلق أكثر مما أنا فيه، اليوم حفل زفافي وأنا لستُ محتاجًا للقلق، بل لفرحة الجميع.

دفع رضوان الجميع أمامه برفق وجلس في الخارج وسط الأصدقاء، فنهض أحدهم قائلًا:

- أين الطعام يا رضوان يا بخيل.

قال رضوان بصوت مرتفع:

- اليوم ستأكلون حتى تمتلئ بطونكم، ولكن لا تأكلوا كثيرًا حتى لا تحلمون بلملوم يأتي في كابوس يطبق على أنفاسكم، هيا يا عزيزة اجلبي الطعام.

قال أحدهما:

- ليس لك شأن بالكابوس؛ فهو يخشى زيارة عفاريت مثلنا.

علت الأصوات بالضحك، بينما نهضت فريدة تضع الطعام مع عزيزة التي علقَت الأبصار بها؛ فكانت ترتدي عباءة فضفاضة ذات لون بنيٍّ، وتضع خمارًا أبيض جعل وجهها يزداد جمالًا، وعيناها السوداء التي رُسِمَت بالكحل ما أروعه! التف الجميع وتناولوا الطعام وكأنهم لم يتذوقوا الطعام منذ زمن طويل، فرغوا من طعامهم وبدأت الأغاني؛ فليلى هي من أحيَت الحفلة بصوتها العذب وأغانيها الجميلة التي تداعب النفس والقلوب، استمرت الحفلة لوقت طويل بين الغناء والحديث وبين الشاي الذي لم ينقطع لحظة عنهم، أشارت فريدة لرضوان الذي انخرط في حديث مع أصدقائه؛ فنهض وحمل زجاجة تمتلئ بالبنزين، ونهض الاثنان الآخران خلفه، ركضَت عزيزة

خلفه؛ فأمسكتها فريدة من ذراعها وجعلتها تكف عن البكاء؛ فهي خائفة ألّا يعود مرة أخرى، فتحول الفرح لصمت جعل فريدة تشعر بالخوف، فحتما سيكسِرُ هذا الصمت أصوات النيران التي ستشتعل؛ فقالت فريدة:

- يجب أن يكون الوضع كما هو.

لم يستمع أحد لها وكأنهم وضعوا أصابعهم في آذانهم، فهي تعلم أن الخوف الآن يتسلّل إلى القلوب جميعًا، وقف اثنان من التلاميذ متشابكَي الأيدي، بينما تشبّثَ رضوان وصعد الجدار، كان الجدار مرتفعًا لحدٍّ جعل رضوان يخشى أن يسقط وتسقط الزجاجة منه؛ فحاول أن يتشبّث وينزل متمهلًا، نزل وسلك الشارع الخلفي، فهو مناسب عن الشارع العمومي الذي يمتلئ بالمارة، شعر رضوان بالخوف، فلم يكن يسمع صوتًا من حوله إلا صوت الضفادع وصوت قدمه التي تسير، من حسن حظه أن منزل وزير رشدي قريبٌ جدًا من الجدار، لم ينزل ويغُص في الشوارع، تسلّل لسور المنزل؛ فجميع أهالي الكاشف يبنُون سورًا حول منازلهم بدون داعٍ، أخرج الزجاجة من جيبه وصب البنزين حول المنزل، ثم أشعل الزجاجة وألقاها داخل المنزل، أُشعِلَت النيران في المنزل وأخذَت بعض منازل قريبة منه، لم يعلم أنها ستشعل في منازل أخرى ولكن كان هذا هو المتوقع، علَت أصوات الاستغاثة، لم يعلم ماذا يفعل؟ كل ما فعله هو تسلّل السور وخرج؛ فأثناء تسلله نالت النيران من قدمه، ركض ولم يبالِ للنيران التي سبّبَت له حرقًا بالغًا في قدمه، لم يستطع تسلل الجدار فكانت الشوارع ممتلئة لدرجة أنكَ إذا ألقيتَ شيئًا لن ينزل على الأرض، سلك

الطريق الخارجي، ركض التلميذان وعادا إلى منزل عزيزة عندما سمعا الأصوات ترتفع هنا وهناك، وصل الاثنان للمنزل وعلا النحيب، بينما ظلت فريدة تترقب الوضع في الخارج؛ فلم تجد أثرًا لقدوم رضوان، وأثناء خروجها كي تبحث عنه وجدته يأتي ركضًا بحركة بهلوانية، ركضت تجاهه وأسندته، بينما عالج له أستاذ أنور جروحه، سمعت فريدة أصوات الاستغاثة تأتي من بعيد؛ فأصوات رخيمة مليئة بالكره الذي جعل هذه النيران تشتعل، قالت فريدة وهي تشير إلى ليلى:

- أسمعيني صوتكِ الحسن يا ليلى.

فعادت الحفلة كما كانت وكأن شيئًا لم يكن.

***

نحـن داخـل دائـرة نسـير ونركـض، نضحـك ونبكـي، نـصرخ ونتوجع، ثـم نسـقط داخلهـا لا حـول لنـا ولا قـوة، وهكـذا الحيـاة.. دائـرة داخـل دائـرة، حتـى مـا بداخلهـا عبـارة عـن أشـخاص يصنعـون حيـاة دائريـة ليـس هنـاك مسـاس للخـروج.

(١٧)

علـم لملـوم في الصبـاح بـأن هنـاك منـزلًا مـن أهـالي الكاشـف احـتُرِق وأخـذ ثلاثـة منـازل معـه، وهنـاك خسـائر كثـيرة مـن ماشـية وأغنـام والكثـير مـن أسـاس المنـازل احـترق، توجّـه لملـوم لفصـل المعرفـة؛ فهـو يعلـم مَـن الـذي فعلهـا.. بالتأكيـد فريـدة ومـن معـه، فسرقـة مـرزوق لم تكـن عبثًـا، بـل كانـت مدبـرة منهـم، وهـذا الحريـق لـن يفوتهـم أيضًـا، وصـل إلى هنـاك ولكـن وجـده مُغلقًـا؛ فنعطـف يمينًـا وسـار إلى القهـوة، فوجـد إدريـس يجلـس ويمسـك بـين أصبعيـه سـيجارة؛ فسـار نحـوه وضرب الطاولـة التـي كانـت أمامـه بيـده، ممـا جعـل الشـاي يسـقط عـلى قـدم إدريـس وينهـض مفزوعًـا وهـو ينفـخ ويقفـز مثـل الطفـل مـن شـدة سـخونة الشـاي؛ فقـال وهـو يرتجـف:

- ما الذي حدث لكل هذا؟

لم يُجِـب لملـوم، بـل صفعـه صفعـة كادت أن تُسـقِط لـه صـف أسـنانه، ثـم أضـاف متعجـلًا:

- أعطِ هذا لابنتِك.

قال إدريس وهو يضع يده على وجهه:

- وما ذنبي في كل هذا؟

- ذنبُكَ أنها ابنتك.

- الله يلعنها؛ فهي تسبّب لي الخطر أينما ذهبت.

تـرك لملـوم إدريـس ورحـل، لم يقـف إدريـس طويـلًا وتوجّـه إلى المنـزل

وهو يتوعد لها؛ فاليوم ستكون نهايتها ويتخلّص من هذا العذاب، وصل إلى هناك وجد فاطمة تجلس أمام الفرن تُعدّ الخبز، وكانت مُنى تساعدها في ذلك، فقال إدريس وهو يسعل من كثرة الدخان الذي يملأ المنزل:

- كح. كح أين غراب البين؟

خرج صادق من الغرفة وهو يقول:

- ماذا تقصد يا أبي؟

- مُن أقصد يعني غير فريدة؟ فهي غراب بِين تُسبّب لي الضرب والمشاكل مع للوم.

خرجت فريدة وهي ترتدي خمارها قائلة:

- ماذا حدث؟

وقفت أمامه وهي تنتظر رد فعله، ولكن لم يتأخر كثيرًا، بل رفع يده وأسقطها بقوة على وجهها؛ مما جعله تسقط أرضًا تتلوّى وتفرق في عينيها؛ فوضعت يدها على وجهها الذي يشبه ورقة خطّطَت بمسطرة على خدها الأيمن، فهرع صادق وهو يربتُ على يدها قائلًا:

- قومي معي.

نهضَت ولم تستطع الرؤية بوضوح؛ فكانت الضربة قوية، وخاصة أنها كانت بأنملة من إحدى أصابعه، خرج الاثنان إلى الصخرة التي تكونُ الأب عندما يُفقَد والأم عندما تُترك، والمأوى عندما يكون لا مأوى لهم، دفنت فريدة وجهها بين يديها وغرقت في البكاء الحار، حاول صادق أن يطمئنها ولكنه لم يستطع؛ فوجدها تقول:

- ماذا فعلتُ له كي يفعل لي هذا؟

- أنت تعلمين بأنه سيظل هكذا ولن يتغير مهما حدث.

- هـذه هـي المشـكلة التـي تثقـل صـدري، أتيـتُ لهـذه الحيـاة وأنـا أطمـع في حـب والـدي، ولكـن خُلقـتُ هنـا في منبـع قسـوة يتحـوّل ويـزداد يومًـا بعـد يـوم ولـن يجـف هـذا المنبـع مهـما فعلـت، مـا ذنبـي أنـا كـي أولَـد وأرحـل بـدون حـب؟ مـا ذنبـي؟ أقسـم أن الألم في قلبـي يـزداد يومًـا بعـد يـوم لـن يُشـفَى مهـما فعلـت؛ لأن عندمـا يقتُلـكَ أحـد لا تنتظـر منـه هـذا؛ فسـوف تمـوت حزنًـا حتـى مـن قبـل أن يفعلـه معـك.

- اعلمـي أنـكِ سـوف تظلـين هكـذا؛ فالعيـون تعمَـى والأفـواه تصمت عندمـا نقـف أمـام والدينا.

- يظلموننـا بأفعالهـم يـا أخـي، ولا نسـتطيع أن ندفـع الظلـم حتـى عـن نفو سنا .

لمـح صـادق شـخصًا يـأتي مهـرولًا؛ فمسـحت فريـدة دموعـه وركضـت اتجاهـه، فعلمـت أنـه جيـه؛ فقالـت متلهفـة:

- هل أوصلت له الرسالة؟

هز جيه رأسه، وأخرج من جيبه رسالة أخرى قائلًا:

- هـذه الرسـالة منـه هـو أرسـلها لـكِ، وأنـا سـوف أذهـب غـدًا إذا كنـتِ تريديـن أن ترسـلي أخـرى فأنـا في الخدمـة.

رحـل جيـه، بينـما هـي كادت أن ترقـص مـن الفـرح، ركضـت تجـاه صـادق الـذي وقـف متسـائلًا؛ فمـدت يدهـا وطلبَـت أن يقـرأ لهـا الرسـالة؛ فهـي لا تسـتطيع الرؤيـة الآن، أخـرج صـادق الرسـالة وقـرأ..

(وأنـا ازداد شـوقي لـكِ يـا حبيبتـي، تعلمـين أنني لم أصـدّق عينـي عندما قـرأت الرسـالة التـي أرسـلتها لي، ولم أصدق أيضًـا أنني أتواصـل معك، هذا

مـن حسـن حظي، نعـم فكم أتمنـى أن أرى وجهك كـما كنـت أراه، وأتمنى أن تنتهـي الأيـام سريعًـا حتى أصـل إليـكِ، الأيـام لا بل السـنوات التـي مضَت كنـت أشـتكي كثـيرًا الوحـدة، حتـى كنت سـأعود، ولكـن جـدي أصَرّ على أن أبقـى؛ فأنـتِ تعلمـين يـا حبيبتـي أنّ ليس بيـدي شيء سـوى أن أطيع دون قـول شيء، ولكـن أنـا سـوف أعـود قريبًا، نعم سـوف أعـود حتى أقـرأ لكِ، وأنـتِ أيضًـا سـتقرئين لي بما أنـكِ أصبحتِ معلمـة في فصل المعرفة، سـعدتُ كثـيرًا عندمـا سـمعتُ هـذا الخبر، فكـم كنـتُ أتمنـى أن أراكِ هكـذا ـ تعلمين أننـي تعلمـتُ أيضًـا الكثـير؟ تعلمتُ أشـياء عديدة، حتـى الحياة هنـا تعلّمُكِ الكثـير؛ فهـي غـير عزبة الصخـرة، بل مكان آخـر منفرد بشـخصيات وأماكن وأشـياء عديـدة لا أسـتطيع أن أذكرهـا كلها، أحلـم باليوم الـذي تكونين هنا في مـصر معـي، بمناسـبة مـصر فأنـا قـرأتُ مـا قُلـتِ عـن النـاس، حقًّـا هـم يخلطـون الأمـور، ولكـن في النهايـة جميعنـا في مـصر، لا أعلـم عندمـا آتِي إلى عزبـة الصخـرة كيف سـأحيا فيهـا؛ فهي مثـل السـجن أو المقبرة التـي تعزلك عـن عـالم خارجيّ، كنت محقًّـا في أن العزبـة ومنازلها أسـوار عاليـة تخنقنا يومًا بعـد يـوم، ولكـن السـجن سـوف أراه نعيـمًا معـك، وسـوف أحـاول إقنـاع جـدي بالـزواج وتأتـين إلى هنـا، هـل تحسـنَّت العلاقـة بينـك وبـين جـدي؟ أتمنـى أن تكـون تحسـنَّت حتـى لا تقـف في طريـق حبـي لـكِ، أتمنـى ذلـك، وأدعـو الله دائـمًا، ولا تقلقـي علـيّ، بـل أنـا في أحسـن حـال، ولـديّ أصدقاء يعتنـون بصحتـي عندما أُصَـاب بالبرد والسـعال؛ فأنـت تعلمين أنهـا تجعلني في فـراشي لمـدة أسـبوعين، لا تقلقي عليّ، بـل أريدكِ أن تعتني أنـتِ بصحتك، وأريـد شـيئًا آخر.. هو أن ترسـلي سـلامك إلى الشـمس فهي توصلـه لي دائمًا.

حبيبك الذي يقبلك)

طلبت منه فريدة أن يرحل بعدما قرأ رسالته، فشردت والفرح يدق أبواب قلبه، فقالت:

- أين أنت وأين أنا؟ هناك فراغ كبير بيننا، يا ليت هذا الشوق يعبر الفراغ ويصل لكَ في لمح البصر، أتمنى أن تعود قريبًا كما ذكرت، أتمنى؛ فالخمس سنوات كفيلة أن تجعل الحجر يتزحزح من مكانه.

تنحنح صوت من خلف الشجرة قائلًا:

- هل انتهت توصيل الرسالة؟

- سيد أنور، أهلا بك، منذ متى وأنت هنا؟

- لا يهم.

- حقًا لا يهم، في النهاية أنت أتيت.

أشار الأستاذ أنور إلى وجهها قائلًا:

- إصبع من التي على وجهك؟

- مَن غيره؟ إدريس بن عبد الجبار.

- كنت أعلم أن كل هذا سيحدث، لملوم لن يترك أحدًا.

جزَّت فريدة على أسنانها قائلة:

- الدور سيكون على لملوم حتى أتخلّص منه.

- كيف؟

- لا تشغل بالك، اترك هذا ليومه، لكن نحن نتخلف كثيرًا عن فصل المعرفة؛ فلا بُدّ من العودة إلى هناك وإلا سينهار.

- بالتأكيد سنذهب، ولكن هل علمتِ بآخر الأخبار؟

- ماذا حدث؟

- توعد لملوم لمن فعل ذلك، وأقسم بأغلظ الأيمان أنه سوف

يأخـذ أربعـة مـن أهـالي العزبـة، وسـيقوم بحرقهـم إذا لم يـأتِ الفاعـل إليـه ويعـترف عـلى مـا فعلـه.

- هـو يهـدد فقـط، يريـد أن نضعـف أمامـه، ثـم مـا يفعلـه يـدل عـلى أنـه يفكـر بطريقـة غبيـة، يظـن أن الفاعـل سـيذهب إليـه ويقـول هـا أنـا مَـن فعلـت ذلـك.

- أنـت تعلمـين أنـه لا يهـدد فقـط؛ لأنـه فعـل الكثـير مـن قبـل، فهـذا بالنسـبة لـه لا شيء، ثـم هـو يسـير عـلي مبـدأ خـذ الـبريء يخـاف المجـرم، بالمعنـى الصحيـح اضرِب المربـوط يخـاف السـايب، هـذا هـو الـذي يسـير عليـه.

تنهدت فريدة قائلة:

- هو يريد كلمة، وأنا سوف أذهب إليه لعله يهدأ.

ذهبَـت فريـدة وتركتـه جالسًـا بمفـرده يفكـر في الأمـر، سـلكت الطريـق الخارجـي؛ فـرأت أرض جدتهـا التـي أصبحـت منـزلًا شـاهقًا، بـل منـازل بجانـب بعضهـا، فكانـت هنـا تـزرع وتقلـع، وبجانـب الشـجرة تعـد الشـاي وتقُـصّ لهـا الجـدة القصـص النـادرة، كل هـذا انتهـى عـلي الأرض وكأنـه لم يكـن، ولكـن مـا زال معلّقًـا بنفسـها وكأنـه شيء سـيظل في صدرها حتـى المـمات، وصلَـت إلى منـزل لملـوم فلـم تجـده، عـادت مـرة أخـرى، وأثنـاء عودتهـا اصطدمـت بـه دون أن تنتبـه؛ فقـال سـاخرًا:

- أنت مصابة بالعمى أم ماذا؟

تفرّس في وجهها، فعاد يقول:

- واضح أن الأمانة وصلت لكِ على أكمل وجه، هنيئًا لكِ ولأبيكِ.

- لماذا أخذت أهل العزبة وهم لم يفعلوا شيئًا؟

- تعلمين أنني لستُ طفلًا يبلل نفسه كي أصدق هذا الكلام الفارغ.
- تُصدّق أم لا تصدق، لا يهمني كثيرًا.
- إذًا لماذا أتيتِ؟
- أتيتُ لأقول لكَ اتركهم وشأنهم؛ فهم أشخاص ليس لهم ذنب في شيء، وأنتَ تعلم ذلك، ألم يكفِكَ أخذ أموالهم وأراضيهم وجعلتهم يحيون في وَهمٍ، وفصلتَ بيننا بجدار لعين.
- اتركِي الماضي واجعلِينا في الحاضر، ولكن أريد أن تعودي إلى الماضي ليلة واحدة وهي ليلة أمس، ماذا فعلتِ بالضبط؟
- أوفّر عليك الكثير حتى لا تُصاب بالصداع، نحن كنا مجتمعين في منزل عزيزة؛ فكان زواجها هي ورضوان، كنا منذ الصباح حتى الحادية عشر مساء، إذا فعلتها لكنتُ قُلتُ أنني فعلتها، ثم لماذا لا تُرجِع الحادث إلى صدفة من الصدف؟
- الصدفة، نعم صدفة، أتصدقين أنني مخطئ؟ لأن كان لا بُدّ أن أُرجِع الحادث إلى صدفة من الصدف، ولكن ماذا أقول؟ الكبر هو السبب؛ جعلني أخرّف ولا أفكر بطريقة أرجع حريق أربعة منازل في هذا الوقت بالتحديد إلى صدفة، على العموم خذي لي موعدًا من رضوان، أريد مقابلته، فيجب أن نهنئ ونبارك.
- يكفي هذا السخف.
- إذا سأتركك؛ فأنا لست متفرغًا لحديث لاذع مثلك.

قال هذا وبصق على الأرض، بينما توجهَت إلى فصل المعرفة، فوجدت طفلة تجلس أمامها وتصنع عروسة من الطين والرمال؛ فأرسلتها فريدة إلى منزل رضوان الذي لا بُدّ من حضوره الآن،

هرعَت الفتاة ولم تغِب طويلًا حتى عادت وكان يحملها رضوان بين يده، فدخل رضوان الفصل وهو يتساءل بعدما نظر إلى وجهها التي ما زال يحمل أصبع إدريس قائلًا:

- ماذا حدث؟

أسرعت فريدة قائلة:

- قل ما الذي سيحدث! المَلوم سيأتي إليكَ كي يهنئك على الزواج، وهذا ليس من حبه لك، بل يريد أن يعلم ماذا حدث ليلة أمس، أظن أنه يعلم بكل شيء؛ فهو لا يريد أن يصدق أنّنا لم نفعل شيئًا.

- كان يجب أن نحسب ذلك؛ فهو ليس غبيًّا لهذه الدرجة، ثم قدَمِي إذا رآها فسوف يشكّ في الأمر، ماذا أفعل؟

- كن حذرًا ولا تتلجلج في حديثك، ولا تسمح له بأن يوقعك في الكلام.

لم تنتهِ من حديثها ووجدته يقف أمام الفصل؛ ففزع رضوان وجلس يداري قدمه، بينما تعجّبَت فريدة من سرعته؛ فهو كان يأتي خلفها بالتأكيد، كان يمسك بعلبةٍ صغيرة ملتفة، مد يده إلى رضوان ثم قال:

- لماذا لم تدعونا إلى حفل الزفاف؟ أليس أنا مثل أبيك يا ولد؟

ازدرد رضوان ريقه قائلًا:

- والله في الحقيقة يعني الحفلة كانت بسيطة ومقتصرة على الأصدقاء.

- ونحن لسنا من الأصدقاء؟

قالت فريدة مسرعة:

- قل كلامًا غير هذا إذا أردتَ أن يسمع لك إنسان.

قال لملوم ساخرًا:

- وماذا تكونين أنتِ؟ حيوان مثلًا؟

اشتعلت فريدة غيظًا قائلة:

- لا، بل أتعجبُ من حديثِك؛ فهو يخلو من المنطق، فكيف تشردنا وتفعل بنا ما لم يخطر على بال شيطان وتريد أن تكون صديقًا لنا؟! وفر وقتك وقُل المفيد، هو أتى يا رضوان ليعلَمَ منك شيئًا واحدًا فقط.. هو أين كنا ليلة أمس؟ ألم نكن في حفل زفافِك إلى الحادية عشر؟

هز رضوان رأسه قائلًا:

- نعم، ليلة أمس كنا في حفل زفافه، أقصد في حفل زفافي.

داعب لملوم مسبحته قائلًا:

- على العموم أتيتُ لأهنئَك، زواج مبارك إن شاء الله.

خرج لملوم، بينما جلست فريدة وهي تتنهّد بعمق قائلة:

- إنه سيظل هكذا حتى يعلم بحقيقة الأمر، حمدًا لله لم يكتشِف أمر قدمك وإلا كنا في خبر كان.

أمسك رضوان كُمّ جلبابه ومسح حبات العرق التي نبتت على جبينه قائلًا:

- لا أظن أنه سيترك أحدًا من الذي أخذهم؛ لأن هذا سيجعل كرامته أرضًا، فهو يظن بذلك أنه وصل إلى من فعلها، وإلا أهل الكاشف لن يرحموا.

- لا تقلق، لن يحدث لهم شيء على حسابنا، سنفعل المستحيل حتى يعودوا إلى أهاليهم.

- على ماذا تنوين؟

- سوف أفكر وأخبركم بذلك، لا بُدّ من رجوعهم مهما كلف الأمر.

قال رضوان وهو يسير نحو الخارج:

- غـدًا اجلبـي معـكِ صـادق وأسـتاذ أنـور؛ فأنتـم سـتتناولون الغـداء معنـا، هـذا أمـر مـن عزيـزة.

***

القسـوة تهـدم جـدار قلـب يتسـلح بالقـوة؛ فعندمـا تُصفَـع لـن يؤلمـك مـن الخـارج عـلى قـدر مـا سـيصنع لـك فجـوة في داخلـك تبتلـع نفسـك دون أن تــدري.

(١٨)

تناولـوا الغـداء في منـزل عزيـزة، ثـم جلسـوا يتفقـون عـلى مـا سـيحدث اليـوم، طلبـت فريـدة أن تعـود الأهـالي إلى منازلهـم، ولـن يحـدث ذلـك إلا بالقـوة، فقالـت فريـدة وهـي ترتشـف الشـاي:

نحـضر مجموعـة مـن الصبيـة، ثـم سيتسـلقون الجـدار ويذهبـون لمنـزل مـن منـازل أهـل الكاشـف، يأخـذون فـردًا أو فرديـن مقابـل أهـالي عزبـة الصخـرة، سـوف يهجمـون عـلى المنـزل بالحجـارة، وطبعًـا سـوف يخـرج الأهـالي مسـتنجدين، وفي هـذه اللحظـة سـوف يأخذونهـم.

قال أستاذ أنور وهو يضع الكوب بجانبه:

- وهل هذه الخطة سليمة أم ستكون الثلاثة ثابتة كما يقولون؟

- سـتكون لنـا وليـس لهـم، والنـصر حليفنـا بالتأكيـد، كل فـرد منـا يذهـب في جهـة مـن الجهـات ويطلـب مـن التلاميـذ مـا اتفقنـا عليـه، واعلمـوا أنهـم لـن يرفضـوا ذلـك؛ فهـم يفرحـون للغوغـاء.

قال رضوان وهو يفرك يده في بعضها البعض:

- إذًا سـنبدأ في العمـل، ولكـن قبـل هـذا سـنتناول الشـاي مـرة ثانيـة عـلى الأقـل؛ فالصبيـة يجعلونـك تصـاب بالإرهـاق.

- غدًا أو بعض غد، سيكون لك اثنان أو ثلاثة على الأقل.

- لا أعلم كيف سأتحملهم.

نهضت عزيزة تعد الشاي وهي تقول:

- بالطبع ستتحملهم رغم أنفك فهم سوف يشبهوني كثيرًا.

دخل الاثنان في نقاش الجينات الوراثية، بينما كان صادق منخرطًا في حديثه مع ليلى، أما فريدة فكانت تسبح في عالمها الخاص، اقترب أستاذ أنور منه قائلًا:

- تفكرين فيه؟

- تقصد حسن؟

- أهناك غيره؟

- نعم أفكر فيه دائمًا، ماذا يفعل؟ وكيف يكون هو ذكر لي في رسالته أنه سيعود؟

- قلتِ قريبًا، ولكن هذا القريب بعيدًا جدًا؛ فهو لا يستحق هذا الحب.

- لماذا تقول هذا؟

- هو رحل ولم يعُد ولم يسأل عنك طوال خمسة سنوات؛ فكيف يذهب وكيف يطمئن عليكِ وأنت تنتظرين ولا تعلمين إذا كان ينتظر أم لا؟

- ومن قال لكَ هذا؟ إننا تواعدنا وهو حتمًا سيأتي مرة أخرى.

- وهل الوعد كافٍ كي يجعله ينتظر إلى هذه اللحظة؟

مدت فريدة يدها بالرسالة قائلة:

- نعم كافية، ثم هذه الرسالة هو أرسلها لي وأنا أرسل له، وهو سيعود قريبًا وسترى، ولكن قُل لي ما الذي يجعلك تتحدث بهذه النبرة معي؟ لماذا يا سيد أنور لماذا؟ ثم هو لن يفعل شيئًا يجعلني أبكي.

قال سيد أنور بمكر:

- سنرى يا فريدة.. سنرى.

- أستاذ أنور، أرجو منك رجاء ألّا تتحدث في هذا الأمر مرة أخرى؛ فهو يسبب لي الإزعاج دائمًا.

تركت فريدة الجميع يرتشف الشاي وخرجت هي، فلحق بها الباقين لتنفيذ الخطة التي وضعتها، جمعوا عددًا لا بأس به من الصبية، ثم عادوا إلى منزل عزيزة مرة أخرى، بينما ظل صادق وسط الصبية حتى يرشدهم إذا ضلوا طريقهم، ملأ الصبية حجورهم بالحجر وأكياس بلاستكية تمتلئ بالرمال، تسلق الصبية الجدار ووقفوا أمام أول منزل وجدوه في طريقهم، ألقوا الطوب والرمال حتى خرجت امرأة بأطفالها للخارج، وهرع خلفها رجل أخذوه، لم يكتفِ الصبية بذلك، بل اعتدوا على خمسة بيوت تجوارهم وأخذو حوالي سبعة أفراد من أهالي الكاشف، ربط الصبية السبعة بحبل واحد وانهالوا عليهم بالضرب والركل.

شجّع ذلك الأهالي والرجال الذين خرجوا من كل ركن واشتركوا مع الصبية في القتال، بينما النساء خرجت خلف الرجال وهم يصرخون مطالبين بعودة الأهالي إلى منزلهم، علت الأصوات وأصبح أهالي عزبة الصخرة في حدود أهل الكاشف، أخذت النساء بعض الأواني من منزلهم وكُنّ يقرعْنَ عليها بالحجارة، بينما ساق رجال عزبة الصخرة السبعة أمامهم مثل الدجاج المذعور من الذبح وذهبوا إلى منزل لملوم.

كان عددهم يفوق عدد أهالي الكاشف؛ فلم يستطع أحد أن يتعرّض لهم، وقفوا أمام منزل لملوم وصرخوا مطالبين بخروجهم،

وإذا لم يخرجوا فسوف يأخذون السبعة ولن يعرف لهم أحد طريقًا بعد اليوم، لم يستجِب ولم يخرج لملوم، لمح أحد من الصبية لملوم ومرزوق اللذين كانا يتطلّعان من النافذة؛ فاقترح أن يصعدا فوق السور ثم فوق فروع الأشجار حتى يصيب الحجر موضعه الصحيح؛ فألقوا بالرمال والحجارة، صعد الرجال والصبية وكل من كان يمتلك حجارة في يده ألقاه، حتى الأطفال التي كانت تُحمَل على صدور أمهاتهم كانوا يصفقون بأيديهم ويصرخون بصوت يصم الآذان، علت الأصوات مرة أخرى وانهالت أكياس الرمال والحجرات على لملوم حتى كسر زجاج النافذة، ودخلت شظايا من الزجاج في جبهته جعلته يسقط أرضًا ويتلوّى.

أتي رجل بالسبعة رجال وألقاهم في حديقة لملوم قائلًا:

- أخرج أهالينا الذي ليس لهم ذنب في الحريق.

ارتفعَت الأصوات بعودة أهاليهم وذويهم، وازدحمت الشوارع بالرمال والطوب، وعلت الأصوات مرتفعة ومختلطة بين هتاف الأهالي وصياح الديكة ونهيق الحمير وطنين الذباب الذي عمر منازلهم وكأنه ثورة خرجت من ميدان، انطلق الأهالي بقوة للداخل، فقال أحدهم:

- سلمونا أهالينا تستلمون أهاليكم.

قال مرزوق وهو ينظر إلى رأس لملوم الذي يتطاير منه الدماء:

- أهالي عزبة الصخرة مجانين، اتركهم ثم سنفعل معهم ما لم نفعله من قبل، ونجعلهم يندمون على فعلتهم.

رفض لملوم خروج أحد؛ فهرع مرزوق وهو يلوح بيده خارج غرفة المكتب، وأعطى لحمودة إذْنًا بخروج الأهالي؛ فأخرج حمودة الخمسة

خلـف بعضهـم البعض، فـرأى لملوم مـن النافذة وهـم يخرجون؛ فهـو لم يأذن بذلـك؛ فجـن جنونـه فأخـرج سـلاحه مـن جيبـة ووضعـة في رأس مـرزوق الـذي سـمح لهم بذلـك، بينـما صفَّـر الصبيـة وزغردت النسـاء، ثـم خرجت طلقة من مسدسـه أخرسـت الجميع، أصابـت أحدهم، كان شـابًّا في العشرين مـن عمـره يدعـى محمـود، قبـل أن يصـل إلى حضن أمـه اخترقـت الرصاصة صـدره فسـقط، جـن جنـون الصبيـة والأهـالي؛ فانهالـت الأحجـار مـن كل صـوب وحـدب والرمال التي كانت سـتغرق المنـزل، بينما انقـض الصبية على أحـد من أهـالي الكاشـف حتى فقـأ له عينـه، والتـفَّ الرجال حـول الآخرين وكانـوا عـلى وشـك قتلهـم، ولكـن أتت فريـدة مهرولـةً فمنعـت قتلهم.

تركهـم يلهثـون أمـام منـزل لملـوم، بينـما أخـذوا الشـاب مـن بـين يـد أمـه وحملـوه كـي يدفـن؛ فمـلأ النحيـب العزبـة وخيـم الحـزن على نفوسـهم يومـين بعـد وفاتـه، فقـد كان شـابًّا حسـن السـيرة، يذهـب إلى فصـل المعرفة كـما يذهـب الباقـين، ويعـود ليُعِـين أمـه التـي لا تـرَى؛ فهـو مـن كان يمـلأ حياتـه، فهـي لم تنجـب سـوى هـو، وأبـوه تـوفي منـذ صغـره، فرحـل مـن كان يقودهـا ويعيلهـا، تـرى بـدون أن تمسـك عصـا لتسـتدل عـلى طريقهـا؛ فهـو كان عصـا قويـة تتنقـل هنـا وهنـاك دون أن تخشـى السـقوط، ولكـن الآن ستسـقط كثـيرًا، تعاهـدت فريـدة عـلى أن تبقَـى في منـزل المـرأة إلى ثلاثـة أيـام، وهـي مـن سـتعينها عـلى الحيـاة بعـد وفـاة ابنهـا.

***

(الموت يحلّقُ فوق نفوسنا ولا بُدّ من أن ينال منها، حتى ولو بعد حين)

(١٩)

مـرت ثلاثـة أيـام ولم يظهـر لملـوم، ولم يتوعَّـد أهـال العزبـة عـلى مـا فعلـوه، حتـى المنـزل لم يخـرج منـه حمـودة الـذي كان يسـير طـول اليـوم في الشـوارع انقطعَـت قدمـه عـن السـير، ومـرزوق الـذي اختفـى كالعنقـاء، قلقَـت فريـدة والتلاميـذ مـن هـذا الوضـع، كيـف لم يخرجـوا إلى الآن؟ فـكان أحـد مـن التلاميـذ يذهـب إلى منـزل لملـوم بأمـر مـن فريـدة ويعـود كـما كان، فليس هنـاك حركـة حتـى داخـل المنـزل تـدلّ عـلى الحيـاة وكأنـه قـبر بـه أمـوات وليـس أحيـاء، ذهبَـت فريـدة إلى رضـوان؛ فمـن الممكـن أن يكـون لديـه علـم بـشيء لم تعلمـه، وصلَـت إلى منزلـه وكان عـلى وجهـه علامـات اسـتفهام التـي توحـي بالحـيرة والاضطـراب؛ فقـال لـه وهـو يغلـق البـاب خلفـه:

- أهناك جديد؟

- لا، أنـا أتيـت حتـى أسـأل هـذا السـؤال، لملـوم ليـس في منزلـه ومـرزوق لم يظهـر منـذ الحادثـة، وحمـودة لم تخـطُ قدمـه الشـوارع كـما كان، أتظـن أنهـم رحلـوا؟

- لا لم يرحلـوا ولا شيء، بـل لملـوم أخـذه مـرزوق إلى بيتـه بعـد أن دمّـرَت الصبيـة منزلـه.

- هذا يعني أنه هناك.

- نعم.

- أخشـى صمتـه؛ فهـذا ليـس مـن عادتـه، بـل هـو يـرد الصـاع صاعـين

دائـمًا ولا ينتظـر كثـيرًا، وأنـت تعلـم ذلـك؟

– هذا الشي هو الذي يقلقني، ولكن ما الذي في أيدينا كي نفعله؟

– سـوف أرسـل أحـدًا مـن التلاميـذ يترقـب الوضـع مـن بعيـد حتـى نكـون مسـتعدين لضرباتـه.

– لا، لا ترسـلي أي أحـد ولا تعرضيـه للخطـر، أنـت تريديـن أن يحـدث مـا حـدث ويمـوت مثلـما مـات أحدهـم مـن قبـل، لا بُـدّ مـن أن نفكـر فيهـم قبـل أن نفكـر في لملـوم.

– لا أريد ذلك بالطبع.

– إذًا اتركـي الأمـر؛ لأن في النهايـة إذا أراد لملـوم فلـن يقـف في وجهـه أحـد مهـما فعلـتِ، وسـتصل صفعتـه لنـا عـلى أكمـل وجـه.

خرجـت ولم تُجِـب؛ فهـي تعلـم أن هـؤلاء لا يصمتـون طويـلًا دون فعـل شيء؛ فهـي كانـت تتعجّـب مـن رد فعلهـم البطـيء، بينـما لملـوم الـذي كان يشـتعل غيظًـا كلـما تذكّـر الأمر فـكان يسـتلقي عـلى الأريكة وهـو معصوب الـرأس، وكان يجلس بالقـرب منـه مـرزوق؛ فقـال وهو يشـعل سـيجارة:

– هل ستصمت أكثر من ذلك؟

قال لملوم وهو يشير إليه:

– المسـدس الـذي أخرجتـه كان يجـب أن يقتلـك أنـت؛ فـكل مـا حـدث كان مـن تحـت رأسـك أيهـا الجبـان.

– كانوا سيقتلونك إذا لم أفعل.

– أنـت غبـيّ، نعـم لم تفهـم شيء، لكـن هـذه التـي تُدعَـى فريـدة سـتكون أسـفل قدمـي كحـشرة.

– ومـا ذنـب فريـدة؟ لمـاذا لا تُرجـع مـا حـدث في هـذه الليلـة إلى

الغضب الذي أشعلتَه في نفوسهم بعدما أخذت أهاليهم بالقوة؟

- أنت تعلم جيدًا أنهم لن يستطيعوا فعل شيء؛ فهم في الحادية عشر والخامسة عشر لن يستطيعوا أن يفكروا بهذه الطريقة الخبيثة إلا عندما يقودهم أحد.

- لكن فريدة هي من منعَت قتل أهل الكاشف.

- هذا ما أكدّ لي الأمر أنها هي من فعلته، وسوف أجعلها تندم وتدفع الثمن غاليًا.

- في الحقيقة كل يوم يزداد الوضع سوءًا... سرقة منزلي وحريق أربعة منازل وطرد سبع عائلات من منازلهم، لا أعلم ما القادم.

- وبَالٌ، نعم القادم وبال على فريدة وأهل فريدة، وعلى كل من يقف معها.

- لم أحسَبْ أنهم أقوى منّا بكثير.

انتفض لملوم من مكانه، وأمسك مرزوق من فكّيه قائلًا:

- ليس هناك أحد أقوى منا، إذا أردت أن تحافظ على حياتك وتعيش أكثر لا تقُل هذه الكلمة أمامي.

هز مرزوق رأسه وظل يبصق على الأرض من ضغط يده قائلًا:

- ماذا سنفعل إذًا؟

- سوف أفعل بالتأكيد، ولكن بنفس أسلوبهم القذر، كنت أفعل ولا أخشَى ولا أنكر، وسوف أظل أفعل على الملأ دون أن يقف أحد في وجهي، ما أفعله أنا يصب في مصلحتهم.

استدعَى لملوم حمودة وخرج.

بينما عادت فريدة للمنزل وجلست تتذكر الرسالة التي لم تبعثها

لـه، مـاذا سـيقول؟ فقـال صـادق وهـو يجلـس بجانبهـا:

- صاحبنـا رد فعلـه يشـبه السـلحفاة، أظُـنّ هـذا أخرسَـه، لـن يخـرج ولـن يقـف في وجهنـا مـرة أخـرى، أتمنـى أن يكـون مـات، ولكـن هـذا لا يمـوت؛ فهـو مثـل القطـط بسـبع أرواح.

- الأمر مقلق لدرجة كبيرة يا أخي.

- اتركي هذا ولا تفكري كثيرًا، في النهاية هو كلب ذليل.

- اليـوم ذهبـت لرضـوان، قلـت لعلـه يعلـم شـيئًا، لكـن هـو الآخـر لم يعلـم شـيئًا سـوى أن مللـوم انتقـل لمنـزل مـرزوق.

قال صادق وهو يضرب جبينه بيده:

- إذًا قـولي علينـا يـا رحمـن يـا رحيـم؛ فمـرزوق ومللـوم رأسـان عندمـا يقتربـان مـن بعضهـما هـذا يعنـي أن هنـاك عاصفـة قادمـة سـتأخذ الأخـضر واليابـس.

- لا تُـزِد قلقـي أكثـر مـن ذلـك؛ فأنـا لم أنَـم منـذ يومـين، كادت رأسي أن تنفجـر مـن كثـرة التفكـير.

نهض صادق قائلًا:

- إذًا سوف أصنع لك كوبًا من القهوة ثم النوم، حتى تتحسّني قليلًا.

- حقًا أحتاج للقهوة وللنوم معًا.

قالت فريدة وهي تتثاءَب:

- ما أحوال ليلى هذه الأيام يا أخي؟

قال صادق متعجّبًا:

- لماذا تسألين هذا السؤال لي وهي أمامك دائمًا؟

- لأنك قريب منها، لا تداري عليّ شيئًا، أعلم أنك تحبها.

- نعم أحبها.

- أتمنى أن ترعاها ولا تقصّر معها في شيء؛ فهي تستحق كل الخير.

- أخشى هذا الشيء كلما تذكرته، بالإضافة لما أشعر به دائمًا في نفسي؛ فحالة ليلي تحتاج إلى الرعاية القصوى، ولكن أراها بين الحين والآخر وكأنها شيء رُسم بريشة فنان، نعم هي آية من آيات الحب والجمال، شعرت أنها على وشك أن تفقد بريقها ومضمونها فدخلت في حياتها، وجعلتُ هذا المضمون يستكمل سيره.

ارتشفت فريدة القوة قائلة:

- هل تعلم هي بحبك يا أخي؟.

- بالتأكيد تعلم، ولكن ليلى تشعر بالذنب؛ فهي تريد أن تقول إنني لا أمتلك شيئًا كي أعطيك، هي لم تقُلها بطريقة مباشرة، ولكن أشعر أن هذا يُثقل صدرها؛ فأنتِ تعلمين بمشكلة ليلى؛ فهي لا ترى ولا تسمع إلا القليل.

- وهل أنت ترى أنها لا تسمع ولا ترى إلا قليل؟

- تعلمين أنني أتمنّى ألا أرى ولا أسمع مثلها حتى نركض بدون رجفة.. بدون خوف من السقوط، إذا استطعتُ أن أصنع لها مكانًا للعميان فسأصنع؛ حتى لا يكون هذا ثقلًا في نفسها، وعندما أصنع هذا المكان سنكون به نحن الاثنان فقط، نعم.. نرى في الظلام ونأنس به، ونسمع الصمت ونخلب به وكأنه سمفونية صُنِعَت لنا. نعم صنعت لنا فقط.

- ما أجمل الأحلام الوردية التي يُصبح المحبوب شاعرًا ويتحدث مثلك يا أخي.

- أنـت تظلمينني بذلـك، أنـا لسـتُ شـاعرًا ولا شيء، بـل عاشـق، يعشـق...

لم يستكمل حديثه وطُرق الباب بقـوة، وكاد الباب أن ينخلـع في يـده، هـب صـادق مـن مكانـه فزعًـا قائـلًا:

- مَن هـذا الـذي يطـرق البـاب بهـذه الشـدة؟! اللعنـة عليـك! إذا كُسر مـن أيـن سـنجلب غيره؟

ركضَـت فريـدة خلفـه، فتـح صـادق البـاب فوجـد ثلاثـة مـن التلاميـذ يلهثـون ولم يسـتطيعوا الحديـث، إلا واحـدًا منهـم اسـتجمع قوتـه قائـلًا:

- فـ.. فصل.. المعرفة.

- ماذا حدث له؟

قال أحدهم وهو يجلس أسفل قدمه ويبكي قائلًا:

- ألقانا الملوم خارج الفصل وهدمَه.

نظـر صـادق إليهـا وكأنـه يقـول وهـا هـي العاصفـة أتَـت بعـد صمـت دام طويـلًا، ركضـت فريـدة للخـارج بينـا ركـض خلفهـا صـادق، وصـل الاثنـان إلى هنـاك؛ فـكان فصـل المعرفـة ركامًـا، أقصـد الـذي كان فصـلًا للمعرفـة، نظـرَت لـه فريـدة وكادت تسـقط مغشـيًّا عليـه، لـولا صـادق الـذي تشـبَّث بيدهـا ووقـف صامـدًا بالقـرب منهـا.

وكان رضـوان يقـف وبجانبـه عزيـزة، بينـا الأسـتاذ أنـور دخـل وسـط الـركام وكان يبحـث عـن بعـض الأوراق التـي كانـت متطايـرة هنـا وهنـاك، جذبـت فريـدة يدهـا مـن صـادق وركضَـت إلى منـزل مـرزوق، فوجدتـه يسـير في الحديقـة وهـو ممسـكٌ بمسـبحته، هرعـت إليـه وجذبـت المسـبحة مـن يـده بعنـف قائلـة:

- هذه المسبحة إذا قطعتها هكذا...

انتثرت حبات المسبحة على الأرض، فعادت تقول وهي تشير إليها:

- ألن تجد غيرها لتستخدمها؟ بل هناك الكثير منها؛ فأنت فعلت معنا مثل هكذا، هدمت فصل المعرفة وظَنَنْتَ أننا لن نجد غيرها، لكن هناك الصخرة، وإذا استطعتَ أن تهدمها أو تنقلها من مكانها اذهب واجعلني أرى قوتك.

نظر له نظرة احتقار وانحنى على الأرض ليجمع حبات مسبحته، بينما هي خرجت بدون وجه، بدون أن تعلم ماذا تريد وأين ستذهب، أهي هنا حقًا ترى ما تراه وتسمع ما تسمعه وتشارك في هذا العالم؟ أم هي في عالم تغوص في النوم وتحلم؟ تحلم بعالم وحشيّ يعتدي حتى على آيات الله، يعتدي على كلمة حق، يعتدي على إنسانيّة ذاته، أنحن هنا ندرك.. نسمع.. نشعر.. أم كل هذا وهم؟! وهمٌ تحيا به لأجل غير مسمى، نظرت إلى المباني المرتفعة من حولها، ونزعت خمارها من على رأسها؛ فهي كادت أن تختنق، فهذه المنازل أسوارها عالية تمنعها التنفس بحرية، حقًا كما قال لها حسن.. هنا حياة غير الحياة؛ فهي ترى أن المنازل أسوار عالية تحجبها عن عالم خارجي، تعثّرَت فسقطت أرضًا؛ فأعادت الركض مرة أخرى وهي تلقي بخمارها أرضًا، فيا ليت أنزع جلد وأُسقِط عن كاهلي الهزيل كل دَنَسٍ، وأكون بنفس بلا جسد.. نفس عارية لا تخجل من نفسها، قالت هذا وهي ما زالت تتعثر في الركض.

***

اركضي يا نفسي دون توقف، لا تبالي لتعثر ولا تخشَي سقوطًا، اخرجي عن طورك واذهبي لعالم حلمتِ به يومًا؛ فهذا هو الذي يبتسم لك ويُعِيد الوجود في نفسك يا نفسي، اركضي ولا تتوقفي.

(٢٠)

وصلت إلى الصخرة حتى سقطت أسفلها من كثرة الرجفة التي أصابتها، وتطلعت إلى السماء الملبدة بالغيوم، ثم صعدت فوقها وظلَّت تراقب النجوم لعلها تخترق السماء وترحل من هذا العالم الثقيل لعالم حالمٍ ليس به شيء إلا هي فقط، يقتصر عليها وتصغر حتى تكون بحجم حبة العدس، وتكبر حتى تملأ فراغ الكون، تريد أن تصرخ صرخة كبّلَت نفسه يوم الميلاد التي لم تصرخه، وهل هذه الصرخة تجعل نفسًا فنَت تعود مرة أخرى؟ وتجعل جدتها تعود إلى أحضانها؟ وتجعل مَن رحل يعود إليها؟ لا.. وَهم، كل هذا وهمٌ تحيا فيه، الصرخة هي صوتٌ يخرج من أعماق النفس يزلزلها ثم يعود الإنسان ويتعزّى بصراخه ويبقى في لا شيء.

غاصَت في النوم بعد صرخة جعلتها يُغشى عليها، بينما بحث صادق كثيرًا ليجدها، ووجدها مستلقية فوق الصخرة لا حول لها ولا قوة، هزها برفق؛ ففاقت وهي تمسك برأسها وكأن هناك مَن ضربها ضربة قوية جعلتها تفقد وعيها، نزلت من أعلى الصخرة وسارَت دون أن تنبس بكلمة، وكأنها صامتة عن الكلام، وصلت إلى المنزل وألقَت بنفسها فوق الفراش الذي يُصنَع من الحجر والطين، بينما كان يحتفل الملوم مع مرزوق ويظن أنه حقَّقَ نصرًا عظيم؛ فقال الملوم وهو يضحك بصوت مجلجل:

- الصمت لا بُدّ من أن يكون بعده حريق يلتهم كل شيء، حتى تلتهمهم هم بدون رحمة ولا شفقة.

قال مرزوق وهو يقضم في تفاحة بين يده:

– وهـل تظـن أنهـم سـيصمتون عـلى مـا فعلتـه بهـم؟ لا.. أفِـق، بـل سـيفعلون مـا لا يخطـر عـلى بالـك، انتظـر القـادم يـا لملـوم.

– أشعر بشيء غريب يا مرزوق، ألم تشعر به مثلي؟

– لا، ما هو هذا الذي تشعر به يا تُرى؟

– أنـت، نعـم المشـكلة فيـك، لمـاذا أصبحـتَ جبانًـا لهـذه الدرجـة؟ بـل لدرجـة أعجـز عـن وصفهـا، أنـت خائـف وتنتظـر مـاذا يفعلـون؟ منـذ متـى ونحـن ننتظـر هـؤلاء الـكلاب الجبنـاء؟

ألقى مرزوق التفاحة من يده، ثم نظر للملوم بعين زائغة وقال:

– منذ سرقة منزلي وحريق المنازل، وغيرها الكثير يا لملوم، ليس هناك داعٍ للتفتيش في الذي مضى.

– أنت محتاج لشجاعة يا مرزوق، نعم تحتاج إليها أشد الحاجة، أجعلك تذهب لمكان وتعود منه شجاعًا لا تخشى حتى الأُسُود؟

قال مرزوق وهو يطرد عن ذهنه الفكرة:

– لا أريد شيئًا، شكرًا لك، أنت تعلم بهدفنا، ونحن حقّقنا أكثر مما كنا نطمح.

قال لملوم وهو يهز رأسه:

– الطامح لا يتوقَّف عند نقطة معينة، اعتبر نفسَك تسير في طريق ليس له بداية من نهاية.

– نحـن نتوسـع يومًـا بعـد يـوم، مـاذا تريـد أكثـر مـن ذلـك؟ هـل تريـد العـالم بأكملـه مثـل الإسـكندر الفاتـح ونحـن لا نعلـم بذلـك؟

– لمَ لا؟

- أنت تطمح وتطمع أكثر من اللازم، وإذا زاد الشيء عن حدّه انقلب ضده.

قال لملوم محذّرًا:

- لا تعلق نفسك بهذه الأشياء، ولا تُسمعْني كلمات تسبّب لي الصداع، ثم أنا أسحق أي شخص لا يستحق الحياة، وهؤلاء منهم؛ فهم رجسين، القتل سيكون طريقهم الذي يسيرون فيه دائمًا، والدماء سوف تسيل كالنهر الذي يفيض على حياتهم، وسوف يتجرعون الفساد حتى يكادوا يختنقون منه.

قال مرزوق مفكرًا:

- يا لك من شرير! لن تكف عن هذا، كم أحبك وأنتَ تفكر بهذه الطريقة الشريرة، وإذا كنتَ تريد أن تسير بهذه الطريقة التي تتحدّث عنها؛ فلا بُدّ من تجديد القواعد التي وضعها لنا جدنا الحكيم.

- عظيم، الله ينور عليك يا مرزوق، أنت تؤمن بالتجديد، تعلم أن التجديد سلاح سوف يُستَخدم ضد كل قديم.. ضد كل تأخّر وتخلف، ونحن سوف نستخدم هذا ضدهم، هناك أسلحة كثيرة لا تحتاج إلى تصنيعها موجودة هنا، ولكن تحتاج إلى نظرة دقيقة، دقيقة فقط، الأغبياء هم من يعتقدون أن قطعة حديد تُخرج صوتَ بُوم تكون هي السلاح، لا.. هذا ليس سلاحًا، بل صوت يجعل عدوّك يبتعد عنك خمسة خطوات لا أكثر، أما السلاح الحقيقي هو التجديد، نعم.. وكأنك بالضبط تضع للأرانب جاتوه بدلًا من الجزر، سوف يتراجعون ويخشون شكله؛ فهم ليسوا معتادين عليه، يريدون الشيء الذي اعتادوا عليه منذ زمن؛ فسوف يربطون بطونهم ويجلسون واضعين أيديهم على خدِّهم ثم يموتون.

- الله عـلى عقلـك يـا الملـوم الله، نعـم.. أسـلحة تصنعهـا الطبيعـة ثـم يطورهـا البـشر، أو يطورهـا الملـوم، ثـم تكـون سـهامًا تُلقـى عليهـم وتُغرس في صدورهـم، عـلى كل حـال هـم سيموتون، إذا لم نفعلهـا نحـن فسـوف يفعلوهـا هـم، ولكـن مـاذا عـن عبـد العزيـز مـاذا سـتفعل معـه؟

- سأفعل معه ما سيرضيه.

- منذ متى وأنت تفعل هذا مع الخلق؟ فأنت دائمًا تسطو عليهم.

انتفض الملوم من على كرسيه، ثم قال:

- هـل أعتـبر هـذا ذلـة لسـان حتـى لا أغضـب عليـك؟ أم أعتـبره الخمر هـي مـا تجعلـك تتحـدث بهـذه الطريقـة الحمقاء؟

قال مرزوق وهو يقهقه:

- لا هـذا ولا ذاك، مـا أقولـه حقيقـة، اعـترف بذلـك؛ فالاعـتراف بالحـق فضيلـة يـا الملوم.

- أنـت تعلـم أننـي أقـول الحـق دائـمًا ولا أتكلـف؛ فهـو لا يرضينـي، والله هـذه حقيقتـي، ولكـن الأشـخاص لم تعـد تفهـم شـيئًا.

قال مرزوق ساخرًا:

- واضح يا أخي واضح!

نظر الملوم إلى مسبحته التي أعاد حباتها، ثم قال:

- أما فريدة فأنا أدبّر لها شيئًا لن تستطيع رفضه.

- ما هو هذا الشي؟

- لا تقلق، سوف تعلم به عن قريب.

بسط الظلام أذرعه على العزبة بأكملها، فخرجت فريدة متسللة من المنزل وابتعدت، وصلت إلى الصخرة فنظرت لها نظرة فاترة، وابتعدت عنها أيضًا،

ولكن عادت تنظر إليها بعدما ابتعدت؛ فهي رأت هناك شيئًا، نعم.. كان شخصًا يستلقي على الصخرة في نفس الموضع التي كانت تستلقي فيه، سارت ولم تهتم بأمره، من الممكن أن يكون تلميذًا أو فردًا من الذين يُطرَدون من منازلهم بسبب امتناعهم عن السرقة، كلما سارت كلما سمعت صوت أقدام خلفها، وكأن هناك من يسير متتبعًا خطواتها، شعرَت برجفة غمرتها فتوقفت، والتفتت للخلف؛ فلم تجد أحدًا، نظرت إلى الصخرة فوجدت الرجل ما زال بجانب الصخرة، استكملت السير وسمعَت أيضًا أصوات الاقدام خلفها، التفتَت سريعًا إلى الوراء؛ فوجدت شخصًا وكأنه شبح ليس له معالم كي تستطيع التعرف عليه، وكأنه لوحة نسي الفنان أن يرسمها؛ فظهرَت غير واضحة المعالم، نعم بلا أُطرٍ تحددها، نظرت إلى الصخرة بخوف مستنجدة بالرجل الذي كان هناك، فوقف الرجل فوق الصخرة وراح ينظر لها نظرة بؤس وترتجف يده وقدمه، بل جسده بأكمله يرتجف بحركة لا إرادية سقطت دموعه ثم سال الزبد من شدقيه وكأنه ينتظر الموت الذي لا مفر منه، نظرت إلى الشبح الذي يقف أمامها؛ فكان ما زال يتطلع بها؛ فأمسكها من خمارها وراح يتشمم به، فجذبته بحركة آلية وركضت سريعًا، ابتعدت بخطوات كثيرة ثم نظرت خلفها فوجدته ما زال في مكانه مثل الصنم لم يتحرك، راحت تركض وتستغل فرصة وقوفه؛ فكانت تنظر خلفها بين الحين والآخر فتتعثر وتسقط، ركض نحوها واقترب منها؛ فصرخت ونهضت من على الأرض وعادت تركض، استنجدت بالذي ما زال هناك فوجدته يضحك بصوت مفزِع، صوت يصم الأذن ويجعلك تموت وتُجنّ؛ فوقفت، وما زال يقترب منها وجثم فوقها، وما زال صوته يتردّد في أعماقها؛ فصرخت صرخة قوية وكأنها ضحك يختلط بصراخ واستنجاد.

كانت هذه الصرخة كفيلة بأن تجعل صادق يفزع وينزل مهرولًا

لأسفل، فقفز صادق إلى غرفة فريدة فوجدها تتمتم بكلمات غير مفهومة وملابسها مبللة وكأنه كانت داخل بحر، فكانت تهذي وهي نائمة، حاول صادق أن يوقظها من نومها، بينما وقفت مُنى ترتجف بجانبهما وتبكي على حال أختها، نهضَت فريدة وهي تحتضن صادق بقوة، وكان الشبح الذي كان يطاردها في حلمها سينتزعها من هذا العالم، شعر صادق بهذه الرجفة تملأ جسده، فربت على كتف أخته وكادت الدموع تسقط من عينيه، بينما إدريس الذي فاق من نومه وهو يسبّ ويلعن، فهو فاق بسببها؛ فكم يحاول جاهدًا النوم بسلام بدون بعوض يقلقه أثناء نومه، أما فاطمة التي تعثّرَت وهي تركض وتبحث عن المستغيث؛ فعلمت أنها فريدة، فهرعت إليها ثم قالت:

– عفريت، أكيد عفريت، اقرئي المعوذتين وآية الكرسي قبل النوم، ألم أقل لكم اجعلوا كتاب الله المجيد فوق رؤوسكم كي يحصنكم.

***

(الأحـلام محملـة بالكثـير مـن الـذي مـضى ومـن الـذي لم يـأتِ، فكـم تختلـط الأمـور وينتـج صـورة تجعلنـا نـصرخ صراخًـا حـادًّا ونتـألم، ألمٌ كثـير يسـكن النفـس ويقتلهـا بـدون رحمـة، ومـا علينـا سـوى أن نسـتقبل هـذا وذاك برجفـة تزحـفُ عـلى نفوسـنا ونغـرق في أعماقهـا.)

(٢١)

تبدّل حال فريدة بعد هذا الكابوس؛ فشحب وجهها أكثر وشردَت كثيرًا، وأصبح الخوف جليًّا على وجهها، والقلق والاضطراب سكن قلبها أكثر مما كان يسكنه، نهضَت بعدما داعبت الشمس عينها، فوقفت أمام المرآة وتطلّعَت إلى صورتها التي تغيّرَت وكأنها إنسانة أخرى لا تعرف عنها شيئًا قط، وضعت الشال فوق كتفها وهرعت إلى أعلى تتطلع على صادق هنا وهناك فلم تجده، فجلست على فراشها وهي تفكر في هذا الكابوس الذي كاد أن يقتلها، بل يمزقها، فكلما تذكرته كلما شعرت برجفة في أمعائها، فزعت عندما أتى صادق وجلس بجانبها قائلًا:

- لماذا كان هذا الصراخ؟

ألقت بنفسها بين ذراعيه قائلة:

- ليس بيدي يا أخي، ليس بيدي، لم أكن أعلم بما يحدث معي، كدتُ أن أموت في هذا الكابوس الذي جعلني أموت ألف مرة، ألف مرة يا أخي، حلمتُ بأن كان هناك مَن يريد قتلي، ولكنه ليس له معالم، وهناك رجل استنجدتُ به كثيرًا، ولكن تطلّع لي وكأني لم أكن موجودة في هذه الحياة، ضحك يا أخي وبكى أيضًا! هل هذه هي الحياة؟ لم لا تكون الحياة التي أحيا بها تتمثل في هذا الرجل الذي ينظر لي ببؤس وشقاء وحزن ومرض، بينما تركض خلفي وتريد الخلاص منِّي، يا ربي! ما ذنبي؟ ما ذنبي كي أرى كل هذا الشيء؟ كي أموت من الخوف الذي يستحوذ على حياتي ويقلبها رأسًا على

عقب؟ لم أعد أتحمل شيئًا، الطاقة نفدَت يا أخي لم يتبقَّ شيء كي أتحمل الكثير.

ربت صادق على يدها ومسح دموعها، وجلس يتطلع إليها بصمت، فهي غارقة في التفكير، أصبحت غائبة عن عالم البشر، في الحقيقة هي دائما غائبة ليست هنا، بل هناك في عالم خالٍ منه.. عالم ليس به لملوم ولا مرزوق، عالم في ذهنها صنعته بحلمها، بسبب الحياة التي فرضَت عليها الكثير وخضعته أسفل قدمها؛ فهي تريد إلغاء الماضي الذي يشبه شبحًا مخيفًا يغور في صدرها، وتزيل المستقبل الذي يتمدّد؛ فكم تخشى أن يتوقف عن تمدده ويتقلص فجأة؛ فتسقط على عنقها، فهي تريد أن تكون الحياة والموت.. الآن والأمس والغد، تكون كل شيء ثم لا شيء وكأنها لم تكن يومًا، تتبخر وتتلاشَى في أعماق الكون السحيق حتى لا تشعر ولا تسمع، ولكن هيهات! فنحن نسير ضمن معادلة محكمة لن ينقُصَ منها عنصر وإلا اختلَّت وسقطت، وسقط معها هذا الوجود بأكمله في الحضيض.

قرع الباب بشدة؛ ففزعت وتشبّثَت بصادق وكأن هذا الشبح ما زال يلاحقها، بينما فتحت مُنَى الباب، واندفع رضوان للداخل وخلفه عزيزة وأستاذ أنور، فقطع رضوان درجات السلم مهرولًا إليها؛ فوقف أمامها متلهفًا وهو يحتضنها بنظراته، فجلس بجانبه وتشبث بيدها، بينما رمت نفسها في أحضانه باكية ومنتحبة في البكاء؛ فقال رضوان بصوت مخنوق:

– ما الذي أصابك وما الذي حدث لكِ؟ لماذا يا فريدة كل هذا لماذا؟ إلى متى سوف تبكين؟

جلست عزيزة بجانبها، ثم قالت:

- لا تحملي همًّا، ماذا حدث؟ سيكون كل شيء كما كان وأحسن من ذلك بكثير.

قال أستاذ أنور وهو يضبط نظارته:

- يكفي أنه فعل هذا الشيء ولم يقتلنا!

قال رضوان هامسًا:

- سنفعل كل ما تريدين حتى ننتقِم من هذا الكلب.

- سنفعل، نعم سوف نفعل، ولكن ليس كما كنا.

قال أستاذ أنور غاضبًا:

- في الحقيقة سئمتُ هذا الوضع الذي يشبه الركض في دائرة ليس لها مخرج، أريد أن أقول لكم اتركوا الملوم يفعل ما بدا له، في النهاية هو داء مستعصٍ لا يُعالَج.

قالت فريدة بتحدٍّ:

- بل يُبتَر، الملوم داء علاجه الوحيد هو البتر.

- لا تجعلي عقلَكِ يأخذك إلى حيث لا رجعة.

- تريد يا أستاذ أن تتوقف لأنك سئمت من الركض داخل دائرة، حسنًا.. لا أريدك أن تأتي إلى الصخرة مرة أخرى، واجلس انتظر دورك كفأر مذعور ستكون نهايته أسفل الأقدام وموت لا مفر منه، تريد أن يستعبدك.. أن يسطو عليكَ.. أن يقتلكَ يومًا بعد يوم وأنت تنظر له ولا تقول حتى شيئًا.

سارت نحوه وأمسكت يده، وعادت تقول:

- هذه اليد أنت تمتلكها وتمتلك كل ما يجعلك تقف ضد هذا الكلب، لماذا تريد أن تحيا في القرف والازدراء؟ لماذا؟ لأنك سئمتَ

الركض والوضع الذي نحن فيه.

صمت الأستاذ أنور وجلس كالفأر المذعور من حديثها، بينما عادت إلى مكانها ودخلت في عالمها الذي تسكنه، فنظر لها رضوان نظرة مطوّلة وهو يراها لا تبدي أي اهتمام بوجودهم، فنهض قائلًا:

- سنذهب وسنلتقي غدًا بجانب الصخرة إذا شئتِ ذلك، وأنا سوف أقوم بمهمتي في دعوة التلاميذ إلى الصخرة بدلًا من فصل المعرفة.

رحل الثلاثة، بينما جلس صادق بجانبها قائلًا:

- لِمَ لا نذهب إلى الصخرة الآن؟ فأنتِ تحبين هذا المكان، هيا سنذهب معًا.

قالت وهي ترتجف:

- ولكن هو ينتظرني هناك؟

- من هو؟

- الرجل الذي كان يموت وعاد يضحك؛ فهو هناك، والشخص الذي لم أتعرف عليه أيضًا هناك، ينتظرني وسوف يقتلني إذا ذهبتُ إلى هناك.

- ليس هناك أحد، أنت تتوهمين، ثم أنا سوف أذهب معكِ؛ فليس هناك داعٍ للقلق.

التفَّت بالشال الذي سقط من على كتفها، وذهبت معه؛ فكانت تسير بخطى متثاقلة وكأنها ستجده هناك ينتظرها كما تتخيل، جلس الاثنان وظلت تترقب حولها، بينما أسندت رأسها وراحت تداعب الحشائش الصغيرة التي يكسوها الندى، وتتذكر الكابوس الذي سيظل في نفسها إلى الأبد.

***

القسـوة لا تصنـع رجـالًا، بـل تصنـع قلوبًـا ضعيفـة واهنـة، وتجنـي عـلى نفـوس وتُفنِـي أرواحًـا ليسـت قابلـة للفنـاء.

(٢٢)

ظـل الكابـوس يراودهـا بـين الحـين والآخـر؛ فتغـيّر حالها عـن ذي قبـل، أصبـح وجههـا مكفهـرًّا، وتجلـس في غرفتهـا فـترة طويلـة دون أن تخـرج حتى خـارج المنـزل، وأصبـح ذهابهـا إلى الصخـرة نـادرًا، فكانـت تعلـم الأخبـار مـن صـادق الـذي تـولَّى إعطـاء الـدروس هـو ورضـوان للتلاميـذ حتـى تتحسـن حالتهـا، فبينـما كانـت جالسـة تقـرأ في كتابهـا قـرع البـاب بصـوت مرتفـع، هرعَـت مُنـى لتفتـح، تسـاءلت فريـدة عـن الـذي حـضر، ولكـن لم تُجِـب مُنـى؛ فنهضـت وهـي تلتفـت فوجـدت لملـوم وبجانبـه حـارس، نظـرت لهـما نظـرة ازدراء، ثـم قالـت:

- هل تريد أن تهدم هذا البيت؛ فلذلك أتيت وتعبت نفسك؟

رد لملوم بصوت خشن قائلًا:

- نعم أتيت، ليس لهدم البيت، بل لبناء هذه الخرابة قصرًا.

- القصـور في الجنـة يـا لملـوم بيـه، قُـل مـا الـذي تريـده بالضبـط ووفـر وقتـك ووقتـي؟

- أنـتِ، نعـم أريـدكِ أنـتِ، ثـم لمـاذا تجعلينـا نقـف عـلى البـاب بـدون أن تدعِينـا للدخـول؟ هـل أنـتِ بخيلـة لهـذه الدرجـة ولا تعرفـين شـيئًا عـن الكـرم؟ كـم أكـره هـؤلاء الأشـخاص.

أمسكت فريدة الباب الذي كان يتأرجَح من الهواء قائلة:

- تركـتُ لـكَ الكـرم كلـه، ولكـن قُـل المقصـود مـن خلـف حديثـك الـذي يجعـل الصـداع يفلـق الـرأس إلى نصفَـين.

دفعها لملوم ودخل، ثم دخل خلفه حارس، فقال وهو ينظر في أرجاء المنزل باشمئزاز:

- حارس يريد الزواج منكِ، وأنا على يقين أنكِ لن ترفضي ذلك الأمر؛ لأنكِ سوف تختارين الزواج عن الموت، ثم هذه فرصة تتمنّى أية فتاة جالسة بجانب أمها، وها هي قُدِّمَت لكِ على يد لملوم.

حملقَت فريدة في وجهه، ثم ضحكت قائلة:

- في الحقيقة يا سيد لملوم إذا كان عندي علم بأنك ستأتي إلى هنا ولهذا الشيء لكنتُ وفرت عليك الكثير، ما تفعله سئمنا منه؛ فنحن نراه في أفلام ومسلسلات كثيرة، أنت تريد أن تجعلني تحت قدمك حتى لا أقول لكَ لا، ولكن لا تقلق.. سوف أظل أقول هذه الكلمة مهما فعلت، إذا أردتَ ابنِ لي سجنًا، لا بل سجون كي تخرسني؛ فلن أخرس عن قول شيء أردتُ قوله يومًا ما، ما تفعله بنا إلى متى سنظل نحيا في القذارة؟ إلى متى؟ مهما طال يوم فسوف ينتهِي، واعلم أن يومًا لك ويومًا عليك، ويومنا اقترب.. اقترب لدرجة أنه يحومُ حولك الآن، بربِّك ماذا تستفيد وأنت تصنع معنا كل ما تصنعه؟ هل تسعَد بجوعنا وألمنا وفقرنا وربط بطوننا؟ أنت شيطان رجيم وإبليس ينتظرُكَ في الجحيم، لا بل أسفل السافلين، فلتذهب إليه أنت وكل مَن وقف معك يومًا ما وأسند الباطل وجعله حقًّا؛ فأنت تستحق الشنق، ونحن الآن نصنع لك حبلًا كي يلتف حول عنقك، هيا اذهب من هنا ولا أريد أن أرى وجهَكَ مرة أخرى.

قال لملوم وهو يصر على أسنانه:

- أنتِ مثل جدتك لستِ وجه نعمة.

- ورب الكعبة صدقت أنني مثلها، وسوف أجعلك تدفع الثمن غاليًا على ما فعلته بها يومًا ما، وأطلب منك شيئًا قبل أن ترحل.. يا ليت تتذكر دائما ما فعلته بها، لا أريد أن يذهب من رأسك، بل احفظه وسمِّعه كل يوم على نفسك حتى لا تنسَى.

قبل أن يتفوه لملوم بكلمة أتى إدريس وخلفه صادق، فقال إدريس وهو يقبض على ذراعها:

- ليس لكِ قرار بالمرة، أنا من أقول هنا وأنا مَن أقرّر عن الجميع، سوف تتزوجين به، ثم لن تجدي أحسن منه، هو قال لي وأنا وافقت عليه، لا أريد أن أسمع منك كلمة واحدة، أفهمتِ؟

دفعته فريدة ثم قالت:

- لا، أنت ليس لك قرار، تعلم لماذا؟ لأنكَ لا شيء بالنسبة لي، ثم تريد أن تضعني داخل سجن هذا الرجل، أنت تريد أن تبني لي سجنًا آخر، لماذا تريد أن تقتلني؟ لماذا تريد أن تجعلني أُدفَن حية؟ ألستَ أنت والدي؟ إذًا لماذا كل هذا؟ أنت تتظاهر بشيء ليس موجودًا لديك، تصنع حماية لي ليست موجودة، ولكن تريد أن تتخلص مني، تريد أن تتخلص من متاعب الحياة.

هرعت للخارج، بينما ألقى صادق بالخبز الذي كان في يده وهرع خلفها، فنظر لملوم إلى إدريس الذي كان يشبه القنبلة الموقوتة، وقال:

- سوف أجعلك في قلب المسلسل أنتَ وابنتك؛ فقد سخرت مني، وأقسم برب العزة أنك ستندم ندم عمرك على ما تفعله هذه، إذا كنت مكانك لكنت قتلتها من أول طريق انحرفت عنه، ولكن أنت وقفتَ كتمثال، وها أنت تتأرجح كثيرًا وسوف تسقط أنت

وهـي، بـل كل هـذا البيـت ومـا فيـه.

وصلت إلى الصخرة وألقت بنفسها وقالت:

- تأخر كثيرًا يا أخي؟

- سيأتي عـن قريـب، هـذا مـا تقولينه للجميـع، لمـاذا تأتـين الآن وتقولين تأخـر؟! كل مـا أريـده منـكِ ألّا تُظهـرِي ضعفَـكِ لهـذا الـذي يُدعـى لملـوم، بـل ركـزي علي الـشيء المهـم، أنـتِ غـيّرتِ الكثـير، نعـم.. حتى أنـا تغيرتُ ونجحـتِ في أن تجعلينـي إنسـانًا، كنـت أحيـا بالهيئـة التـي تحسـبني منهـم، ولكـن أنـتِ بدّلـتِ ذلك بإنسـان بحق، ولكـن أخشـى أن أفقد هذا الإنسـان الـذي عثـرتُ عليـه، أقسـم لـكِ خائـف وكأني عندمـا أفقده سـأموت.

- لمـاذا تخشـى ذلـك؟ هنـا الكثـير يـا أخـي يريـد أن يحيـا بهيئـة قـذرة ولا يريـد أن يكـون إنسـانًا.

- نحـن لسـنا منهـم، نعـم.. لأننـا لا نتقمـص في زِيّ بشر ونحـن كلاب، هنـاك سـؤال يَلِـجُ في ذهنـي دائـمًا منـذ زمـن، تعلمـينَ أننـي حاولـتُ كثـيرًا أن أُخفِـي هـذا السـؤال ولم أسـتطع، وحاولـتً كثـيرًا أن أُخفِـي شـعورًا ينبـع خلفـه لدرجـة أننـي كنـت أؤذي نفسـي، ولكـن هـذا يـزداد يومًـا بعـد يـوم، لم أسـتطع الخـلاص؛ فهـو شـعور قاتـل.

- وما هذا الشعور القاتل يا أخي؟

- حقًّـا قاتـل كـما وصفـتِ، أشـعر أنني هنا وهنـاك أسـير وأقـف، أتعبَّد وأُعَربـد، وأسرق وأجتـاح وأتقشـف وأحيـا في الزهـد، أنـا قريبٌ منـكِ الآن وأجلـس بجانبـك في هـذا المكان وهـذا الزمـان، ولكـن أنـا أسـمع أصواتًـا ليـس لهـا صوت ولا صدًى، أشـعر بيد تلامسـني، تحـاول أن توقظنـي من نوم طـال كثـيرًا وكأني من أهـل الكهـف، ولكن هذه اليـد لا تلمس جسـدي! بل

روحـي، روحـي هي من تقـترِب منها هـذه اليد، وهذا يجعلني أخشـى أشـياء كثـيرة مـن حولي، أخشـى أن أفِيق يومًـا وأكون حالمًـا يغرق في حيـاةٍ لم يحيا بها أصلًا، حيـاة ليسـت موجودة.

– هل أنت تؤمن بالله يا أخي؟

– لا أريـد أن أكـذب وأتظاهـر بإيـمان مصطنـع، كنـتُ دائـمًا أقـول لماذا لا نـرى الله ولا نسـمع له صوتًا ولا نرى لـه وجهًا؛ فهو صانـع المعجزات، وكان مـن الممكـن صنع معجـزة تجعلنا نراه، ولكـن علمتُ أن المعجـزات تدخل من ضمـن قانـون الله الـذي وضعـه؛ فكيف نـرى وجهـه الآن؟ وإذا رأينـا وجهه لـن نتلهَّـف يـوم الديـن كـي نـراه، نعـم هـذا مـا فكـرت فيـه، تعلمـين أننـي أسـمع صـوت الرعـد وعندما أنظر للسـماء أشـعر بأنه تجلَّى في كل شيء خلقه بيـده، نعـم.. الله يتجـلى في كل مخلوقاتـه؛ فـكان لابـد مـن وجود أشـياء نظن أنهـا ليسـت في صالحنـا أو ضدنا، ولكـن في الحقيقـة تدعمنا، الوجـود بأكمله عبـارة عن جبال أو سلسـلة متسلسـلة لبعضهـا البعض، لا يجـوز انفصال حبة مـن حباتـه عـن الأخـرى وإلا فقدنـا بالمـرة، تعلمـين أن لملوم مـن ضمن هذه السلسـلة، لكـن لا أعلم إذا كان في الجـزء الصالح أم الطالـح؟ ولا أعلم أيضًا إذا كانـت هـذه السلسـلة تحتوِي عـلي شيء غير صالح، والله كل مـا أعلمه هو هذا الشـعور الـذي لم أسـتطِع أن أكفّ عنـه للحظة.

– إيمانك سوف يقتل هذا الشعور يا أخي.

– وهل سأفقد هذا الإنسان؟

لم تُجِب فريدة، بل شردَت بعيدًا وصمتَت، فعادت تقول:

– كـي تظـل إنسـانيتك فلابـد مـن أن نقـضي عـلى لملـوم أولًا؛ فالوجـود لا يسَـعُ الـذي يريـد أن يكـون إنسـانًا يشـعر بأنـه نبـيّ محمـل برسـالة مـن

عنـد الله، وبـين الإنسـان الـذي يتظاهـر بأنـه إنسـان وهـو لا يعلـم عنـه شـيئًا.

- إذًا ماذا ستفعلين؟

نهضـت فريـدة وحملَـت بعـض كتبهـا التـي جلبتهـا وهـي خارجـة؛ فعلمـت أنهـا لـن تعـود إلى المنـزل مـرة ثانيـة، فقالـت:

- عندمـا نصـل سـأقول لـكَ؛ فرضـوان ينتظـر حتـمًا، نسـيتُ أن أقـول لـكَ أنـكَ عـلى بـاب الإيـمان واليقـين؛ فهـذا الشـعور الـذي تخشـاه هـو موسـيقى جذابـة تخلـب الألبـاب مـن عنـد الله، فهـو الآن يمـدُّ لـكَ جسـرًا وينسـج لـكَ خيوطًـا كـي تسـير عليهـا وتصـل إليـه لـتراه وتسـمع صوتـه، ولكـن حافـظ عـلى إنسـانيك عـلى قـدر مـا تسـتطيع يـا أخـي.

اطمـأن قلـب صـادق بحديثهـا، فهـو لم يـذق للنـوم طعـمًا؛ فـكان يشـعر أن هنـاك يـدًا تلامـس روحـه وكأنهـا تمتـد لتضـع فيـه مصباحًـا يشـتعل، ويمـلأه بالخـوف عندمـا تذبـل.

وصـل الاثنـان إلى منـزل رضـوان الـذي رحب بهـما ترحيبًـا حـارًّا، وكان عـلى وجهـه سـعادة لا توصـف بقدومهـما، فجلسـت فريـدة ودخلَـت في نوبة سـعال؛ فركضـت عزيـزة وهـي تحضر كوبًـا مـن المـاء وتمـد يدها، فرشـفت رشـفتين ولم يتوقـف السـعال؛ فقالـت وهـي مـا زالت تسـعل:

- أعلـم أنني كـح.. تأخـرتُ كثيرًا؛ فلذلـك لا بُـدّ مـن البـدء في عملنـا كح. كح.

قال رضوان غاضبًا:

- ألم تري؟ أنتِ ما زال مرضُك؟ كيف ستعملين؟

- لا تقلـق يـا رضـوان بشـأني، نحـن سـوف ندعُـو الخلـق كـي يطالبـوا

بحقهم في المنازل والأرض والحياة التي تعني الحياة، وليس الموت.

- تقصدين ثورة؟

- ليست بهذا المعنى، أو أقول لكَ سمِّها كما تريد، لكن المهم ندعُو الأشخاص، وخاصة مَن كان يأتي إلى هنا وامتنع، ونحن سنحفّز الجميع على التوحّد على قلب رجل واحد ضد مللوم.

- سنبدأ من جديد إذًا؟

- ومَن الذي قال لكَ أننا توقفنا كي نبدأ من جديد؟ رجاء يا عزيزة لا تحاولي غضبي.

- منذ الصباح الباكر سأذهب أنا وصادق إلى منزل أستاذ أنور ونخبره بهذا، وندعو مَن نستطيع من الأشخاص كي يحضروا إلى الصخرة عصرًا، وتستطيعين أن تبدئين في ذلك الوقت ما تريدين.

قال صادق متوسلًا:

- فريدة، أريدك ألّا تنسي ما حدث من ساعات رجاء، مللوم متربص لكِ وللجميع.

- ما الذي حدث؟

- حدث ما لم يخطر على البال يا رضوان، أتعلم أنه أتى إلى المنزل وطلب أن تتزوج حارس؟ وإذا لم تفعل ذلك فسوف يقتلها.

قالت فريدة وهي تلوّح بيدها:

- لا تفكروا في هذا الأمر، هو يريد أن يجعلني أسفل قدمه حتى لا أفعل ما أفعله ضده؛ فهو يهدد فقط.

- أنتِ تعلمين يا فريدة أنه يفعل بدون تهديد وبدون قتل، هو شخص مجنون.

- استرِح يا رضوان، جسدي ممتلئ بالجروح التي ترفض الشفاء؛ فرصاصة للموم ليسَت شيئًا، أنا في الحقيقة ميتة منذ زمن.

- القادم سيكون ويلًا علينا جميعًا، رجاء يا رضوان اجعلها تجلس هنا معكم؛ فهي مطرودة من المنزل تقريبًا.

رحب رضوان بها، وفرحت عزيزة بجلوسها معهما، فكم تحب فريدة؛ فهي صديقتها منذ الطفولة، خرج رضوان وصادق بينما جلست عزيزة بجانبها قائلة:

- أعلم بماذا تفكرين.

قالت فريدة وهي ترتسم على شفتيها ابتسامة خفيفة:

- غريبٌ والله، الجميع يعلم بماذا أفكر، وأنا الوحيدة الذي أفكر ولا أعلم بماذا! على العموم لا شيء أفكر به.

- تقصدين كل شيء، نعم أنتِ تفكرين في الغائب الذي لم يعُد إلى الآن.

- طال غيابه كثيرًا، وهذا يقلقني.

- لا أعلم كيف صبرتِ إلى اليوم وما زلتِ تنتظرين قدومه؟

قالت فريدة شاردة:

- لا أعلم.

- وإلى متى سوف تظلين منتظرة يا فريدة؟

- لا أعلم.

- هل يفكر بكِ الآن كما أنت تفكرين به؟

- لا أعلم.

قالت عزيزة بضجر:

- ما بكِ؟ كلما أقول شيئًا تقولين لا أعلم لا أعلم، من الذي يعلم إذًا؟!

- لا أعلم، لست معه كي أعلم؛ فمنذ رحيله أشعر بأن الحياة توقفت عن الحركة، وأبراج النجوم سكنَت في موضعها، وكل شيء فقَدَ طعمه ولونه، ما زلتُ أتعزَّى ببعض الألم وأصبّر روحًا عانت كثيرًا؛ فرحيل اثنين في وقت واحد جعلني أموت، فأحدهما كان البئر الذي يروِي ظمأ، وأحدهما كان قبَسًا من نور يملأ فراغ الكون وظلامه بنور يبعثُ الحياة في الوجود.

- أنتِ تشتاقين لهم كثيرًا يا فريدة، كان الله في عونك.

- لم يمر يوم بدون أن يزداد شوقي لهما، وحبي لا أعلم عنه شيئًا سوى العطاء، نعم.. سوف تعلق روح تضلّ طريقها بروح تهديه بعد ضلاله، هذا هو كل ما أعلمه، وهذا هو ما أعطيه.

***

الماضي نقطة في حياتنا جميعًا، نحسبه وخزة تنخر في قلوبنا؛ فتجعل العين تزرف الدموع، والقلب يتذكر ما كان، ولكن الماضي درسٌ نتذكّره كي نهذّب به نفوسنا.

(٢٣)

قـام رضوان وصـادق بدعـوة التلاميذ للعـودة إلى الصخرة؛ فهي سـتكون مكانهـم مـن اليـوم، واليـوم سـيكون حاسـمًا بالنسـبة للجميع، تحمّـس أهالي العزبة لذلك؛ فراحت النسـاء تحمـل أطفالهن ويهرَعْـن إلى الصخرة، والرجال ومـن لم يوجـه لـه الدعـوة ذهـب إلى هنـاك، وفـزع رضـوان عندمـا رأى أبـاه وأمـه مـن الذيـن لم يوجّه لهـم الدعوة ويهرعـان إلى الصخـرة، وأطفـال لم تتعدَّ أعمارهـم العـاشرة والحادية عـشر، وقفَـت فريـدة وبجانبها صـادق ورضوان الـذي كان يشـير إلى أسـتاذ أنـور؛ فـكان الجميـع صامتًـا ينتظـر كلمـة تخـرج مـن أفواههـم، نظـر صادق مـن حوله وعلـم أن اليوم سـيكون النهايـة لإهانة الخلـق، ولعذابهـم الذيـن ظلـوا فيه دون رحمـة، لملوم مثـل الرجل الـذي صنَعَ لنفسـه عالمًـا بمبـادئ جديـدة، وصنَـع وهمًـا مـع هـذا العـالم، وجعـل الجميع يتجـرع منـه، فكـم يحيا المرؤ بمبادئ ظاهريـة لا يعلم عنها شـيئًا ويعتـز كثيرًا بـه، وهـي سفاسـف وسـخافات صُنِعَت لتهـدم حيـاة، ولكنـه يتصنَّع عكس ذلـك، ويعلـم جيـدًا بـما يصنع بـه ويتفاخـر بذلـك، لم يرحـم الصغـير عندما يسـكن الهلـع قلوبهـم، ولم يرحـم الكبـير؛ فهـو لا يعرف لهـذه الرحمـة طريقًا؛ لأنـه أراد أن يكـون، والإنسـان يعمـى عندما ينظـر إلى أبعد ما يقدّر لـه النظر؛ فاليـوم سـيوجه في وجهـه السـلاح الـذي خُفِـض منذ زمـن؛ فهـذه الأهالي لا تمتلـك شـيئًا، كل مـا تمتلكـه هـو الصوت الـذي يخرج يزلـزل أصداء أبواب كثـيرة أغلقهـا في وجوههـم، قالـت فريـدة وهـي تقبض يدهـا بقوة:

- نحـن الآن سـنفعل، نعـم سـنفعل مـا لم نسـتطع فعلـه منـذ زمـن،

كم مرَّت السنين علينا ونحن نتظاهر بالعمى، ونتظاهر بالصمت ولا نتحدث؛ فحان الآن أن نخرُج لهم ونقول يكفي كل هذا؛ فأنتم لكم حقوق ولا بُدّ أن تطالبوا به؛ فالأرض التي سُلِبَت هي ملك لكم ولأولادكم، والمنازل التي يجلسون بها هي لنا، أهالي الكاشف ليسوا منا ونحن لسنا منهم.

قال أستاذ أنور وهو يطلب منهم التزام الصمت:

- نعم، هم ليسوا منا ونحن لسنا منهم، اليوم سيعلو صوتكم وتقولون لا لملوم ومرزوق، ولا تخشوا أسلحتهم؛ فهم جبناء لا يعلمون بماذا تعني القوة؛ فالسلاح يتحامون به وأنتم تتسلحون بصوتكم الذي سيزلزلهم ويجعلهم يتمنون الموت.

قال أحد من الأهالي وهو يخرج شيئًا من رأسه:

- وماذا سنفعل معهم؟ نحن نعلم بكل هذا، ولكن هل هذا سيجلب لنا أرضًا نسينا أنها أرضنا ومنزلًا يحمينا من البرد؟ وهل سنأكل الخبز ولن نحتاج إلى خيوط نربط به بطوننا من شدة الجوع؟ هل سيزول مرض نعاني منه ولم نجد الدواء؟ أم كل هذا حلم نراه؟ ولكن يأتي في صورة ناقصة.

قال رضوان مشمئزًا من هذا الرجل الذي يُخرج الحشرات من رأسه ويلقيها حوله:

- لا، ليس حلمًا نحلمه، بل سيكون حقيقة سنفعلها اليوم قبل الغد؛ فأنتم لستم بحاجة إلى خيوط كي تربطوا بها بطونكم من الجوع.

قالت فريدة وهي تُوقف رضوان بحركة من يدها قائلة:

- الشخص الخطأ هو من يخرج دائمًا ويبحث عن طعام وشراب، عن

نـوم سـعيد وعميـق، نحـن لا نريـد هـذا، تعلمـون لمـاذا؟ لأننـا نريـد الحياة، ونريـد الحريـة، ونفكـر كـما نريد بـدون قيود.. بـدون جبروت وفرض سـلطة تخضعـك دائـمًا أسـفل قدمهـا، وعندمـا توجـد الحريـة والتفكـير فسـوف تجد الطعـام والـشراب، وتجـد كل مـا تريـده بـدون ألم.. بـدون خوف مـن الحاجز الـذي فصـل بيننـا وبينهم، هـذا هدفـه، ونحن لـن نجعـل هدفه يكتمـل، بل سنفسـد كل شيء عليهـم، اليـوم هـذا الحاجـز سـوف نتخطَّاه وسـوف نهدمه حتـى تكـون نهايتهـم، وسـنرى مـا خلـف حواجزهـم البلهـاء، اعلمـوا أن الخـوف يسـتحوذ عـلى نفوسـهم؛ فلذلك شـيَّدوا هـذا الحاجز.

علَـت الأصـوات وارتفعـت في أرجـاء المـكان ينظـرون إلى بعضهـم والخـوف يمـلأ قلوبهـم الضعيفـة المريضـة التـي وهنَـت بمـرور الزمـن، يفكّـرون نفعـل أم ننتظـر معجـزة مـن السـماء تقـضي عليهـم؟ ولكـن لا بُـدّ مـن أن نبـدأ، نعـم.. إذا بدأنـا بالتأكيـد سـنفعل، وإذا فعلنـا سـوف نحيـا، ألم يكفِهـم مـا حيينـا بـه منـذ زمـن مـن فقـر وجـوع ومـرض وحـزن وخـوف ظلّـل عـلى حياتنـا؟ وكأنـه شـجرة غُرِسَـت بالقـوة كـي تتكثَّـف فروعهـا وتتشـابك أغصانهـا وتجعلنـا مذعوريـن مـن رؤيتـه، الجميـع يفكـر والجميـع يـتردّد والأصـوات تعلـو، حـاول الرجـل الـذي يخـرج شـيئًا مـن رأسـه، ولكنـه عثـر عليهـا؛ فكانـت قملـة نتيجـة القـذارة التـي يحيـون فيـه؛ فقـال وهـو يلقـي بهـا:

- مـاذا سـنفعل؟ قولـوا المفيـد؛ فأنـا تـارك أشـيائي بجانـب الجسر، وأخشـى أن يأخذهـا أحـد، قولـوا مـاذا تريـدون يـا خلـق؟

علـت الابتسـامة وجـه فريـدة؛ فاقتربـت مـن الرجـل ووقفـت مبتعـدة عنـه بخطوتـين في وسـط الزحـام الشـديد، فقالـت بحـماس:

- لكـم منـازل ولكم أراضي، وهـذه الأرضي كلٌّ ما بها ملـك لكم، اذهبوا واقعلـوا وخـذوا عـلى قدر مـا تسـتطيعون، وأخرجوهـم بالقوة مـن منازلهم؛ فهـي لكـم وليسـت لهم، واهدمـوا هـذا الحاجز الـذي يحجب الضـوء عنكم؛ فهـو سـد عـالٍ شـيّده الخـوف والضعـف، ومـا أسـهل هـدم هـذا وذاك، ولا تخشـوا السـلاح، اعلمـوا هـذا ولا يتراجـع أحـد منكـم؛ فعددكـم أكثـر مـن رصاصهـم؛ فاليـوم سـيرهب السـلاح، اذهبـوا فحـان الآن أن تسـترجعوا ما سُـلِب منكـم بالقوة.

وقـف الجميـع صامتًـا برهـة، وانطلـق الرجـال وخلفهـم الصبية والنسـاء الـلاتي حملْـنَ أطفالهـن الرضـع يلهثـون مـن الركـض، انقسـموا إلى ثـلاث مجموعـات، وكل مجموعـة لا تقـلّ عـن مائـة وخمسـين فـردًا، منهم مـن ذهب إلى منـزل لملـوم، ومنهـم من ذهـب إلى مرزوق وحمـودة وحـارس، ومن وقف أمـام الحاجز وشـمّرَ السـواعد وبـدأوا يهدمونـه بالحجر وبالفـأس، ومنهم من تسـلقه، ومنهـم من سـلك الطريـق الذي يُسـلَك مـن جانب الصخـرة ليصل إلى أهـل الكاشـف، نـزل الصبيـة أراضي مليئـة بـما تشـتهي الأنفس، قلعـوا عـلى قـدر مـا حملـت حجورهـم، والثـمار الباقيـة أُخـذت مـن قِبَـل الرجـال الذيـن راحـوا يعبُّونـه في عربـات تجرهـا الحمـير، فكلـما نزلـوا أرضًـا تركوها وكأنهـا لم تُـزرَع مـن قبـل، يهلّـلُ الصبيـة وأصواتهـم ترتفـع هنـا وهنـاك، أما الباقـون هجمـوا عـلى حديقة لملـوم وراحوا يعبثـون بالحديقة ويلقون الشـجر بالحجـارة ويتسـاقط الليمـون والتفـاح فوق رؤوسـهم.

كان لملـوم يجلـس داخـل مكتبـه، نهـض وهـو ينظـر مـن النافـذة، وفـزع لهـذا المشـهد؛ فهـو رآه مـن قبـل ولكـن ليـس بهـذه الطريقـة الهمجيـة، ركـض الصبيـة إلى البـاب وحاولـوا كـسره، بينـما ركـض هـو يبحـث عـن

سلاحه، ولكن هجم الصبية عليه قبل أن يعثر على سلاحه، أمسك الصبيةُ الخدمَ وأعطوا لكمات وركلات دون أن يبالوا إلى مَن الذي أمامهم، هرع لملوم إلى داخل غرفة المكتب وأغلق الباب من الداخل، إذا لم يفعل ذلك لكان قُتل.

بينما مرزوق الذي رأى الجميع يركض ويتوجّه إلى منزله بطريقة لا تدل على أنهم بشر، بل مجانين، خرج من الباب الخلفي وترك لهم المنزل بما فيه؛ فراح يطلب النجدة ولكن لم ينصت له أحدٌ من أهله، فأخذ الرجال ما أخذوه، بينما النساء ملأت المنزل وكأنهم جراد منتشر، هرعوا إلى غرفة زوجته وحملوا ملابسها وزينتها، ومن لم تستطع الحصول على ذلك أخذَت بعض قطع من الأواني النظيفة التي يُرَى الوجه به.

أما حارس وحمودة اجتمع الصبية حولها؛ فمن حسن حظهما وجدوهما بالقرب من القوة يقرقرون في الشيشة؛ فأخذوهما على منزل لملوم وربطوهما في حبل، وكان أحد من الصبية يمسك الحبل ويركض بينما يركضون خلفه ويقف فجأة فيسقطان على وجهيهما؛ فراح يلعب هكذا إلى أن سقطوا، فالتف عدد من الرجال حولهم وراحوا يقشرون البرتقال ويملؤون وجوههم بقشر البرتقال.

سارت فريدة وسط الزحام فرأت ما كانت تريد رؤيته منذ زمن، أهالي الكاشف يجلسون وينتظرون حظهم من الخوف، وكلما رأت الصبية الذين يركضون واضعين الأوز في حجورهم فرحين بما أتاهم اليوم، كانت تضحك وتزداد ابتسامتها وترتسم على وجهها وكأنها بريق أضاف على حياتها جمالًا له وصف، فكم تغيّرَت في السنوات التي مضَت، شحب

لونها وتحول إلى الأصفر وكأنها مريضة، وهزل جسدها؛ فهي ستستردّ عافيتها اليوم، وسوف يسقط هذا الحاجز الذي منعها من رؤية الحياة التي تحلم بها؛ فهي اليوم انتصرَت عليهم وهم يستحقون ما حدث لهم؛ فهم جبناء يتظاهرون بالقوة ويحتمون خلف قطعة حديد تُصدر صوتًا مزعجًا، يظنون أن بهذا يتراجعون، ولكن لن يتراجع أحد بعد اليوم؛ فلا بُدّ أن يعلم كل شخص بما له وبما عليه، وأتى اليوم الذي لا يفرّ منه كل مستبد أمثال هؤلاء الشمس، يأتي من بعده ظلام، واليوم يأتي حاملًا بين طياته صبحًا جديدًا، وقفت فريدة شاردة لم تنتبه؛ فشعرت بأنفاس قريبة منها، التفتَت للخلف وجدته أستاذ أنور يقول فرحًا:

- اليوم عاد الحق لهم.

سارت فريدة إلى الصخرة قائلة:

- تقصد جزءًا قليلًا جدًا من حقوقهم، هذه هي البداية فقط، نعم بداية لظلم دام طويلًا.

- هل تريدين أن تفعلي أكثر من ذلك؟ ثم ماذا بقي كي تفعلي؟ لم يبقَ شيء.

- نحن لم نفعل شيئًا كي تقول كثير، أنت تعلم جيدًا بما فعله لملوم ومرزوق ونحن صامتين عن كل هذا، صمتٌ استمر سنوات، وعندما يملأ الصمتُ صدرك ففي هذه اللحظة لن تصمتَ مرة أخرى.

- أنتم تظنون أنّ لملوم سيترك ما حدث يضيع هباءً، لا، بل سيصلبنا جميعًا في الشجر ويمزق أواصلنا، ثم يجعل الرصاص يخترق رؤوسنا، ماذا؟ تظنون أنفسكم أبطالًا مثلًا؟ تستطيعون أن تقفوا في أية لحظة وتهجموا عليه في أي لحظة، نحن لا شيء بجانب لملوم ومَن معه.

- الجبن أصبح داءً في كل شخص أعرفه، نحن لسنا أبطال، نحن أهالي اعتُدِيَ عليهم، وها أنت رأيت ذلك بنفسك، يكفي السلب والنهب، ويكفي القتل والركل والظلم والاستعباد، ألم يكفِكَ كل هذا كي نقف يومًا ما أمامه ونقول له لا يكفي هذا؟ نحن لسنا صلاح الدين أو نابليون، بل أشخاص اعتُدِي عليهم.

- أنا أخشى عليكم من أفعاله، هو لا يحسب حسابًا لأي أحد، ولا يبالي إذا مات أحد، ولا إذا عاش، كل ما يهمه هو أن يطغى، أظن يجده لذة في كل ما يفعله، نعم لذة عظيمة.

جلست فريدة بجانب رضوان الذي كان يقشّر البرتقال؛ فضحك قائلًا:

- نزلتُ إلى حديقة الملوم وأخذتُ منه هذا البرتقال، إنه طيب، هل تريدين يا فريدة؟ وأنت يا أستاذ أنور هل تريد؟ خُذ كُل؛ فهو ملك لنا من الأساس، طيب وله طعم لذيذ و...

لم يستكمل رضوان حديثه، وكان الملوم واقفًا فوق رؤوسهم وبجانبه مرزوق، نظرت له فريدة متعجبة؛ فكيف يأتيان إلى هنا وكأن شيئًا لم يكن؟! أخرج الملوم من جيبه السلاح ووضعه في رأس فريدة، التي وقفَت ولم تنبس بكلمة؛ فقال وهو يضحك ضحكة شيطانية:

- هأ هأ.. اليوم نهايتك يا شاطرة، أنتم كلاب، تسلّطون عليّ أهالي العزبة ليقتلوني ويسلبوا منزلي؟!

نظر لرضوان الذي ألقى البرتقالة من يده، ووقف يزيل ما على فمه بكُمّ جلبابه، وأضاف متعجلًا:

- وأنت تأكل هذا سوف أطفّحه لك الآن، خسيس جبان.

حـاول أسـتاذ أنـور أن يمسـكه ويبعـده عنهـا، ولكـن وجّـهَ مـرزوق السـلاح في وجهـه، ثـم قـال:

- أنت يا ذا الأربع أعين تقف أمامنا، ستكون نهايتك اليوم.

وقـف جميعهـم واجمـون، بينـما تنظـر فريـدة بعينـين زائغتـين للجميـع ولم تحـرك رأسـها، بـل عينهـا، بينـما اقترب لملـوم والتـفّ حولهـا، ووقـف أمامها وكانـت مـا تفصلهـما هـي خطـوة، بينـما رضـوان دعـا الله في سره ألّا يفعلهـا، وعزيـزة جلسـت أرضًـا مـن كثـرة مـا تخبّطَـت ركبتاهـا مـن الرعـب، بينـما نظـر صـادق وهـو آتٍ مـن بعيـد بـأن هنـاك حركـة مريبـة؛ فركـض ووقـف خلـف الصخـرة، وأمسـك قالـب طـوب في يـده وتسـلّل مـن فوقهـا، وألقى عـلى قـدم لملـوم الـذي صرخ بصـوت يشـبه صراخ الطفـل الجائـع؛ فسـقط المسـدس مـن يـده؛ فأخذتـه فريـدة بحركـة آليـة وأمسـكت بذراعـه وثنتـه خلـف ظهـره، ووجهـت السـلاح في مؤخـرة رأسـه قائلـة:

- تريـد أن تقتلنـي صحيـح؟ سـبحان الله! عجبـتُ لـك يـا قـدرًا، اليـوم نويـتَ أن أمـوت، ولكـن أرأيـت القـدر؟ فهـو يغـدر بنـا أحيانًـا كثـيرة، أنـت مـن سـيذهب إلى القـبر اليـوم، نعـم أنـت.

صرخـت في وجـه مـرزوق أن يُلقِـي سـلاحه أرضًـا؛ فألقَـى السـلاح وكان يرتجـف مـن الخـوف، بينـما ركـض رضـوان وحمـل سـلاحه، ووجّهـه في وجهـه، بينـما دفعـت فريـدة لملـوم الـذي سـقط أرضًـا أمامـه فدخـل الرمـل في فمـه؛ فغُـرس وجهـه في الرمـل وهـي تدفعـه، وكان مـن يـراه لا يسـتطيع التعـرف عليـه؛ فكـم كانـت حالتـه رثـة!

تطلـع لملـوم في عـين فريدة وكأنه يسـتعطف لـه ألّا تفعل ذلـك، فنظرت له ورقرقـت الدمـوع في عينـه، تعلـم أنهـا إذا ضغطت عـلى الزناد فسيكون زناد

حبها الذي سيزول بزوال هذا الرجل، حملقَت فيه ونمَت على شفتها التي ترتجف ابتسامة خفيفة، فكم يشبه هذا الرجل حسن! كم لم ترَ ذلك إلا الآن، يا الله كيف أقتله؟ إذا قتلته فسوف تكون قتلَت من تنتظره إلى اليوم، فماذا تنتظر بعد هذه اللحظة؟ هل تنتظر عدمًا؟ تنتظر فصل ربيع لن يأتي؟ وحتى إذا أتى سيكون مثل الزهرة العليلة التي نمَت وسط بستان عليل، ولكن لا يجب أن تقتله، أهالي العزبة والخلق اليوم سوف يشمون هواء نقيًّا ليس له رائحة عفنة، اليوم الفساد سيلتف في حرير أبيض ويوضع أسفل التراب، نعم.. ونحن سنسير ولا نلتفت كما كنا نلتفت من حولنا من قبل، ولكن أقتله كيف؟ سأكون البطلة أمامهم! وأمام نفسي ماذا أكون؟ أكون قاتلة، نعم سوف أعاقب كل يوم، سوف أموت في اليوم ألف مرة بسبب ما فعلته، سوف أموت خلفه حتمًا، أين ضميري؟ أين ذهب؟ اخرج لي الآن وقل لي ماذا أفعل؟ هل أكون البطلة؟ أم قاتلة حقيرة دنيئة في عينك أيها الضمير؟ أم أكون حبيبة جنَت على حب سنوات طويلة لن يبرأ القلب منه، ماذا أفعل؟ لماذا تصمت في لحظة مثل هذه لماذا؟ هل عندما تصمت تريد أن تجعلني أفعلها أم تغفو في هذا الوقت؟

صرخ رضوان في وجهها وهو يهزها بعنف قائلًا:

- افعليها قبل أن يفعلها هو ويقتلنا!

انتفضت فريدة وسقطت دمعه اختلطت بمخاطها، فكم كانت تشبه الأطفال في هذه اللحظة، نظرت فريدة إلى الملوم فوجدته مغمض العينين وينتظر؛ فهو يعلم أنها لن تضيع فرصة تتمناها من سنين، فنظر أستاذ أنور وقال:

- ماذا تنتظرين؟ أأنتِ مجنونة؟ افعليها هيّا، افعليها ولا تهتمي؟

طـردت فريـدة كل مـا تفكـر فيـه وأزلـت دموعهـا بكُـمّ عباءتـه، وضعـت يدهـا عـلى الزنـاد وهـي ترتجـف بقـوة، وتفرسـت في وجـه لملـوم، ثـم طـاخ.. كانـت الرصاصـة في الهـواء وليـس صـدر لملـوم، ألقـت السـلاح مـن يدهـا عـلى الأرض، ونظـرت حولهـا وهرعـت، بينـما التقـط رضـوان السـلاح وهـرع خلفهـا هـو وعزيـزة التـي لم تسـتطع السـير مـن الرعـب، بينـما سـار صـادق بعدمـا نظـر لهـما نظـرة ازدراء، بينـما بصـق أسـتاذ أنـور في وجـه مـرزوق ورحـل؛ فهـو يسـتحق، نعـم ويسـتحق أن يمتـلأ وجهـه بالكثـير؛ فقـد رفـع السـلاح في وجهـه.

نهـض لملـوم وهـو يبصـق ليزيـل الـتراب الـذي دخـل في فمـه، ويزيـل الـتراب مـن عـلى جلبابـه قائـلًا:

- ورب الكعبـة لأجعلهـم يسـيرون عـلى عجـين، لـن أغفـر لهـم هـذا، لـن أغفـر لهـم.

قال مرزوق وهو يدلّك ذراعه الذي سقط عليه:

- اليـوم سـتكون نهايتنـا، لكـن مـا الـذي جعلهـا تمتنـع عـن قتلـك وقتـلي؟

- لن تتجرأ ولن تستطيع يومًا فعلها.

- لكـن مَـن يتجـرأ ويرفـع السـلاح، بالتأكيـد سـوف يطلـق الرصاصـة، وانتظـر منهـا هـذه الرصاصـة عـن قريـب، لم أتخيّـل أنّ هـذه الفتـاة بـكل هـذه القـوة في الحقيقـة، ليسـت هـي فقـط، بـل جميعهـم، انظـر مـاذا فعلـوا اليـوم؟ المحاصيـل أُخِـذَت مـن الأرض، كنـا عـلى وشـك حصـاده لنـا، ولكـن هـم حصـدوه لأنفسـهم، منـزلي الآن خـاوٍ عـلي عروشـه، لم يتركـوا شـيئًا، أقسـم أننـي أخشـى أن أعـود لمنـزلي بسـببهم، وأخشـى أن يكونـوا

أخـذوا زوجتـي معهـم.

هرع لملوم تجاهه، وأمسكه من عنقه قائلًا:

- أنـا لا أريـد الجبنـاء، أفهمـت؟ لا تفكـر فيـما أُخِـذ، بـل فكـر فيـما سـوف يُؤخَـذ منهم هـم، وزوجتـك التـي تخشـى أن يكونـوا أخذوهـا؛ فهـي لا تسـتحق كل هـذا الخـوف، أقسـم لـو مكانـك لكنـت سـلمتها لهـم منـذ أن وضعـت قدمـي في هـذه العزبـة، لا تجعـل أمامـك أي شيء يوقفـك، امحـي كل هـذا، أي شـخص تعلـم أنـه سـيوقفك عـن شيء أردتَ فعلـه فاقتلـه بيـدك قبـل أن يقتلـك أيهـا البغـل.

***

يغيب الضمير فجأة بسبب حب غائب ننتظره أن يأتي، ولكن لا نعلم متى سيدق أبواب قلوب ويرقص الفؤاد طربًا وتختلج النفوس فرحًا؟!

(٢٤)

كيف تركتُه وذهبتُ؟! كان لا بُدّ من قتله حتى أستريح؛ فهو حشرة لا يستحق، لم أفعلها من أجل حسن، نعم.. إذا كنت فعلتها لكنت قتلته هو وليس جده، ولكن ماذا أفعل سوى أن أتراجع للخلف ألف خطوة من أجله هو، ولكن مَن الذي أوقفني؟ ما الذي جعلني أقف ولم أفعلها؟ صوتُ مَن الذي صرخ في أعماقي بأن أتوقّف عن فعلها؟ هل حسن أم صوت ضميري؟ يا ربي ماذا أفعل؟

كانت تتحدث هكذا وتغرق في البكاء، بينما وقف أستاذ أنور وضرب الحائط بيده قائلًا:

- لا أريد أن أقول أنكِ غبية، ولكن ما فعلتِه اليوم يجعل هذه الكلمة تلحق بكِ إلى الأبد.

قال رضوان وهو يجلس بجانب ليلى التي كانت تنتظر:

- كان لا بُدّ من قتله، نعم هذا ما كان يجب فعله، وإذا كان تحقق كان سيكون نصرًا عظيمًا لنا اليوم، ولكن للأسف ضاعت فرصة لن تأتي مرة أخرى.

- اتركوا فريدة وشأنها، هذا لا يستحق ما تفعلون.

- لا تتحدث مثلها وتجعلني أغضب منك؛ فهي مخطئة بما فعلته.

قالت فريدة مزمجرة:

- ماذا كنت تريد أن أفعل؟ هه؟ قُل لي هل أقتل وألوّث يدي بدمٍ رجس فاسد؟ فهو حقير لا يستحق ذلك، ثم هناك صوت صرخ في

أعماقـي لم أسـتطع أن أتجاهـل هـذا الصـوت وأقتلـه.

قال أستاذ أنور ساخرًا:

- صـوت! نعـم صوتـه؟ تعلمـين صـوت مَـن؟ كان صـوت حسـن، حسـن الـذي ذهـب ولـن يعـود لـكِ مـرة أخـرى، كل مـا قالـه في رسـالته وهـمٌ، لـن يـترك الحيـاة هنـاك ويـأتي لإنسـانة بائسـة مثلـك، فأنـت توقفـتِ اليـوم مـن أجلـه؛ لأنـك إذا فعلتِهـا فلـن تسـتطيعي أن تـرِي وجهـه مـرة أخـرى؛ فاليـوم جنيـتِ عـلى أهـل العزبـة بأكملهـم، ونحـن أوّلهـم.

قالت فريدة محذرة:

- أنـا لم أمتنـع عـن هـذا مـن أجـل حسـن، بـل مـن أجـل عـذاب ضمـيري، لمـاذا أتعـذب أنـا بقتـل شـخص؟! ثـم البـؤس الـذي تتحـدث عنـه هـو.. ليـس.. أنـا لسـتُ بائسـة، جميعنـا بائسـون حتـى... أنـت، نعـم أنـت إنسـان بائـس أيضًـا، وحسـن.. سـوف يعـود لي مـرة أخــ.. ر.. ى.

هرع صادق يسند فريدة قبل أن تسقط أرضًا قائلًا:

- يكفـي، سيُغشَـى عليهـا، عذبتَهـا بحديثـك؛ فهـو سـقيم لدرجـة تكـره النفـس، ثـم جميعنـا يُخطـئ، وإذا كنـت تريـد قتـل لملـوم تفضّـل هـذا سـلاحه، اذهـب وافعلهـا.

أخـرج صـادق السـلاح مـن جيبـه وألقـاه أسـفل قدمـه، بينـما قالـت فريـدة بصـوت ممـزوج بالبـكاء:

- لا لم يغشَى عليّ، لا تقلق يا أخي.

أشارت إلى أستاذ أنور قائلة:

- اعلـم يـا أسـتاذ أنـور إذا كان حسـن.. سـيقف يــ.. يومًـا في طريقـي ويجعلنـي أخالـف مبدأ مـن مبـادي أقسـم أننـي سـأقتله.

- كاذبة، نعم هذه هي الحقيقة.

هذا ما قاله أستاذ أنور؛ فوقف رضوان، بينما تشبّثَت فريدة بيد أخيها قائلة:

- لماذا تتهمني بالكذب؟

- أتهمك بالكذب لأنكِ حقًا كاذبة، تعلمين لماذا؟ لأنكِ لن تستطيعي أن تقتلي حسن، والصوت كان صوته؛ فأنت اليوم فعلتِ جريمة لن تُغفَر.

قالت فريدة صارخة:

- كنت سأفعل جريمة إذا قتلته، ثم لا أعلم الصوت كان صوته أم لا، ولكن أقسم أنني لن أستطيع فعلها، كيف أقتل نفسًا؟ أنا حقًا رأيت في وجه حسن الذي لم أرَه منذ سنوات وتوقفت عن قتله، لماذا؟ توقفتُ، قل لي أنتَ أمِن أجل مبادئي أم من أجل حسن؟ هذه قضية مطروحة لكم، قرروا ما تريدون، وأريدُك أن تعلم شيئًا واحدًا فقط، أنني سأقتل حسن إذا فعل شيئًا ضد أحد.

قال أستاذ أنور وهو يصفق:

- سنرى.. سنرى عن قريب أنكِ ستفعلين هذا أم يكون مجرد قول كي تبرّري عدم قتلك للملوم.

اتجه إلى الباب، وقبل أن يخرج نادت فريدة قائلة:

- تعلم يا أستاذ أنور أنني أؤمن بالأفعال لا الأقوال؛ فرجاء لا تتحدث في شيء ليس له قيمة.

نظر له نظرة عتاب وخرج، بينما جلس رضوان وأخرج المسدس من جيبه وكان يتفقده باهتمام، بينما جلس صادق وأسند رأسه للحائط

وغـرق في التفكـير، فقالـت فريـدة وهـي تجلـس:

- بربكـم مـا فعلتـه خطـأ أم صـواب، أنـا لا أعلـم شـيئًا، أشـعر أنـني في عـالم آخـر، أسـير في ضرب مـليءٌ بالضبـاب.

- أعلـم مـا حدث خطأ؛ فنحـن كنا نريد أن نقـضي عليه وننعم بـها أردناه، ولكـن أنتِ لم تسـتطيعي فعلـه من أجل مبادئك أم مـن أجل حـ..

قاطعته فريدة قائلة:

- لا تسـتكمل يـا رضـوان، لا تقُل مثلـما قال؛ فأنا سـئِمتُ الوضـع برمّته، أنتـم تظنـون أن مـوت لملـوم سـوف يحـل القضيـة وسـيُنهِي كل ما نحيـا فيه، لا.. بـل سـيخرج لملـوم ومـرزوق آخـرَان ويفعـلان أكثـر مـن ذلـك، القضية تكمـن فينـا نحـن مثلـما تكمـن فيهـم؛ لأننـا لا بُـدّ أن نعلم كيـف نحيـا ولماذا نحيـا؟ ولا نسـير عبثًـا ولا هبـاء، انظـر لـكل الأهـالي الذيـن سـلّمُوا أرضهم ببسـاطة ولم يبالـوا لأمـر أحـد، لماذا؟ لأننـا ضعفـاء وجبناء، ولكـي أريحكم.. إذا كان قتـلُ لملـوم هـو مـا يجعلنا نحيـا بحق فسـأفعلها.

نهض صـادق وهـو يطلب منهـا أن تسـتريح، ذهـب إلى منزله وهو شـارد الذهـن، بينـما هـرع رضـوان إلى غرفتـه، بينما هي جلسـت تتطلّـع إلى ليلى التي تشـبه الأطفـال؛ فكـم هـي محظوظـة! لا ترى مـن الحمق الـذي نحن فيـه، ولم تسـمع مـن الابتذال ما نسـمعه، غرقَت هي الأخـرى بدورها في النـوم؛ فالنوم أحيانـا كثـيرة يكـون علاجًـا للنسـيان، فاقَت على صـوت رضوان الـذي كان يـصرخ؛ فـكان صوتـه يـأتي من بعيـد وكأنـه في مـكان آخـر، كانت تظـن أنها تحلـم، ولكـن ليـلى كانـت تهزهـا بقـوة؛ فأفاقت مـن نومهـا مذعـورة؛ فرأت النـيران تشـتعل مـن حولهـا في أرجـاء المنـزل، أمسـكت ليـلى مـن ذراعهـا وهرعـت إلى الخـارج، مسـكت النـيران في خمارها؛ فسرعـان ما نزعتـه وألقَت

بـه أرضًا.

كان رضـوان يحـاول إطفـاء النـيران، ولكـن لم يفلـح في ذلـك؛ فخـرج يطمئـن عـلى عزيـزة وليـلى، بينـما تذكّـر بعـض الأمـوال التـي توجـد بالداخـل؛ فهـرع ليـأتي بهـا، فركضـت عزيـزة خلفـه وجذبتـه مـن يـده مبتعـدة عـن النـيران، كانـت تـضيء النـيران في ليـلٍ حوّلَتـه مـن سـواد تخشـاه النفـوس لنـورٍ سـاطع يـضيء، تحـوّل لونهـم إلى الأسـود مـن كثـرة الدخـان، وقـف رضـوان يتطلـع إلى المنـزل الـذي يشـتَعِل بـدون رحمـة بمـن في داخلـه، بينـما جلسَـت عزيـزة وليـلى أرضًـا، كانـت تنـدب عزيـزة حظهـا، أمسـكت فريـدة بيـد رضـوان قائلـة:

- هذا المنزل هو البداية فقط للملوم.

نظر رضوان بعين تمتلئ بالنعاس قائلًا:

- لا أعلم ما الذي قادم؟

- هـذه النـيران التـي كان يريـد أن يقتلنـا بهـا ستشـتعل بـه هـو، وهـو مـن سـيموت بهـا.

نهضت عزيزة وكانت تنتحب في البكاء قائلة:

- إلى متـى سـنظل هكـذا؟ إلى متـى؟ قـل لي يـا رضـوان إلى متـى؟ اليـوم انتهـى كل شيء، أنـت قلـت لي يومًـا أنـكَ تريـد أن تذهـب إلى الـلا مـكان، هيـا نذهـب ولـن نعـود إلى هنـا مـرة أخـرى.

نظـرت لهـا فريـدة، بينـما جلسـوا يتطلعـون إلى المنـزل الـذي يحـترق أمامهـم وهـم لم يسـتطيعوا فعـل شيء، كان الدخـان يتصاعـد إلى السـماء والجـو امتـلأ بالحـرارة؛ فـكان صـوت الصبـح قريبًـا، فنهضـت وهـي تنفـض عباءتهـا قائلـة:

- سنذهب إلى منزل جدتي حليمة، هو لنا الآن بدلًا من هذا.

أمسكت فريدة بليلى، بينما سار رضوان وهو متشبث بيد عزيزة، وصلوا إلى المنزل؛ فكانت العناكب تسكنه والفئران وكل حشرة وطير لم يجد له مكانًا في الخارج أتى وسكن داخل منزل الجدة حليمة، دخلت فريدة وهي تلمس قطع الأساس الذي تراكم عليه التراب وكانت تتذكر جدتها، فكان المنزل بسيطًا يتكون من ثلاث غرف، وهناك صالة واسعة سقفها ساقط؛ فكانت تظهر السماء المرصّعة بالنجوم، وهناك شجرة في منتصف الصالة تساقطَت أوراقها، هرعت فريدة لتسقي الشجرة لترجع تنبت مرة أخرى، وما أجمل الطيور التي كانت تقف على أغصانها، والسلم الخشبيّ الذي يرتمي على الحائط وكأنه لوحه فنية.

وقعت عين فريدة على الكنبة؛ فهرعت وهي تجلس عليها، وسرعان ما صدر صوت آهات عندما جلست؛ فنهضت قبل أن تسقط بها، فهي تعلم جيدًا أن هذه الكنبة منذ زمن، فجدتها ورثتها من أبيها، وأبوها ورثها من أبيه، وكانت أمها سترثها من جدتها؛ فهذه سوف تعطَى لأجيال متعاقبة وتحمّلَت كثيرًا، قامت عزيزة بتنظيف المنزل؛ فجلبَت فرعًا من الشجرة واستخدمَته في الكنس، بينما راح رضوان يلتفت يمينا ويسار، نهضَت فريدة تسقِي الشجرة التي عانت الظمأ لسنوات متتالية، ثم توجهت إلى الكنبة قائلة:

- لا أحد يجلس عليها رجاء؛ فهذه كانت لجدتي، لا أريد أن يصيب هذه الكنبة شيء.

نظر لها رضوان وهو يبتسم ابتسامة مصطنعة قائلًا:

- هي تحتاج للكثير من التصليحات، وأنا سأفعلها حتى لا تنكسر.

- تعلـم أنني كنـتُ حتـمًا سـوف آخذهـا مـن أمـي، نعـم كنـت سـأطالب بها هـي فقـط؛ فهـي تذكّـرني بالذيـن رحلـوا، أشـعر أنهـم مـا زالـوا جالسِـين عليهـا؛ فهـي تعنـي لي الكثـير.

سـمعت فريـدة صـوت صـادق الـذي يـأتي مـن الخـارج، فقفـز للداخـل وخلفـه الأسـتاذ أنـور؛ فـكان البـاب مفتوحًـا عـلى مصراعيـه، لم يغلقـوا لأنهـم كـسروه عنـد الفتـح، قـال صـادق وهـو يضـع يـده عـلى قلبـه؛ فـكان يتنهـد وكأنـه يركـض منـذ زمـن:

- ظننـت أنكـم مـا زلتـم بالداخـل؛ فكنـت أصرخ كالمجنـون، ولكـن مـن حسـن حظـي وجـدتُ مـن قـال لي هـم نجـوا ولا نعلـم إلى أيـن ذهبـوا؟ بحثـتُ عنكـم والحمـد لله، سـألتُ كثـيرًا إلى أن وصلـت، كنـت سـوف أصـاب بنوبـة قلبيـة.

قال أستاذ أنور وهو يفرك يده:

- أريتم ما فعله؟ فهو الآن يدقّ ناقوس الخطر.

- أقسـم لـك يـا أخـي أننـا نجَونـا بصعوبـة، إذا لم تَفِـق عزيـزة عـلى صـوت النـيران التـي كانـت تتسـلّل أقسـم لكُنّـا في خـبر كان.

- هـذه هـي البدايـة، هـو لـن يرحـم أحـدًا منـا، وهـو لـن ينتقـم منـا فقـط، بـل سـينتقم مـن جميـع أهـالي العزبـة كـي يقـضي عـلى الجميـع ويعلـن انتصـاره، أمثـال لملـوم لـن يستسـلم، بالإضافـة لذلـك سـيفعل أي شيء حتـى لا يقـول أحـدٌ في حقـه أنـه انهـزم عـلى أيدينـا.

لوّحَت فريدة بيدها قائلة:

- اتركوه يفعل ما بدا له.

- إذا لم تُنصـتِ إلى الصـوت لـكان لملـوم يُشـوى الآن في نـار جهنـم،

ولكـن للأسـف.
- اترك هذا الحديث الآن ليس منه فائدة، ثم هو فعل.
- أجننـتَ يـا رضـوان؟ كيـف ليـس منـه فائـدة؟ كل خطـر نحـن سـنتعرض لـه مـن اليـوم سـيكون بسـبب فريـدة، نعـم بسـببها؛ فهـي رفضَـت قتلـه.
نهضـت فريـدة وهرعَـت إلى الخـارج، وقفـت تنظـر إلى السـماء وكأنهـا تسـتغيث بهـا، فكـم كان الجـو لـه رائحـة طيبـة والنسـيم يلفـح الوجـه ويداعـب الـروح، خـرج صـادق خلفهـا وجدهـا معلّقـة بصرهـا في السـماء، فقـال بصـوت يحمـل النعـاس:
- لا تهتمين بقوله.
- لا يـا أخـي، هـو يريـد أن يثبـت للجميـع أنني المذنبـة الوحيـدة في مـا حـدث وكأننـي حرضـتُ لملـوم عـلى فعـل كل ذلـك.
- لا أعلم متى سينتهي كل هذا العذاب؟
- عـن قريـب، سـنضع نحـن النهايـة وسنسـطّر أقدارهـم ونقلّبهـم كـما كان يقلّبونـا.
- لا يا فريدة، لملوم لن يتوقف، هيا نرحل هذا ليس مكاننا.
- نذهـب ونـترك لـه كل شيء ولا نسـتطع أن نعـود لهـذه الأرض مـرة أخـرى؟! هـذا مسـتحيل، لـن أتـرك العزبـة ولـن أتـرك أهلهـا يتعذبـون في كل هـذا، عـلى قـدرِ مـا أخشـى السـاعات القادمـة يـا أخـي ولكـن لـديّ أمـل بـأن كل شيء سـيعود، ونحـن لـن نسـمح بـأي حركـة غـدر.
- مـاذا سـتفعلين؟ مـا كان يجـب فعلـه تركتِـه وذهبـتِ، ونحـن نلعـب لعبـة سـخيفة معـه.

- عن قريب سينتهي كل شيء، ولكن صبرًا.

- أين هذا القريب الذي تتحدثين عنه دائمًا؟ لماذا يرفض المجيء؟

ذهب صادق وتركها واقفة لم تتزحزح من مكانها، بينما خرج أستاذ أنور وتطلّع بها نظرة مليئة بالخوف من القادم؛ فعلمَت أن هذه النظرة ستظل عالقة في عينه؛ فهم يخشون الليل الذي يخبئ لهم الكثير من الخوف والحزن، ويتلهفون إلى الشمس التي تضيء على حياتهم وتمحي خوفً سكن قلوبهم.

***

تحتمـل النفـس الكثـير، وتسـير في أرض ليـس لهـا بدايـة مـن نهايـة، تبحـث هـذه النفـس عـن مـن يسـمع لهـا ولا تجـد، وكأن الأفـواه صمتـت فلـم تخـرج بكلمـة تُطِيـب نفسًـا مكتومـة تنـزف دمًـا، والأذن صمتَـت ترفـض السـمع كـي لا تسـمع مـا يكبّلهـا، وكأن القلـوب طـاغٍ عليهـا حجـرٌ يرفـض اللـين.

(٢٥)

مـر يومـان عـلى الحـادث بعـد الحريـق الـذي أخـذ منـزل رضـوان، كان صـادق يـتردّد عليهـم مرتـين يوميًّـا صباحًـا ومسـاءً ليطمئـن؛ فأصبحـوا الآن منتظريـن بترقُّـب بعدمـا فعـل للـوم فعلتـه وكل منهـم ينتظـر دوره في القتـال الـذي لا مفـر منـه، جلسـت فريـدة لتتنـاول طعـام غداءهـا، وجلـس بجانبهـا الجميـع؛ فقالـت وهـي تقضـم قطعـة الخبـز:

- أيـن الأسـتاذ أنـور لم أرَه منـذ يومـين؟ أظـن أنـه لم يأتِ بسـبب الخلاف الـذي بيننـا، فرجـاء قـل لـه يحضر إلى هنـا؛ فهذا ليـس مـن عادته.

غمز صادق قطعة الخبز في العسل، ثم قال:

- تحسـبين أننـي أراه؟ لا.. لم أرَه منـذ يومـين، أنـا تركتـه هنـا ورحلـت؛ فظننـتُ أنـه يـأتي في وقـت آخـر.

- في اليوم الذي كنتَ هنا هو لحق بكَ فورًا؛ فظننت أنكَ التقيتَ به.

- لم يلحـق بي، أنـا جلسـت في القهـوة سـاعتين متتاليـين ولم أرَه يمـر مـن أمامـي كعادتـه؛ فظننـتُ أنـه مـا زال داخـل المنـزل.

- كيف هذا؟

قال رضوان وهو يترك طعامه:

- الموضوع لا ينذر بالخير.

نهـض صـادق بـدوره وارتـدى رضـوان جلبابـه، وهرعـا إلى منـزل أسـتاذ أنـور، كانـت فريـدة قلقـة؛ فـكل هـذا بالتأكيـد شيء يخيـف، إلى أيـن سـيكون ذهـب؟ ليـس مـن عادتـه ألّا يحضر حتـى ولـو كان هنـاك خـلاف.

وصل رضوان وقرع الباب بشدة وكأنه يتوسل له أن يخرج، بينما وقف صادق يضحك على صاحبنا؛ فالخوف كاد يحوّله إلى فتاة، اقترح صادق أن يتسلّلَ من النافذة، هذا هو الحل المناسب؛ فقَرْعُ الباب ليس منه فائدة، من الممكن أن يكون جثة في الدخل، خاف رضوان من حديث صادق وراح يتصبّب عرقًا، فإذا كان قُتل هذا يعني أن الدور على أحد منهم ولا بُدّ من الانتظار، رفض رضوان فكرة صادق في بداية الأمر، وقرّر أن يجلس، من الممكن أن يكون في مكان ما، فرفض صادق حديثه وقرر أن يتسلّل من النافذة، هذه مهنته وكم اشتاق لذلك! هو يجد به لذة لا يعلم ما هي، أحيانا كثيرة الخطأ ينفع صاحبه عندما يقع في مأزق.

كانت النافذة مرتفعة لكن ليست بالكثير، قرر صادق أن يتسللها بمساعدة رضوان؛ فهو سوف يُشبّك له يده وهو يضع قدمه إلى أن يُمسِك في النافذة، ومن حسن حظه النافذة من زجاج ليس بها مقابض حديدية، سوف يدخل ولكن عندما يكسِر الزجاج، ولكنه سيُحشَر بالتأكيد، ولكنه سيحاول ألّا تُحشَر رأسه؛ فهي غير منضبطة تشبه تضاريس سلسلة جبال الهمالايا، شبَّك رضوان وصعد صادق في النافذة بعدما كسَر زجاجها، وأثناء ذلك أصيب أصبع الإبهام؛ فصرخ صادق من الألم؛ فهناك زجاجة استقرَّت داخل أصبعه، قفز للداخل وتلفّتَ في الغرفة، لم يجد شيئًا سوى بعض كتب متراكمة تشبه الجبال، فخرج من الغرفة، وجد طرقة صغيرة لا تتّسع لسير فردين، بل لفرد واحد فقط؛ فالمنزل يشبه الخندق، وجد حمّامًا في نهاية الطرقة وبجانبه أسطوانة وبعض أوانٍ معلقة في بداية الطرقة، هذا هو منزله، هرع صادق إلى الباب ولكن لم يستطيع فتحه؛ فعاد إلى الغرفة مرة أخرى يتفقدها، وجد بعض الطعام التي تخرج منه رائحة متعفنة،

ومن كان يراه يظنّ أنه محقق، بينما رضوان كان يلصق أذنه بالحائط ومنتظرًا صرخة تخرج من صادق وسيفهم، ولكن لم يسمع حتى نفَسًا، هل الآخر قُتل؟ كاد أن يصاب بالجنون؛ فلعن صادق في سره، وبحثَ حوله فوجد حجرًا كبيرًا فوضعه أسفل النافذة وصعد عليه، فكان الحجر يتأرجح أسفله؛ فحاول التشبث ولكن لم يستطع، صرخ قائلًا:

- هل وجدتَ جثته؟ قل لي، أقسمُ أني كدتُ أن أموت.

لم يُجِب صادق، بل ضحك واستكمل البحث؛ فلفت نظره كتاب فجلس يقلب صفحاته، بينما سقط رضوان وهو يلعن ويسب ويضرب كفًّا بكف، ألقى صادق الكتاب من يده بعدما أفزعته قطة، ووجد طاوله موضوع عليها بعض الكتب، فوضع الكتب أرضًا وجرها لأسفل النافذة وصعد عليها ثم قفز للخارج، هرع إلى المنزل دون أن يلتفت لرضوان؛ فقد كان أصبعه يؤلمه لدرجة أنه نسِي رضوان، راح رضوان يركض خلفه، وصل إلى المنزل وأسرعَت فريدة بإخراج شظايا الزجاج من إصبعه، قال صادق وهو يتألم:

- الغرفة خالية ليس بها جنس مخلوق.

قال رضوان وهو شارد:

- أيكون صحيحًا ما أفكر فيه؟

- وما الذي تفكر فيه؟

- قتله لملوم أو دفنه حيًّا مثلًا.

- لا تقل هذا.

- لا، لملوم فعلها في حرق منزلك يا رضوان.

- ومن الممكن أن يكون ذهب؛ لأنه يريد أن يعاقبني لا أكثر من ذلك.

- فكّـرِي بمنطـق يـا فريدة، أسـتاذ أنور لم يمُـت، هـو كان في منزله، وهذا دليـل عـلى الطعـام الذي وجدتُـه؛ فقد كان شـبه متعفن، هذا يعنـي أنه من يوم ونحـن لم نـرَه منـذ يومين، ونسـتطع أن نحـذف من اليومـين يومًا، وهـو اليوم الـذي كان فيـه ووجـد الطعـام، هـذا يعنـي أنـه متغيـب منـذ أربعـة وعشرين سـاعة لا أكثـر مـن ذلـك، ولكـن إلى أيـن ذهـب في الأربعة وعشرين سـاعة؟ مـن الممكـن أن يكون هنـا أو هنـاك، ونحن يجب علينـا البحث عنـه في أرجاء العزبـة، فـكل ما يعنـي لنـا الآن أين هو؟

- صـادق محق في حديثـه، لا بُـدّ مـن البحـث حتـى نسـتطيع أن نعـرف أيـن سـنبدأ بالبحـث، مـن الآن كل منـا يذهـب في اتجـاه.

قال رضوان معترضًا:

- لا، لـن نبحـث عنـه، هـذا سـوف يفتح علينـا أبـواب جهنم، ثـم المكان الـذي ذهـب إليه سـيعود، وصادق قـال إن كان هنـاك طعام شـبه متعفن، هذا يعني لسـاعات فقـط؛ فهو سـيأتي، ثم أسـنبحث في العزبـة بأكملها؟!

علمَـت فريـدة أنه محـق في حديثـه، سـوف ينتظرون لعلـه يأتي وينـزع هذا الخـوف مـن قلوبهم، إلى متى سـيظل القلـب خاضعًا لخـوفٍ من شـبحٍ يُدعَى الخـوف ينـزل في فنـدق القلب يدوسـه بقدمـه ويعبث بـه، ولكن هـذا الخوف أصبـح في حياتهـم كالليل الذي يبسـط أذرعه على الوجود بسـواده ووحشـته، التـي تهـز أوصـال النفـس وتجتاح بـه في عـالم الذكريـات الأليمة؛ فهـم خُلقُوا للخـوف والخـوف خلـق لهـم، وكأنهـما اثنـان اجتمعا في جسـد واحـد ليؤدي نفس الوظيفـة وهـي الهلـع، فكـم قلَبَتْهـم الحيـاة وسـخرَت منهـم، وكـم أسـقطَتْهم عـلى وجوههـم، ثم ركلتهم وهي لا تحسـب حسـابًا؛ فليس الحياة هـي مـا تـركل، بل مَـن يوجـد بالحيـاة هو الـذي يـركل ويصفع بـدون رحمة؛

فخُلِقَت الحياة ووُضِعَت بين أيدٍ من طين، ولكن هذه اليد استعصى عليه صنع الحياة؛ فصنَعَ الإنسان الحياة بقسوته، وها هي تنزل بقلوبنا جميعًا، فكم أمرضَت القسوة زهورًا ناضرة داخل بساتين متفتحة ذات رائحة طيبة وألوان زاهية، ها هم ينتظرون.

وضعت عزيزة أمامهم الطعام الذي لم يكتمل قائلة:

- هيا تفضلوا، ولا تجعلوا اليأس ينال منكم، الأيام القادمة ستكون بخير.

حملق بها رضوان، ثم ضرب كفًّا بكف وقال:

- سبحان مغير الأحوال!

احمرّ وجه عزيزة، وأسرعت قائلة:

- قريبًا سيزيد عددنا.

أزاحت عزيزة من على وجه فريدة الخوف، وفرحت بذلك فرحًا شديدًا، بينما ليلى طرِبَت بالخبر؛ فسيكون هناك من يداعبها، بينما لوّح رضوان بيده قائلًا:

- لا أعلم كيف هذا الكائن سيكون في هذه الحياة؟

نهض رضوان وصادق إلى القهوة؛ فالقادم سيكون خيرًا بعد خبر عزيزة، ولكن جميعهم يخشون القادم؛ فهو ينذر بالعاصفة التي ستقتلعهم من جذورهم، جلست فريدة على الكنبة التي صدر عنها صوت آهات، وتطلَّعَت في السماء وهي تبتسم ابتسامة مرتعشة مختلطة بالابتسام واليأس والأمل، تتفقَّد في النجوم لعلها تجد صورتها بين إحداهم، ترتسم ويظهر وجه الذي اشتاقت لرؤيته، وتسمع أنفاسه التي تختلط بالحنين، تتعمّق فيهم وكأنها تتوسل إلى السماء تنقلها إلى الغائب، وإلى القمر لملء الضوء قلوبهم، ويوصل أرواح بينهم مسافات شاسعة يقرّبها الحب، أخرجتها

عزيـزة مـن تفكيرهـا وهي تضـع بجانبهـا الشـاي قائلة:

- ما زال التفكير في أمر أستاذ أنور؟ أتتوقعين أنه قتل؟

ارتشفَت فريدة الشاي قائلة:

- إذا كان قـد قُتـل لكنـا علمنـا بالأمـر؛ فـما الـذي سـيدفع لملـوم أن يُخفِـي هـذا عنـا؟ ثـم هـو يفعـل ولا يهمـه شيء، أظـن أنـه قُتِـل.

- وأنـا أيضًـا أفكـر في هـذا الأمـر؛ لأن إذا كان قتـل لكنّـا رأينـا جثتـه هنـا أو هنـاك، اذهبـي إلى منـزل لملـوم كـي تستفسرِي عـن الأمـر وتعلمـي مـا الـذي يحـدث بالضبـط.

- إذا ذهبـت إلى هنـاك وهـو لم يكـن السـبب في اختفائـه أقسـم أنـه سـيجلبه مـن تحـت الأرض، ولـن يغفـر لنـا هـذا الاتهـام؛ فأنـتِ تعلمـين كيـف يتـصرف هـذا الوقـح.

صفـع البـاب بشـدة، وقفـز رضـوان وخلفـه صـادق وكأن هنـاك مـن يلحـق بهـما، وضـع رضـوان يـده عـلى صـدره، بينـما جلس صـادق يلهـث، انتفضَـت عزيـزة وفريـدة التـي سـقط الكـوب مـن يدهـا مـن شـدة الفـزع؛ فقـد ظنَّـت أنهـم جماعـة لملـوم، فقـال رضـوان وهـو يلهـث:

- أستاذ أنور...

لم يسـتطع اسـتكمال حديثـه؛ فـكان قلبـه يقـرع مثـل الطبـل، فسـمعت فريـدة وغـاص قلبهـا في قدمهـا؛ فتكفـل خيالهـا بصنـع الباقـي أو اسـتكمال الجملـة، قالـت بذعـر:

- قُتل ووجدتَ جثته؟ أين وجدته؟

قال صادق وهو يحرك سبابته بالنفي قائلًا:

- لا، لم يُقتــ.ل لم يقتـل، هـو كان داخـل المسجد، نعم دخلنـا نـؤدي

الصلاة، ووجدناه يخطب في الناس، وهذا ما جعلنا نأتي ولم نستكمل سماع الخطبة؛ فهو كان يدعو الناس لـترْكِ ما حدث وأن يضع أهالي عزبة الصخرة أيديهم بيد أهل الكاشف ويكونون أخوة، وينسَى كل فرد ما حدث، ويرضى أهالي عزبة الصخرة بما هم فيه؛ فهذا ليس بيد الملوم ولا بيدِ أحد إلا الله؛ فهذا قدرهم أن يكونوا فقراء.. أن يكونوا متشاركين مع غيرهم في أرضهم ويربطون بطونهم من الجوع، وأهالي الكاشف لم يسلبوا أحدًا، بل فعلوا هذا بجهدهم؛ فهي أرضهم وملك لهم ونحن ضيوف عندهم، هذا ما قاله.

قال رضوان وهو يجلس:

- وقال أيضًا إذا كنتُ أمتلك أرضًا لكنت أعطيتها لهم؛ لأننا نريد الحياة بسلام ومحبة.

- اللعنة! لا أصدق أذني، أقسم أنني لا أصدق ما تقولون، هل هذا صحيح أم أنني أتوهّم؟ هل هو حلم؟ أحدٌ منكم يجعلني أفيق من هذا الكابوس.

- أنتِ لا تحلمين يا فريدة، بل حقيقة، نعم.. نحن لم نصدق مثلك لدرجة أنني أخذتُ حذائي وركضتُ ولا أعلم لماذا أركض، شعرتُ أنه مرض معدٍ سوف أُصاب به إذا لم أرحل.

- لكن ما الذي جعله يقول هذا ويغيّر في حديثه؛ فقد كان يقول إن أهالي الكاشف أعداء لنا ولن نستسلم، وحان الآن أن يخرجوا من أرضنا؛ فهم ليسوا منا ونحن لسنا منهم، أين ذهب كل هذا أين؟

قالت عزيزة وهي شاردة:

- من الممكن أن يكون رأى ذلك هو الحل.. السلام والأخوّة.

- كلمات يا عزيزة.. كلمات، أتظنين أن لملوم يريد سلامًا وأخوّة، لا.. بل يريد خرابًا وعداوة، ثم ما الذي حدث لأستاذ أنور استحوذ عليه؟ أم بُدّل عقله بعقل من أهالي الكاشف؟!

- أتمنى ألّا يكون باع نفسه له.

- أمثاله لا يبيعون القضية بسهولة، وأنا لا أتوقع هذا منه، إذا ضعفتُ أنا من الممكن أن أبيع القضية وأصدّق ما فعلته، لكن لا أصدق ما فعله هو.

- هذا يعني أن اليومين أو اليوم الذي تغيّب فيهما كان في منزل لملوم يجرعه جرعة الغدر والخيانة.

- لا يا أخي، هناك شيء خطأ في الأمر.

قال صادق صارخًا:

- أنتِ تقولين هناك خطأ، ورضوان لا يثق في نفسه ويضع ثقته كاملة في هذا الذي يُدعى أستاذ أنور؛ فما الذي يجعلكما واثقَين به لهذه الدرجة؟

صمتوا وكانوا يفكرون فيما حدث، أهو وقف مع لملوم ضدهم؟ أم ما الذي يفعله؟! ليس هناك عاقل يقول ما قاله، وإلا إذا كان متعمّدًا لذلك، قرع الباب ودخل أستاذ أنور وهو يبتسم ابتسامة صفراء؛ فقالت فريدة متعجلة:

- أهلًا بك يا سيد أنور، لم نرَكَ منذ يومين، أين كنت؟ نحن قلقنا عليك.

- كنتُ مريضًا أعاني الحمى.

ضحكت فريدة قائلة:

- هـذا يعنـي أنـكَ كنـتَ تهـذي، أنـا لم أصـدّق أن مـا قُلتـه كان حقيقـة، بـل ناتـج عـن هذيـان شـديد، لكـن أيـن كنـت؟

- ماذا تقصدين بهذا الحديث؟ ثم أين سأكون؟ كنت في المنزل.

تنحنح صادق قائلًا:

- يـا سـيد أنـور، ألم تلحـظ أن هنـاك قِطًّـا دخـل مـن نافـذة غرفتـك؟ فهـي كُـسِرَت تقريبًـا، حتـى المنضـدة تحركـت مـن مكانهـا.

قال وهو يربت على كتف صادق:

- أعلـم بهـذا القـط وسـوف أصطـاده قريبًـا، لا تقلـق، وأريـدكَ أن تبحـث عنـه وتـأتي بـه مـن ذيلـه كـي يتعلـم درسًـا لا يُنسـى!

تغيرت ملامحه فجأة، ثم قال:

- هـذا داء بـكَ لـن يتغـير مهـما حـدث، لمـاذا تتسـلّل إلى النوافـذ؟ ألم تتُـب إلى الله وامتنعـتَ عـن ذلـك؟

أزاحت فريدة يده من كتف صادق قائلة:

- اترك هذا الآن، وقل لنا الخطبة، نريد سماعها.

- علمـتُ أن ذلـك سـيصل لـكِ، وبالتأكيـد لـن يحظَـى بإعجابـك؛ لأن بمنتهـى البسـاطة عكـس مـا تريديـن.

- لمَ لا أُعجَـب بـه؟! فهـو ممتـع، ألم يـدعُ إلى نسـيان مـا فعلـه معنـا الملوم؟ وقـدّر لنـا أن نكـون فقـراء ومحرومـين؟ فـلا بُـدّ مـن أن نـرضى، أليـس مـا نحـن فيـه بسـبب الملـوم وأهـالي الكاشـف؟!

قال منفعلًا:

- اليوم غير غد، نحن ندعو من أجل أن نحل الخلاف الذي بيننا.

- وأنت تظن بهذا تحل؟! بل تعقّد الأمور لدرجة لم أتوقعها منك، أنت

بفعلك هذا تقول لأهالي العزبة إنكم تحت رحمتهم، وأرجَعْتَ كل ما نحن فيه إلى القدر، أنتَ لا تعلم أن القدر يكتبه لنا يومًا بعد يوم، أم أصبحتَ لا ترى ولا تسمع؟ أنسيت أنه اعتدى على فصل المعرفة؟ فصلك الذي أسّستَه للمعرفة والعلم، وكان يُعتَبر مسجدًا كنا نتعبد فيه؛ فكان قِبلَة نهتدي به، ترشد شبابًا ضل الفقر طريقهم؛ فأنت اليوم تشاركه في هذا الاعتداء، نعم؛ فهو اعتدى على مكان يُذكَر فيه اسم الله، وها أنت تقلده وتحرّف الكلام عن موضعه.

- لم أحرّف أي شيء، بل فعلت ما أردته، ومن أراد منكم فليتبعني، ومن لم يُرِد فكل شخص حر يختار طريقه بالطريقة التي ترضيه.

- والذي اخترتَه أنت كان يرضيك؟ عجبتُ لك ما فعلته! لن يغفر.. لن يغفر لكَ؛ فاليوم تركتنا ووقفت مع من سيُقتَل على أيدينا؛ فهو وقح وجبان، وكل من يقف معه فهو مثله.

- ومن قال لكِ أنني وقفت معه؟

- لا أحتاج إلى من يقول لي حديثك، حديث للوم وليس حديثك أنت، كلامك يحمل نظريته ويحمل ازدراءه لنا.

- ولماذا لا يكون حديثي أنا، وأنا من أراد ذلك؟

- (كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهَّ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)، أليس هذا كان يومًا قولُك؟ وها أنت تفعلَ ما لا تقوله، فعلت العكس، اخرج يا أنور.

قال أستاذ أنور وهو مصدوم:

- أنور! لم تتفوهي به ولم ترفعي الألقاب يومًا.

- من يَنْسَى يُنسَى يا أنور، نعم اليوم رفعت لقبًا لم تستحقه، ونسيتُ أنكَ كنتَ يومًا معلمي.

***

«تتبـدل النفـوس بتبـدُّلِ عقـارب السـاعة وبحركـة الأرض ودورانهـا، لم تثبـت نفـس عـلى مـا قالتـه ولم يثبـت قلـب عـلى حبـه».

(٢٦)

كان الوضع يتقلب تدريجيًا ويزداد سوءًا وكأنه كرة داخل ملعب؛ فامتنعت فريدة عن الذهاب إلى الصخرة، وقَلّ حضور عدد التلاميذ، ولم يهتم أستاذ أنور بالوضع، بل ترك كل شيء من يده، وكان الطعام يشحّ تدريجيًا في العزبة بعد تقليع الثمار الذي حدث في الأرض؛ فلم يكن هناك عمل يجلبوا منه الطعام؛ فتردَّى الوضع على الكبير والصغير، مما دفع لسرقة المنازل، وازدادت حالة السرقة بطريقة ملحوظة في أرجاء العزبة، وعاد صادق لما كان عليه وهذا أقلق فريدة؛ فكانت تعلم جيدًا أن صادق يخرج يوميا ليطعم بيتَين.. أبوه وأمه وهي؛ فكانت تعلم أن الطعام الذي أمامها مسروق؛ فتمتنع عنه، ولكن الجوع قاتل يجعلها تأخذ لقمة أو اثنين وتكتفي بذلك، فكانت دائمًا في جدال مع صادق الذي يرى بأنه يفعل ذلك من أجل أن يحيا ويجد فرصة أخرى يكفّر عن ذنبه، ولكن هذا بعيد المنال؛ فأهالي الكاشف استحوذَت على العمل في الأرض، وهم يبحثون عن عمل في مكان آخر غير ما هم فيه، ماذا يفعل؟ قال رضوان وهو يمسك بكوب الشاي في يده:

- لم أجد سكرًا يكفي لصنع الشاي للجميع؛ فكلٌّ منكم سوف يأخذ شفطة واحدة لا أكثر.

راح يدور علي الجالسين، امتنعت فريدة على الرغم أنها تريد، بينما أخذت عزيزة رشفة صغيرة، وليلى تركته لصادق، هذا يعني أنه سيأخذ رشفتين، أعطاه رضوان الكوب، ثم قال:

- صادق معه حق يا فريدة، هو يسرق من أجل فرصة نجد بها خبزًا، وبعدما نجده بين أيدينا نكفّر عن ذنوبنا لعل الله يغفر لنا.

قالت فريدة بغيظ:

- اصمت؛ أنت لا تعلم شيئًا، كل ما تقوله هراء؛ فكيف تسرقون وترفعون شعار التوبة؟!

قال صادق وكأنه يدافع عن نفسه:

- منذ ما حدث أصبح للوم يقظًا لكل شيء، والعمل شَحَّ لدرجة لا تُطاق، كنا نعمل في الحقول، ولكن انظري.. أهل الكاشف هم اليوم من يعمل في كل شيء، وليس مسموحًا لنا أن نضع أقدامنا في شبر من الأرض؛ فنحن في وقت مجاعة ماذا نفعل؟ كي نحيا سوى بالسرقة؟! نعم.. فنحن نسرق من أجل الحياة، من أجل توفير فرصة أخرى لنا، نستطيع أن نتوب إلى الله ونطلب المغفرة، ولكن إذا لم نسرق لم نفعل شيئًا سوى اليأس واتهام الله اتهامًا باطلًا.

- لكل شخص منه منطقه الخاص عند الخطأ، يظهره ويظهر الحجج والبراهين، ولكن منطق سخيف بُنِيَ على سفاسف الأمور وعلى غرضٍ ليس نبيلًا.

قالت عزيزة وهي تتنهد بعمق:

- نرحل، نعم الرحيل هو الحل، أرض الله واسعة، نذهب إلى أي مكان لنجد الراحة، وننام على الأقل بسلام، يكفي أننا عندما ننام ننهض ألف مرة كي نطمئن أن ليس هناك أحد يراقبنا أو يفعل شيئًا ما، هم قادرون ولكن نحن ليس بأيدينا شيء سوى أن نجلس خائفين؛ فنحن نريد الحياة، والله لم نولد حتى كي نحيا.

تركت فريدة الغرفة وخرجت؛ فالجميع ينوي على الرحيل من العزبة، إلا هي تتمسك بخيط داب منذ زمن؛ فعزيزة تريد الرحيل خوفًا على زوجها وابنها الذي لم يولد بعد، فمن الذي يتحمل العذاب ويظل يتجرع منه يومًا بعد يوم؛ فهم لا يرون ضوء الشمس ولا يرون النجوم المرصعة في السماء، ولا يرون اتجاهًا ليسيروا فيه؛ فهم مثل الذي تاه في أرض ليست لها معالم ولا حدود؛ فعالمهم مظلم ظلامًا حالقًا، قالت فريدة وهي تزيل دمعة سقطت منها:

- أين السلاح يا رضوان؟

قال رضوان متعجّبًا:

- السلاح معي، ولكن لماذا؟

- سنقتل به لملوم، نعم.. كنت مخطئة في اليوم الذي تركتُه، وما نحن فيه هو الذي جعلني أفكر بطريقة القتل؛ فالوضع يزداد سوءًا ونحن لا نفعل شيئًا سوى أن نسرق ونريد الرحيل من أرضنا.

- ورب الكعبة كنت أعلم أنكِ ستفعلين هذا يومًا ما، ولكن متى بالضبط؟

- اليوم.

- اليوم؟!

- فجرًا، سنخرج وننتظر لملوم؛ فهو يعود كل يوم تقريبًا فجرًا.

- نعم يعود فجرًا؛ فهو يعربد هو ومرزوق في منزلٍ بالقرب من منزله.

- إذًا سنستغل هذه الفرصة ونفعلها، ثم نأخذه وندفنه وسيكون نسيًا منسيًّا.

- وهل تظنين أن مرزوق سيصمت على هذا؟

- لا تقلـق بشـأن مـرزوق، ثـم نحـن نقطـع الـرأس والذيـل، سـيموت حتـمًا دون فعـل شيء.

- من الذي سيفعلها؟

قال رضوان متحمّسًا:

- أنا، أنا من سيفعل ذلك، نعم كنت أتحمس لهذا من قبل.

- اتفقنـا، سـأكون أنـا وصـادق ننتظـر بالقـرب منـكَ حتـى تفعـل هـذا، ورجـاء يـا رضـوان لا تخـبر أي أحـد بذلـك، حتـى ولـو كانـت عزيـزة، لا أريـد أن يعلـم أي أحـد.

- لن يعلم أي أحد، أقسم أنني أنتظر على أحر من الجمر.

قـرع البـاب بشـدة؛ فنهـض الثلاثـة مذعوريـن مـن أماكنهـم، فسـمعَت فريـدة صـوت أسـتاذ أنـور هـو الـذي في الخـارج؛ فقالـت بصـوت هامـس:

- لا أريد أن يخرج ما قلتُه.

تظاهـرَت بالبحـث عـن كتـاب؛ فدخـل الأسـتاذ أنـور، ووقـف عـلى البـاب قائـلًا:

- لماذا لا تأتي يا رضوان مثلما كنتَ تأتي.

قال رضوان وهو يهرش خلف أذنه قائلًا:

- أنت تعلم يا سيد أنور بالأمر.

- أمر حقير.

التفتَت فريدة إليه قائلة:

- أنـت أدرَى بالأمـور، لكـن سـمعتُ أن خطبَـك زادت هـذه الأيـام، ولكـن لم نـرَ مـا تقولـه، أيـن التسـامح والأخـوّة؟ وأيـن الحيـاة؟ في الحقيقـة نـرى الجـوع.. نـرى اسـتحواذًا عـلى الأرض ومنـعَ الباقـين مـن العمـل،

حتى الجوع انتشر، ألم تلاحظ ذلك؟

قال أستاذ أنور وهو يأخذ الكتاب من يدها:

- أقول والناس لا تفعل.

- نعم تقول ولا تفعل، أعرف جيدًا بمبادئك يا أنور.

فعادت تقول بعدما نظر له الجميع نظرة عتاب:

- نسيت، نعم كما قلتُ لك مرة إنني أنسَى من يُنسَى، ماذا أفعل؟ آسفة يا...

أوقفها أستاذ أنور قائلًا:

- ليس هناك داعٍ؛ فمن المستحسن أن أرحل.

فهي رفعت لقبًا لم يلِق به، يكفي ما فعله وما قاله؛ فهي ذاقت من هذا كثيرًا، خرج أستاذ أنور وخرج خلفه رضوان ليعتذر نيابة عنها؛ فقال صادق مفكرًا:

- لماذا لم تقولي شيئًا لسيد أنور؟

هزت رأسها قائلة:

- لا يجب أن يعلم بشيء؛ فأنت لا تفهم، هذا ليس أستاذ أنور، بل للوم.. عقله عقل للوم حتى حديثة؛ فاليوم ستضع الحرب أوزارها ونتخلص من جاثوم للوم؛ فكدنا أن ندفن أنفسَنا أحياء.

وضع صادق يده في جيبه، وتطلّع من النافذة التي كانت تعشّش بها العصافير قائلًا:

- هو يمرح ويعربد ولا يعلم أن بعد ساعات قليلة سيكون في أحضان التراب.

غفل رضوان، بينما نام صادق وهو لا يشعر بنفسه، بينما جلست

فريدة تفكر والخوف كان رفيقها؛ فلابد من فعلها حتى ولو لم تكن سترى ما تتمنَّى رؤيته، فعندما تقف أمامه ستقول له أنها فعلت ذلك من أجله وأجلها، ولكن هو لن يفهم، سيضع اللوم والعتاب عليها، بل من المحتمل أن يقتلها، طردَت كل هذا من عقلها وذهبَت إلى صادق كي يستيقظ، بينما رأَت رضوان يسير على أطراف أصابعه حتى لا تعلم عزيزة بالأمر، فقال رضوان وهو يتثاءَب:

- أرجو أن تكوني جاهزة بكوب شاي حتى أصوّب في الاتجاه الصحيح.

ضرب صادق جبينه بيده قائلًا:

- وليس لدينا شاي ولا قهوة، هذا يعني أننا سنفشل في الأمر، ضمنّا ذلك.

وضعت فريدة شالها، بينما سار رضوان وصادق بجانبها، كان الخوف رابعهم، فهم يتظاهرون بعدم الخوف، ولكن كل منهم يخشى الفشل وإلّا سيكونون في خبر كان؛ فلملوم لا يرحم إذا أخذ منه أحد شيئًا، ما بالك بحياته!

كان الفجر يبسط يده إليهم، وصل الثلاثة لمنزل مرزوق ووقفَت فريدة خلف شجرة، بينما كان هناك منزل يتكوّن من غرفتين يخرج منه أصوات مختلطة؛ فهم حتمًا هنا، مرَّت نصف ساعة وهم ما زالوا واقفين، سئم صادق من هذا الوضع؛ فهو يفكر يقتحم المنزل ويقتل الجميع ويتخلص منهم، خرج لملوم وهو يرتدي عباءته ويلتفّ بشالٍ أبيض؛ فسار ثلاثتهم خلفه، فلم يستطيعوا ملاحقته؛ لأنه كان سريعًا لدرجة لا تُصدَّق، خرج من العزبة وتوجه إلى الصخرة، تعجب الثلاثة من هذا.. كيف يخرج ويذهب إلى الصخرة؟ لماذا ومنزله ليس بعيدًا؟ بل قريب من مرزوق، كل

ما يفصلهم هو شارع، توقف رضوان وأراد العودة إلى المنزل؛ فهناك شيء خطأ، ولكن أصرَّت فريدة على أن تستكمل في السير، فكل ما بينهم خطوة وسينتهي كل العذاب، سارت فريدة تهرع خلفه وخلفها صادق، بينما توقف رضوان وأخرج السلاح من جيبه، وطاخ كانت الرصاصة مستقرة في ظهر الرجل، صرخت فريدة وتوقَّفَت، بينما هرع صادق إلى لملوم، قالت فريدة وهي تضرب على فخذه:

- لماذا فعلت ذلك؟ ألم أقُل لكَ تنتظر؟

خرجت من صادق شهقة قوية؛ فحملق في وجه الرجل، وقال وهو يكشف وجهه:

- ليس هو، ليس لملوم، بل شخص آخر.

اقتربت فريدة من الرجل وتفرّسَت فيه قائلة:

- أعلم مَن هو، إنه بهاء، هذا اسمه على ما أظن، أتذكَّر هذا الوجه جيدًا، وهذا الشعر الذي في مفترق رأسه، نعم.. هذا مَن أخذ منزل جدتي حليمة من خمس سنوات، ولكن أين لملوم أين هو؟ ولماذا وضع هذا مكانه؟ لا أفهم شيئًا، كاد عقلي أن يقف عن التفكير.

ضرب رضوان كفًّا بكف قائلًا:

- سوف نموت، سوف نموت اليوم، لا بل الآن في هذه اللحظة بالتأكيد، ماذا نفعل؟ ماذا؟

نهض صادق وحفر في الأرض بقوة؛ فقال وهو يحفر:

- هيا احفروا معي، لا بُدّ من أن نُخفِي جثة هذا الرجل قبل أن يعلم بالأمر.

ألقَت فريدة بشالها وراحت تحفر، بينما أزال رضوان عرقه بكُمّ

جلبابه، وجلس يحفر بقوة، كانت الحفرة جاهزة لتبتلع خمسة رجال بداخلها، وضعوا الرجل بها وردموا الحفرة مرة أخرى، وحفر رضوان حفرة صغيرة وألقى بها السلاح وردم الحفرة الصغيرة بقدمه، كان على وشك البكاء وهو يقول:

- لملوم حي يرزق، نحن قتلنا الشخص الخطأ، كيف فعلنا ذلك؟

قالت فريدة وهي تزدرد ريقها:

- أظن لملوم علم بالأمر.

قال صادق وهو يمسك برأسه:

- إذا كان ما تقولين صحيحًا فسيكون اليوم هو آخر يوم في عمرنا جميعًا، لكن من أين علم بالأمر؟ وكيف؟ ولماذا يكون رجلًا مثل هذا هنا بدلًا منه؟!

هرعوا إلى المنزل قبل أن يفضحهم نور الشمس، سرعان ما ألقى رضوان بنفسه أرضًا، بينما جلس صادق وهو يلهث وكأنه عائد من حرب، فاقت عزيزة وهي تفرك في عينيها، رأت رضوان الذي يملأ التراب وجهه وملابسه، فكان الثلاثة على نفس الحال، وفريدة سعلت سعالًا شديد؛ فقد ملأ التراب صدرها، فقالت وهي تشهق:

- أين كنتم؟ وما هذا التراب؟

أمسكها رضوان من يدها، وأجلسها قائلًا:

- نحن كنا نفعلُ شيئًا ما.

- وما هو هذا الشيء؟ فأنتم مثل الذي كان يحارب.

قالت فريدة وهي تلوّح بيدها:

- ليس هناك داعٍ لكل هذه الأسئلة.

- بـل هنـاك داعٍ؛ فأحـد منكـم يقـول لي أيـن كنتـم؟ ومـاذا فعلتـم؟ وإلا عرفـتُ بطريقتي.

قال رضوان وهو يشدّ على أصابع يده:

- نحـن حاولنـا قتـل لملـوم، ولكـن فشـلنا فقتلنـا غـيره، هـل اطمـأنّ قلبـك الآن؟

لطمت عزيزة خدها وهي تقول:

- آه يـا ربي! بهـذه البسـاطة تتحـدث؟ مـا الـذي أصابكـم؟ هـل الجنـون كـي تفعلـوا فعلـة مثـل هـذه؟ ثـم كـان لملـوم أمامهـا وهـي لم تسـتطع فعلها، لا بُـدّ مـن أن نرحـل، مـع أوّل رِجْـلٍ تـدب في الأرض فسـتكون نهايتنـا.

تركتهـا فريـدة ونهضَـت، بينـما ارتمـى صـادق عـلى الكنبـة وهـو يئِـنّ؛ فهـم يعلمـون أن موعدهـم الصبـح، وهـا هـو قريـب مـن أنفسـهم والمـوت يحلّـق حـول كل منهـم.

***

"القسوة تجعل أرواحًا تفنى وهي ليست قابلة للفناء"

(٢٧)

مـرت حـوالي سـبع سـاعات وهــم نائمــون، فـاق رضـوان عـلى صـوت زوجـة عزيـزة وهـي تنـادي يصوت مرتفـع ليتنـاول غـداءه؛ فنهضـت فريدة عـلى صوتهـا، ونهـض رضـوان، ورفض صـادق الطعـام؛ فهو بحاجة شـديدة للنوم الهادئ ولسـبع سـاعات أخرى، جلس رضوان وجلسـت فريـدة أمامه، بينـما على جانبهـا الأيمن جلسـت عزيزة التي كانـت تتطلّع إلى فريـدة نظرات مليئـة بالغيـظ وتحمّلهـا أي أذي يصيـب رضـوان؛ فهـي سـتكون السبب في ذلـك، تجاهلـت فريدة نظـرات عينَيهـا التي تقـذف بالكثير من الإهانـة والذل المختلـط بالخـوف، فهي خائفـة وتترقب، تعلم جيـدًا أن اليوم الخراب سـيدقّ فـوق رؤوسِـهم إذا علـم لملـوم بما حـدث، وهي على يقـين أن لملـوم يعلم بكل شيء ويتظاهـر بعكـس ذلك، ولكن سـيعلمون مـع أول رصاصة تخترق صدر أحدهـم، ومـع أول صفعـة تنزل عـلى وجوههم.

نظـرت بجانـب الشـجرة فوجدت قطـة تنظر لهـا وتحملق؛ فهرولـت إليها وألقـت لهـا قطعـة الخبز التـي بيدهـا؛ فالقِطَّة تحتـاج للطعام، وها هي تشـتكي الجـوع مثلما يشـتكون، جذبَت خمارها الـورديّ الذي وُضِع على وجـهٍ ذبُلَ من كثـرة الصعـاب، وهرولَت إلى الصخـرة تصب همومهـا وأحزانهـا؛ فالصخرة تشـعر عليهـا بـكل شيء حتـى تشـاركها أحزانهـا؛ فالاثنـان مخلوقـان من عند الله، حقًّـا.. الصخـرة مـن يراها يظُـنّ أنها لا يوجـد لها عقل ولا قلـب، ولكن لهـا قلـب صخـري وعقـل مثلـما لنـا؛ فهي تـرى ذلـك منـذ صغرهـا، بحثَت كثـيرًا عـن قلبٍ يحمـل لها حبًّـا عميقًـا ودفينًـا، حنان ورحمـة لم ينقطعـا، حتى

ولـو دُفِنَـت قلوبهـم تحت الـتراب لـن تجـد، وفي الوقت التـي وُجِـدَت أصبح تحـت الـتراب، قلـبٌ اشـتاقت لـه وحضـنٌ تريـد أن ترتمـي بـه كما كانـت، يا ليـت المـاضي يعـود؛ فهـو زائـر يهـب بعصفـة الذكريـات الأليمـة والجميلـة، يلملـم العقـل الجميل ويتذكّـره، ويلملم القلـب الأليم ويبكـي، ولكن تختلط بالدمـوع ابتسـامة شـاكرة لمـا كان يومًـا حـاضرًا، ابتسـامة تتمنّـى عودتهـا من لعنـة في وقـت حدوثهـا، هكـذا يظـل زائـر المـاضي يحلّق فـوق رؤوسـنا حتى تتلاشـى صورتـه مـن عقـلٍ أصابـه الكـبر، واشـتعل الـرأس شـيبًا، ووهـن قلـب لا يتذكـر سـوى بصيص من المـاضي يهبُّ في نفـوس ولا يحركهـا وكأنه خشـب مسندة.

ارتمـت أسـفل الصخـرة وتطلّعَت في السماء التي تفترش بأشـعة الشـمس الذهبيـة، ونزعـت خمارهـا؛ فتطايـر شـعرها البنيّ الـذي يلتمع ويزيـد جماله، فقـوَّرَت الخـمار ووضعتـه أسـفل رأسـها وغفلـت في النـوم، شـمَّت رائحـة طيبـة ليسـت غريبـة عليهـا، شـعرت أن هنـاك أنفاسًـا قريبـة منهـا، وكأن هـذه الأنفـاس توقظهـا مـن نومهـا لعـالم هـادئ يمتلـئ بصخب لا تسـمع له صوتًـا يمتلـئ بحنـان يُبَـثّ داخل الفـؤاد، فتحـت عينَيهـا فـرأت وجهًا ليس غريبًـا عليهـا، تعلمـه جيـدًا ولكـن تشـعر أن به شـيئًا غريبًـا، فركـت عينَيها؛ فصمتـت وسـقطت دمعـة تختلـط بابتسـامة تمتلئ بالغبطـة والسرور، نهضَت وهـي تتحسّـس وجههـا وتتمتـم باسـمه، وتتلعثـم وكأنهـا طفل يتعلـم كيف يتحد ث :

- حـ.. سـ..

ظلـت هكـذا إلى أن جذبهـا حسـن وألقـى بنفسـه في أحضانهـا وهـو يبكـي مثـل الطفـل الـذي بحـث كثـيرًا عـن أمـه، وهـا هـو وجدهـا، نظـر

لها وكأن خلف نظرته الكثير، ولكن لن يبوح بهذا الكثير الآن، جلست وتحسست مرة أخرى وجهه الذي نمت به لحية كثيفة، ولكن ما زالت البراءة توجد في عينه والوداعة تملأ نفسه، اليوم سوف تعاتبه على تأخيره الذي ذاقَت المُرّ من أجله، قالت وهي تزيل دموعها:

- اشتقتُ لكَ كثيرًا، بل أكثر من الكثير، لماذا تأخرت عليّ؟ لماذا أرسلت لي مؤخرًا؟ وتركتني دون أن آتي حتى على ذاكرتك؟ هل لم تشتَق لي يومًا؟ تركتني ورحلت دون سؤال، تعلم أن لم يمر يومٌ وإلا ذكرتك، قلبي كان معك وعقلي أيضًا، بل روحي وجسدي هو ما بقي هنا.

ابتسم ابتسامة خفيفة، ثم قال:

- أنا حقًّا محظوظ بهذا الاشتياق الذي أكثر من الكثير، وأنا أيضًا اشتقتُ لكِ، لم تمر لحظة دون أن أذكرك وأتمنى أن ألتقي بكِ، سعدتُ كثيرًا عندما وجدتُ جيه في طريقي؛ فعلمت أنه سيكون وصلة بيني وبينك، أول رساله وصلت لي، وعندما أرسلتُ لكِ لم تجيبي، خشيت أن يكون هناك شيء ما؛ فلم أعلم ماذا أفعل؟ أنهيتُ كل ما خلفي هناك وأتيتُ كي أطمئن عليكِ، وأبوح لكِ بشيء ما، ولكن ليس الآن، أريد أن أؤجله قليلًا.

نظرَت فريدة بنظرة تمتلئ بالبراء والسعادة التي ارتسمَت اليوم على وجهها؛ فلم تبتسم منذ رحيله إلا ابتسامات مزيفة مصطنعة، قالت:

- كل ما ستقوله لي خيرٌ، نعم أعلم ذلك؛ فأنت سوف تداوي كل ألم أصاب روحي، انتظرتُكَ كثيرًا من أجل هذا، وأتمنى أن تكون الدواء لدائي هذا.

قال وكأنه تذكر:

- هل العلاقة مع جدي تحسّنَت أم مثل ما هي؟

- مـاذا؟ أنـت تريدها تتحسـن أم تبقى مثل مـا هي؟ في الحقيقـة أنا وجدُّك مثـل المـاء والزيـت لـن نختلـط قـط، هو فعـل الكثـير يا حسـن، الكثـير فعله بي، أنـا الآن شريدة بسـببه في منـزل جدتي، كنت في منزل رضـوان ولكن حرقه جـدُّك، تعلـم لمـاذا أنـا شريـدة؟ هـو كان يريـد أن يجعلنـي أتزوج بحـارس.. بفـردٍ مـن أهل الكاشـف، أظـن تعلم بـه، ولكن رفضـت، وحمـدتُ الله كثيرا أننـي لم أتفـوَّه بكلمـة، وإلا إذا كنـتُ فعلتهـا لكنـت في خـبر كان، نعـم كنت سـأذكر لـه حبي لـك وحبـك لي كي يتركنـي، هذا مـا ظننته للحظـة، ولكن لم أنبـس وخرجـت، وها أنـا إلى الآن شريدة ذليلـة، لم أسـتطع أن أخلف بعهدي لـك مهـما حـدث، ويومٌ ما سـوف يـزول كل هـذا، أريـد أن أصنع بـين معلّق بـين السـماء والأرض أجلـس بـه أنـا وأنـت، نعم.. ويـأتي به مـن يريـد الحياة بطريقـة مختلفـة بطريقـة صحيحة غير هذه، سـئمتُ الحياة، تمنيـتُ الموت كثيرًا وكل يـوم أشـعر أنه قريـب، قريب جـدًا لدرجـة لا أتخيلها؛ فالموت سـيفصل بيننـا يـوم مـا، وإذا لم يكـن الموت فسـتكون الحياة التـي نوجد بها؛ فهـي تقذفنا كل يـوم بأبشـع المقذوفـات، ونحـن نتلقاه ونصمـت، هل نثور عـلى الطبيعة؟ عـلى الحيـاة؟ بالطبـع لا، وإذا لم تتحسـن علاقتي بجَـدِّك، وأنا أعلـم جيدًا أنها لـن تتحسـن؛ لأن من المسـتحيل أن أسـامحه وأنسـى كل ما فعله جـدك، بمثابة طريقـة مسـدود لي لم أسـتطع الخـروج ولـن أسـتطيع مهـما فعل؛ فهـو يفعل ما لا يـرضي ربًّـا ولا عبدًا.

شد على أصابع يدها قائلًا:

- تعلمـين أننـي كنـت أظـن غـير ذلـك، ولكـن مـن الواضـح أن هـذه العلاقـة طريـق مسـدود كـما قُلـتِ، أنـتِ تألمـتِ كثـيرًا بسـببه، لا أريـد أن

تشعري حتى بالخوف؛ فأنا أخشى عليكِ كل شيء من حولي، ولكن ماذا أفعل؟ لن أستطيع بناء هذا المنزل الذي بين السماء والأرض؛ فحتى لو بنيناه سوف نسقط في الحضيض، نعم لن تسمح لنا الطبيعة، حتى البشر أنفسهم لن يسمحوا لنا بفعل ما يخالف عقولهم، نحن مقيدون من كل شيء حولنا، ثم جدِّي سيأتي له يوم ويفيق، وإذا أردتِ لأن أقول له إنكَ مخطئ فسوف أفعلها، لكن كل ما في الأمر أنني أحترم هذا الرجل لا أكثر.

لوّحَت فريدة بيدها قائلة:

- جدك لا يستحق شيئًا، حتى احترام حشرة له لا يستحقه.

لمحت فريدة عزيزة التي تأتي مهرولة؛ فنهضت مسرعة إليها، بينما وقف حسن يتأمل فريدة بنظرة تحتضنها وتحتضن وجودها، يريد أن يجذبها ويرحل لعالم حلمَت به يومًا ما، يريد أن يبني لها هذا المنزل الذي تتمناه، يفعل كل شيء من أجلها؛ فهو يحبها حبًّا يعجز العقل عن وصفه، ولكن هذا الحب تفرض عليه سلطة قيود وكأنه على مسرح خشبيّ غير مسموح له بمخالفة النص، وإلا إذا فعلها فسوف يُضحك الجمهور أو يفتر، ولكن هذا لا يُدِيم الحب، لم تُفرَض عليه قيود ولا سلطة؛ فهو ينطلق في كل مكان وزمان غير مسموح بتقييده مثل الحرية؛ فالاثنان واحد، يريدان الركض في أرض ليس لها نقطة بداية من نهاية، لا يوضَع لهما حواجز ولا توضَع لهما صخور تعرقل طريقهما وتفرض عليهما السقوط، بل يركضان متشبثي الأيدي، لا تفلت ولا تجد من يجذبها، بل يركضان بسلام ويسعيان إلى عالم يمتلئ بوجه، يرتسم الحب على وجنتهما؛ فالحب دواء يصرف الحياة ويجعلها تسلك طرقًا عديدة؛ فهذه الكلمة ليست هزلية، وليست سفاسف

تسخر من قلوب لم تستطِع أن تُعطِي، بل الحب هو من أعطى معنًى للوجود، هو من جعل الإنسان إنسانًا، وهو من جعل الحياة تبدو بصورة وردية في عيوننا، وجعل القلوب تطرب فرحًا بلقاءٍ غاب طويلًا؛ فهذه الكلمة كُتِبَت كثيرًا حتى جف الحبر، وسيُكتب الكثير عنها، ولن يكتفي أحد بما يكتب، وكل مَن يكتب له نظرة تختلف عن الآخر في الحب، منهم من يُلحِق بالحب الزوال ويجعله خاضعًا لشيء لا تتقبّله حتى العقول، فالحب كلمة فعلية مجردة من أقوال ينطق بها اللسان، بل هذه الكلمة بالأخص هو ما يعجز عنها اللسان في نطقها؛ فهي فعل لمن يحب ولمن أحبَبَت، وليست صورة فتاة جميلة رأته عيناه فوقعت في حبه، لا.. بل هذا ليس حبًا، بل حب أجساد فانية هالكة تحت التراب، ولكن الحب الحق هو تعلُّق روح بروح، هو الكثير الذي أعجز عن وصفه مهما حاولتُ التدوين، ومهما حاولت أن أمسِك رأسي كي آتي بالكثير لن أستطيع؛ فهو كما قلت كلمة فعلية يصعب على اللسان نطقها، ويعجز القلب على حملها بين ثناياه، وها نحن نرى.. زالت الكلمة من كثرة ما قيل، نعم هناك الكثير قال به كلمات ليس لها معنى، فاترة خالية من تصريف الحياة، خالية من كلمة فعلية تحملها أرواح طاهرة، وسيجف الحبر، وهذه الكلمة ستجف معه؛ فنحن أصبحنا ننظر من ثقب ضيق لا يجعلنا نرى شيئًا، ولا نسمع سوى حسيس من عالم آخر يُدعَى الحب الفعلي لروحٍ خُلِقَت وحيَت بالحب.

تشنّجَت عزيزة وهي تمسك بيد فريدة التي كانت مثل الثلج من الخوف والهلع الذي أصابها، علمَت منها أنها لم تجد رضوان؛ فهو خرج خلفها فورًا ولم تجد له أثرًا، حاولت أن تُفهمها فريدة بأن هذا

خوف زائد بسبب ما حدث لا أكثر، لكن هي أصرَّت على أنها متأكدة من حديثها؛ فهو كان ذاهبًا لقضاء حاجة ويعود سريعًا.

ذهبَت معها فريدة بعدما تطلّعَت إلى حسن الذي يقف بجانب الصخرة ويحملق بهما، فإذا علم هو الآخر فلن يرحمه؛ فهي كانت تنوي قتل جده، اتّفقَت فريدة على أن تبحث في طريقها وهي ذاهبة إلى منزل أبيه لعله يكون هناك، هرعَت عزيزة دون أن تنتظر استكمال حديثها، كانت تدعو الله أن تجده، قفزت للداخل دون أن تطرق الباب؛ فقد كان مفتوحًا على مصراعيه، التفتَت يمينًا ويسارًا وكأنها فاقدة شيء ما؛ فوجدت أباه ينزوي في ركن يصنع شايًا، بينما أمه جالسة تخيط بعض ملابس مهترأة، فقالت عزيزة وهي تبكي بحرقة:

- هل أتى رضوان إلى هنا؟

نهضَت أمه وهي تتفرس في وجهها قائلة:

- من أنتِ؟ ولماذا تسألين عن هذا الخسيس؟

- أنا زوجته، لم أجده، ابحثوا معي عنه لعلنا نجده قريبًا، سيكون له ولد ولا أريد أن يكون ابني بلا أب.

- ارحلي؛ فهو ليس له زوجة ولا ولد.

خرج صوت محشرج قائلًا:

- متى فعلها هذا النذل؟ ثم نحن لا نراه منذ الحادث الأخير، ولا يهمنا أن نراه؛ فهو تركنا نتضوّر جوعًا ورحل، تأتين الآن وتطلبين منّا أن نغفر له ونبحث معك عليه؟ لا، هو لا يستحق هذا.

- يا أبي، حلّفتُك بالله افعلها مرة واحدة من أجله؛ فهو فعل معكم الكثير.

خرج صوت مجلجل من أمه يقول:

- اخـرسي، هـو لم يفعـل شـيئًا، مـاذا فعـل سـوى أنـه تركنـا وسـار خلـف غـراب البـين؟

سـارت عزيـزة نحـو أمـه التـي شـحب وجههـا، وارتمـت أسـفل قدمهـا وهـي تتوسّـل لهـا أن تفعـل شـيئًا مـا؛ فهـو في خطـر حقيقـي وقلبهـا ينـذر بذلـك، دفعَـت المـرأة عزيـزة بقدمهـا، حتـى ارتمـت عزيـزة للخلـف قائلـة:

- اخرجـي وإلا أخرجتُـكِ بمعرفتـي؛ فأمـكِ قـد دعَـت عليـكِ لأنـك تزوجـتِ مـن رضـوان ابنـي.

نهضت عزيزة وأزالت دموعها قائلة:

- أنتـما تُفتَـح لكـما أبـواب جهنـم عـلى مصراعيهـا، سـتكونان داخلهـا عـلى مـا تفعلانـه بابـنٍ هـو ابنكـم.

قال الرجل وهو يسعل:

- أنـتِ سـليطة اللسـان وتسـتحقين أنـت وهـو جهنـم، وليـس نحـن، مـاذا فعلنـا نحـن أيتهـا النذلـة؟

ردت زوجته قائلة:

- زوجهـا سـليط اللسـان، مـاذا تنتظـر منهـا؟ فهـو علّمهـا بالتأكيـد، اللعنـة عليهـما همـا الاثنـين.

قالـت المـرأة ذلـك وغرقـت في الضحـك هـي وزوجهـا الـذي يسـعل بشـدة، خرجـت عزيـزة ومـا زالـت تبحـث عنـه في كل مـكان، فكانـت الشـمس أوشـكَت عـلى الغـروب وتمـلأ السـماء بحمـرة كالـدم، هـذا جعـل قلبهـا ينقبـض؛ فهـي تفـرح بهـذا المظهـر البديـع عندمـا تكـون معـه، ولكـن اليـوم شـعرت عكـس ذلـك، عـادت للمنـزل فوجـدت ليـلى تجلـس في

الخارج منتظرة عودتها، وأتت فريدة خلفها، دخل ثلاثتهم، فقالت فريدة وكأنه تذكرت شيئًا:

- أرأيتِ صادق اليوم؟ أنا تركته ورحلت، فمن الممكن أن يكون رحلَ معه، وهما الآن...

قاطعتها عزيزة قائلة:

- لا، بل رحل رضوان خلفكِ، وعندما تأخر جعلتُ صادق ينهض ويبدأ بالبحث عنه، ولم يعُد هو الآخر إلى الآن.

داعب فريدة شعور بالفرح وبالخوف، أنتج الاثنان زوبعة اجتاحَت صدرها؛ فهي تعلم أن رضوان ليس من عادته الخروج ولا حتى التأخير، أسندَت رأسها الذي يدور للحائط، بينما هرعت عزيزة للخارج بمجرد أن لمحَت صادق قادمًا، قالت وهي تتشبّث بجلبابه مثل الطفل الصغير الذي ترفضُ أمه أخذه للسوق، قائلة:

- هل وجدته؟

هز صادق رأسه، ووقف يتطلع إلى فريدة التي دفنَت وجهها بين يديها، جلست عزيزة وهي تلطم خديها وتنتحب قائلة:

- رضوان قُتل، نعم مات اليوم، أخذه الموم وسيقضي عليه، كنتُ أعلم، والله كنت أعلم أن ابني سيولد بلا أب، سوف يُحرَم من كلمة أبي، انحرم منه هو، حُرِّمَ على لسانه ان ينطقها، سيغيب ولن يعود مرة أخرى.

سارت رعشة جديدة في جسد فريدة وهي تستمع إلى عزيزة؛ فنهضت وهي تطرد كل هذا من نفسها قائلة:

- هل بحثتَ عنه في كل مكان يا أخي؟

قال صادق وهو يجلس:

- أقسم أنني لم أترك مكانًا لم أبحث فيه، لا تقلقوا، سوف أخرج وأبحث مرة أخرى، هو سيعود حتمًا.

- لا، رضوان ذهب من حيث لا رجعة، لن يعود.

- كُفِّي يا عزيزة عن هذا الندب نحن لا ينقصنا، سوف نبحث عنه مرة أخرى، كلها سواد ليل ونبدأ البحث عنه، وممكن أن يعود الآن، نحن لا نعلم.

- وهل سأنام وأترك رضوان في الخارج؟ هل أنت أصابك الجنون؟

- عزيزة، أقسم أنني سأجده، ولكن اصمتِي عن الحديث، لا أريد سماع شيء رجاء.

هزت عزيزة رأسها ووضعت يدها على فمه وكأنها تطلب منه أن يصمت كي يعود؛ فكانت تسيل دموعها دون بكاء، وترتجف بشدة وكأن هذا يوم موته.

***

الحب كلمة فعلية تُطرِبُ النفس وتجعلها تركض في أرض متعرجة دون أن تخشى السقوط، فعندما تعشق النفس وتحمله داخلها ترى الوجود جميلًا، لا ترى له قبحًا، بل يتلاشى القبح من الوجود، وترى ما حولها جميعًا يضيء بألوان براقة وتتفتّح الزهور في البساتين، وتشم رائحة طيبة وكأنها رائحة من الجنة، وتسمع صوت البلبل وكأنه موسيقى طبيعية صُنِعَت لهذا الحب، تهمسُ بصوت لا تسمعه الأذن، بل تسمعه الأرواح والقلوب التي تتهامس أسفل شجرة تُظلِّل على حب يبقَى في نفس تركض في أرض متعرجة دون سقوط.

(٢٨)

دبَّت الحركـة في العزبـة، ونهضـت فريـدة عـلى أصـوات صراخ الأطفـال في الشـوارع، هرعـت خـارج الغرفـة وجـدت صـادق ينتظرهـا ليبحثـا عـن رضـوان، عزمـت عـلى أن تذهـب في اتجـاه بينـما هـو يذهـب في اتجـاه آخـر؛ لعلهـما يجـدان لـه أثـرًا، مـرت بالقهـوة لم تجـد أحـدًا، فكانـت مغلقـة، كانت قدمهـا تقودهـا إلى أماكـن لا تعلـم أيـن؟ نظـرت بجانبهـا وتذكّـرَت فصـل المعرفـة، تتمنّـى أن يخرج رضـوان من هنـا أو هناك كما كان يخـرج، هرعَت إلى الصخـرة عـلى أمـل أن تجده جالسًـا هناك، ولكـن لم تجد سـوى الصمت الذي يمـلأ المـكان، وقفت تتطلـع من حولهـا وكأنها تسـتغيث لغيابه أن يعـود به إلى هنـا؛ فلـن تغفـر لنفسـها إذا حـدث له شيء مـا؛ فرضـوان ليس صديقًـا فقط، بـل الاثنـان أخذا بيـد بعضهـما في وقـت احتياجهما، وهـي لا تسـتطيع أن تراه في مـأزق، يكفـي مـا وقعَت فيـه إلى الآن، ويكفي مـا فقدته؛ فـالأرض ابتلعت الكثـير ولم يتبـقَّ سـوى بعـض العظام، فـكل ما يحـدث من خلف لملـوم هو ما يقلّبُهـم مثـل العرائـس في يـده، ولكـن سـتضع حـدًّا اليوم لـكل هذا.

هرعَـت إلى منـزل لملـوم؛ فهـي تعلـم جيـدًا أن غياب رضـوان ليـس غيابًا طبيعيًّـا، بـل يـوم وهـذا ثاني يـوم فهـو بالتأكيد عنـد لملـوم، أخذه ليحاسـبهم عـلى مـا فعلـوه، اصطدمَـت بالأسـتاذ أنـور أثنـاء دخولهـا إلى المنـزل، وقفت تتعجـب منـه ماذا يفعـل هنا بالضبـط؟ بينما وقـف هو الآخر وشـخَصَ بصره بهـا، وضحـك ضحكـة صفـراء، بـل تحمـل السـخرية، كانت على وشـك أن

تتفوّه وتسأل ماذا يفعل هنا، ولكن لم يعطِ لها الفرصة، بل تركها، وهذا جعل القلق يستحوذ عليها، وعلمَت جيدًا أنه تخلّى عنهم منذ تغيير رأيه، ومنذ دعوته لترك الحق؛ فهو يريد أن ندير خدَّنا الأيمن للملوم ليصفعنا عليه بعدما صفعنا على الأيسر، ولكن هيهات! فالاثنان، لا.. بل كل من وضع يده في يد لملوم سيندَم أشد الندم على ما فعله، هكذا كانت تحدث نفسها إلى أن دخلت إلى الحديقة.

توقّفَت عندما رأت لملوم يجلس وبجانبه فتاة يحدثها في أمر لم تستطع سماعه، بينما انتفض حسن من على كرسيّه بمجرد أن رآها وكأن هناك إبرة وخزَت فيه، نظر له جده وتتطلّع إلى فريدة التي كانت شاردة في الفتاة؛ فكم خطف بصرها جمالها، لم ترَ مثلها من قبل إلا في التلفزيون، نعم رأته، لا.. ليس هي، بل مثله؛ فهم يبدون بصورة جميلة ولهم رائحة تشمها من على بُعد، وها هو الشعر، ضحكت فريدة في نفسها عندما رأت شعرها لونه أصفر فاقع، كم كانت تُعجَب بهذا! فهم يدهنون شعرهم بألوان غريبة، تركَت كل هذا العبث وتوجّهَت إلى لملوم دون أن تلتفت إلى حسن؛ فهو كان بالنسبة لها ليس له وجود، وقفت وهي تشبك ذراعيها قائلة:

- أين رضوان؟

تفرس لملوم في وجهها، وأمسك بقوة على مسبحته وكأنه يصنع خطَّ دفاع له قائلًا:

- من هو رضوان؟

- أنت تعلم جيدًا من هو رضوان؟

- بلا تأوّلٍ عليّ، أليس هناك أحد غيري في هذه الحياة كي تأتي لي وتسبّبي لي الصداع دائمًا؟! ألم...

قاطعته فريدة قائلة:

- بلا لف دوران، قُل لي أين هو؟

- ولماذا تسألينني أنا؟ اذهبي هيا ابحثي عنه هنا وهناك، هو ليس إبرةً في كومة قشّ.

- أنتَ تعلم أين هو بالضبط؟ وتعلم أيضًا لماذا أخذتَه؟ وإذا لم تقُل فسوف أفعل ما لم أفعله من قبل، أتتذكّر ذلك أم نسيت؟ فأنتَ كنت تحت رحمتي.

تنحنح لملوم ونظر إلى حسن والفتاة التي تشبه عرائس باربي قائلًا:

- خذ زوجتك للداخل يا حسن؛ لأن هنا سيقال كلامٌ لن يُعجب أحدًا.

وقعت الجملة في نفس فريدة وكأنها صاعقة، بينما ازدرد حسن ريقه وأمسك يد الفتاة وهرع بها للداخل، لم تنبسّ بكلمة، بل تجمّدَت دموعها وأبت السقوط، فعلّقَت بصرها في الفتاة، بينما لوّح لملوم بيده ثم قبض على عنقها وهي لم تقلع بصرها عن حسن، بل وقفت وتجمّدَت وكأنها تمثال صنع من الشمع، قال وهو يضغط بإصبعه على عنقها:

- كنتِ تريدين أن تقتليني، من قال لكِ أنني نسيت؟ لا لم أنسَ؛ لأنني أذكّر نفسي كل يوم به؛ فأنتِ حقيرة تستحقين الموت، كنت سأموت بسبب مَن؟ بسبب حشرة مثلك، في هذه اللحظة كنت أفضّل أن أموت على يد شحاذ ولا أموت على يدِك.

كانت تختنق، جحظت عيناها واحتقنت بهما الدماء؛ فهرع حسن وأمسك ذراع جده ودفعه للخلف، فسقط على الكرسي خلفه، بينما سقطت هي أرضًا وظلت تسعل سعالًا شديدًا لم يتوقف، فوضعت

يدها على عنقها، ونهضت تقول محذرة:

- إذا حدث شيء لرضوان ستدفع الثمن غاليًا، وأعلم جيدًا ان رضوان هنا في هذا البيت، وسوف أجده.

هرعت للداخل وهي تنادي بصوتٍ مرتفع على رضوان وكأنه سيخرج لها، كانت تدخل الغرف وتخرج مثل المجنون الذي فقدَ شيئًا؛ فوقفت الفتاة أمامها وتفرست في وجهها، بكت على حالة هذه الفتاة، خرجت وهي تركض وتشير إلى الملوم الذي جلس يستكمل إفطاره وكأن شيئًا لم يكن، فقالت:

- إذا لم أجد رضوان إلى المساء ستكون قتلته، ورب الكعبة ستلحق به بدون رحمة، وسأقتلك بدون أن أتراجع؛ لأن الصوت الذي خرج في ذلك اليوم مات، نعم.. مات اليوم.

هرعت إلى الصخرة وهي تبكي وتنتحب وكأنها طفل لا يستطيع السيطرة على نفسه اليوم، اليوم فقط علمَت أنها حقًا كانت تنتظر وهْمًا، خمس سنوات ظلت وفيّة لحبها، حملت الحب في قلبها وظلت رابطة عليه، حتى تسلّل إلى روحها فحملته وصمتَت؛ فكانت ترى في صمتها ضجيجًا وفرحًا لا يزول، تعلم أن بعد الغياب عودة وبعد العودة حب يغمرها ويملأ الحياة الفارغة عليها، ولكن أين؟ بل تزوج، تزوج وكانت بالنسبة له نسيًا منسيًّا، كيف يفعلون هذا؟ لماذا يقتلون قلوبًا طاهرة نقية بأفعالهم؟ لماذا يُلحِقون بالحب الزوال؟ لماذا يجعلونه نكرة؟ كلمة هي السبب في تصريف الوجود بما فيه، يا ربي! قُتلت اليوم، نعم، ليس من أجل شيء، بل من أجل النسيان، ومن أجل الانتظار الذي دام طويلًا.

نزعَت خمارها من على رأسها وألقته أرضًا، وسعلت سعالًا شديدًا

مـن كثـرة حديثهـا الـذي كانـت تنتحـب فيـه، تحسسـت عنقهـا وقالت:

- لماذا فعلت ذلك؟

لم ينبس سوى بكلمة واحدة:

- سامحيني.

- لا أريـد اعتـذارًا، قـل لي لمـاذا فعلـت ذلـك؟ أحببتُـك حبًّـا أفلاطونيًّـا، حبًّـا مقدسًّـا لِمَ.. لِمَ لمـاذا؟ لا أعلـم شـيئًا قـط.

قال وهو يزدرد ريقه:

- فعلتُ ذلك لأني أحببتها.

- أحببتهـا؟! مـن حقـك أن تحبهـا؛ فأنـا خطفَـت بـصري عندمـا رأيتهـا؛ فمـن الواضـح أننـي كنـت عـلى بالـك، ثـم لمـاذا تحـب فتـاة بائسـة مثـلي؟ أنـا مـرض يسـكن النفـوس؛ فـكان لا بُـدّ مـن أن تتخلـص منهـا، ليتنـي لم أرَكَ يومًـا، يـا ليـت، وأتمنّـى ألّا أراكَ مـرة ثانيـة.

- ألم تقـولي إن القـوب غـير خاضعـة لسـلطة أحـد؟ هـا أنـا لم أسـتطع أن أُخضِـع سـلطتي وأفرضهـا عـلى قلبـي، لم أسـتطع، هـو المذنـب وليس أنـا.

- أنـت محـق، اللعنـة عـلى القلـوب؛ لأننـي لم أسـتطع أيضًـا السـيطرة عـلى قلبـي، فقـد أحـبَّ شـخصًا مثلـك أنـت، تعلـم أنـكَ أردت أن تجمـع بـين روح وجسـد، نعـم هـذا مـا أردتـه أنـت، أردتَ أن تتـذوّق مـن شـيئين وكأنـك واقـفٌ بـين شـجرتين؛ فـأردت أن تجـرب الاثنـين معًـا، أحدهمـا خطـف عقلـك وأحدهمـا خطـف قلبـك؛ لأنـك لم تسـتطع أن تـرى وتذهب وتحـرمُ نفسَـك منـه، هـذا حالنـا جميعًـا.

- لكن حبّكِ ما زال في قلبي لم ينقص منه شيء، بل يزيد يومًا بعد يوم.

- لا أريـد هـذا القلـب ولا أريـد حبـه؛ فأنـا أسـتحق العـذاب كل ثانيـة

تمر، فهـذا أقـل شيء يحـدث معـي.

- أنـت تبالغـين كثـيرًا، مـاذا فعلـتُ أنـا سـوى الـزواج مـن فتـاة أخـرى غـيرك؟ هـذا لم يؤثـر عـلى حبـك قـط، وهـذا مـا كنـت أريـد قولـه لـكِ، نعـم هـذا هـو سري.

- يا الله! كل شيء لديك سهل وبسيط وكأن شيئًا لم يكن، لماذا؟

- لأننـي لا أرى أن الموضـوع مسـتحق؛ فأنـا مـا زِلـتُ أعـرض حبـي لـكِ، ومـا زلـتُ متمسـكًا بـه، ولكـن أنـتِ ترفضـين وتُصرِّيـن عـلى هـذا الرفـض.

- حقًّـا أنـا أبالـغ، لم أنتبـه، آسـفة لذلـك، لم أقصـد هـذه المبالغـة، ولم أقصـد أن أضيـع وقـت، رجـاء ارحـل يـا حسـن، ليـس مـن هنـا، بـل مـن العزبـة بأكملهـا.

- مـاذا تعلمـين أنـتِ عـن الحـب كـي تتحدثـي بطريقـة بلهـاء وتقولـين ارحـل ولا ترحـل؟ إذا أردتُ أن أجعلـكِ لي فسـوف تكونـين، تعلمـين هـذا جيـدًا، ومـن الممكـن أن أقتلـكِ إذا فكـرتِ يومًـا أن تجعـلي قلبَـكِ يتـألم، بـل سـوف أقتلـه كـي لا يتـألم، نعـم.. سـمِّي مـا فعلتُـه شـهوة، شـهوةٌ عمَـت لي بـصري وضلَلـتُ طريقـي، مـن منـا لا ينسـى؟ مَـن منّـا لا يُخطـئ؟ ولا يضـل القلـب طريقـه؟ مَـن؟!

- أنـتَ مَـن تعلم كل شيء عـن الحب؛ فأنت الـذي جعلتَ أحـدًا ينتظركَ وأنـت لم تنتظـر؛ فأنـتَ جعلتَ حبـك لي في قلبك، بينـما جعلتُه أنـا في روحي، تعلـم أن ذلـك مـن سـوء حظـي؛ فأنـت تسـتطيع أن تطهّـر قلبـك مـن هـذا الحـب، أمـا أنـا لـن أسـتطيع، بـل سـوف أظـل أتعـذّب بـه؛ فحـب الأرواح يسـكنها ولا يبرحهـا؛ فهـي حيـة، وسـيظل حيًّـا بحيـاتي، هـذا ما يقتلنـي، فما

ذنبي أن أظل بهذا الداء الذي يمزق أوصال نفسي؟ ما ذنبي؟! ثم هذه شهوة ضلت طريقك وطريقي معك، وها نحن الآن في عوالم أخرى.. أنت في عالم جعلكَ تنظر أسفل قدمك؛ فسقطت على عنقك، حبك سوف يفنَى ويزول بفناء قلب سار على نفسي.

- لكن أنا أعطيتك ولم أضنُ عليكِ بشيء، نعم أعطيتكِ حبًّا كثيرًا، وما زِلتُ أعطي إلى الآن، وأنا الآن أطالب بالحب الذي أعطيتُه لكِ وما زلتُ أعطيه، اعتبري أنّني أُذنِب واغفري لي، لعل طريقنا وعوالمنا التي تفرَّقنا فيها تتّحد مرة أخرى.

أمسكت فريدة حفنة من الرمال قائلة:

- إذا كان في يدي مثل هذه الرمال لكنت أعطيتك، ولكن للأسف لم أمتلك هذا الحب في يدي، بل في روحي تعجز عن رؤيته.

- اغفري لي، أنا أريدكِ والله شهيد على ذلك، كل ما فعلته كان خطأ في خطأ أعترف بذلك، ماذا فعلتُ أنا؟ لماذا وضعتِ في قلبك الألم لماذا؟

- تريد أن تقتلني كي لا تجعل قلبي يتألم بما فعلته، بل قلبي تألم وقتلتَه؛ فليس هناك داعٍ لتقتل ميتًا، أنهي كل هذا واذهب، واعتبر أنني لم أكن يومًا ما، واترك الأيام تمر كما كانت تمرّ، من الممكن أن نلتقي في نقطة تَصِلُ علمَك بعالمي، على الرغم أن الاثنين ابتعدوا الآن كثيرًا، و يا ليت تُبلِغ جدك بأن فريدة قُتِلَت اليوم، وشبحها يحوم حولنا، أبلغه بذلك؛ فمن المستحسن له ولكَ أيضًا.

هرعَت للمنزل وتركته يلوم نفسه، ارتمت على الأرض بجانب عزيزة التي أمسكَت بقدمها ولثمتها وهي تطلب أن تعود برضوان

وكأن هـي مـن أخذَتـه، فلـم تشـعر فريـدة بهـا، بـل أسـندَت رأسـها وشردت، ولم تشعر إلا عندما دفع صادق الباب؛ فنهضَت مفزوعة من مكانها، فجلس صادق يدلّك قدمَه من كثرة السير؛ فركضت عزيزة إليه وهي تستحلفه بالله أن يقول لها ولا يخبئ شيئًا، حلف صادق أن ليس هناك شيء؛ فهو ذهب إلى أستاذ أنور وسأله فلم يرَه أيضًا، وجعل بعض التلاميذ يبحثون عنه، ولكن هذا البحث بلا فائدة؛ فهم يعلمون جيدًا أنّ رضوان داخل منزل لملوم وهو ينكر وجوده.

***

(لـكل قلــب عاشــق، ولــكل عاشــق معشــوق، ولكــن يلحــق بهــم زوال بأفعــال رخيصــة تجعــل الفــؤاد ينــزف دمًــا، والعــين تبكــي حتــى تجـف الدمــوع بــه).

(٢٩)

سـمعَت فريـدة صـوت صراخ حـادّ يـأتي مـن الخـارج؛ فهرعـت حتـى تعثـرت وسـقطت أرضًا، نهضـت وهي تفـرك في عينيها، فوجـدت عزيزة هي مـن تـصرخ ولا تكف عن الـصراخ والنحيـب، بينـما الجميع يلتف مـن حولها صانعـين دائرة، يمص النسـاء شـفاههم ويضرب الرجال كفًّـا بكف، أزاحت فريـدة النـاس ووجـدت عزيـزة تدفـن رأس رضـوان في صدرهـا، ارتعشـت حتـى جعلتها تسـقط أرضًـا بجانبها وهي تمسـك يد رضوان؛ فزحفت رعشـة مثلجـة عـلى عمودهـا الفقـري، فكـم الدمـاء تلطـخ جلبابـه! وكـم مطعـون في صـدره في قلبـه الـذي شـعر يومًـا بشـخص لم يشـعر بـه! صرخـت فريـدة صرخـة مكتومـة، بينـما تركـت عزيـزة رأس رضوان تسـقط أرضًـا، ونهضت تدفـع الزحـام بيدها وتضحـك ضحـكًا هسـتيريًّا، فوضعت يدها عـلى بطنها التـي كانـت تتكـوّر أمامهـا، وبدأت تسـير بحركة آليه عسـكرية وكأنهـا تقلّد أحـدًا ما، جمعـت طوبًا كثير وعبت رمـالًا في حِجرها، وراحـت تدفع الجميع بذلـك ويسـيل مخاطها؛ فيبتعـد الناس مشـمئزين.

أتـى صـادق ركضًـا وهـو يتشـبّث بقـدم رضـوان، فوضـع رأسـه بجانـب قدمـه وكأنـه يسـجد؛ فاليـوم رحـل أخـوه وصديقـه، فمـن بعـد اليـوم سـيكون قريبًـا منـه، نهـض وركـض بـدوره واصطـدم بليـلى وهـي تتحسـس طريقهـا باحثـة عـن أختهـا؛ فهـي مـن تُمسـك يدهـا وترشـدها وتهديهـا، فنظـر في عينيهـا الحالمـة، وتركهـا وهـرع، ليـس هنـاك حـب بعـد اليـوم، فكانـت تتخبـط في المـارة الذيـن يركضـون وينتحبون عـلى رضوان لا

حول لها ولا قوة، كانت النساء تلطم خدها وتنتحب في البكاء، بينما التلاميذ يركضون ولا يعلمون لماذا؟ منهم من يحضر الكفن ومنهم من يهيئ مكانًا للدفن، بينما تشبَّثَت به فريدة بقوة وكأنها ستمنعه من أن ينزلق للهوية.

لمحَت أمه وأباه اللذين يأتيان راكضَين يلهثان؛ فسقطت أمه ودفنت رأسه في صدرها، وبكت ولطمت خدّها و انتحبت في البكاء، بينما يلطم أبوه خده مثل النساء ويضرب على رأسه؛ فاليوم أدركا ذلك الحب، اليوم ظهر حبهما لابنهما الذي كان مستعدًّا أن يدفع عمره في سبيل حب من والديه، حتى ولو كان ليوم أو لنصف يوم، إذا كان رضوان حيًّا لكان وافق على أن يُقتَل ألف مرة في اليوم كي يرى ما يراه اليوم ويسمع ما تقوله أمه؛ فماذا ينفع الحب في هذه اللحظة؟ فقلبه مات وجسده سيدفن في التراب، بل جثة لا حول له ولا قوة، ماذا ينفع الحب في لحظة مثل هذه؟ ولماذا يعطونه وهم يرون أبناءَهم يموتون أمام أعينهم؟ قد كان يتمنى أن يذوق من هذا الحب قبل أن يموت؛ فكان جائعًا له، فمهما حصل من حب، ولكن هو كان يريد هذا الحب، بالأخص الذي يجعل النفس تحلق عاليًا؛ فعندما تغيب يُتلهَّف عليك ويُسأل عنك، ولكن كان يغيب كثيرًا ولم يجد أحدًا يمدّ له يده، وها هي اليوم تمتد بعد فوات الأوان، لماذا يخفون الحب ويظهر في لحظة لا تنفع شيئًا ولا أحدًا؟ ولماذا يجبر الأبناءُ على دفن حبهم في قلوبهم؟ يبكون ولا تخرج أصواتهم، يفرح ولا يظهره؛ فهو يعلم ألّا أحد معه؛ فهو بمفرده في تلك الحياة، فكم من أبناء خلقوا لهذا وكم من أبناء رحلوا ولم يتذوّقوا الحب؛ فهم زهرة داخل بستان عليل وخرجت نضرة تجوب السماء وتقطر حبًّا على العالمين، فكم أحببتَ ولم تجد من يعطيكَ،

ولكـن أعطيـتَ المزيـد، حتـى لمـن لا تعرفهـم، ارقد يـا أخي في سـلام، واقطر حبًّـا عـلى العالمين إلى يـوم الدين بـإذنٍ مـن رب العالمين.

نهضـت فريـدة والـدم يمـلأ وجهها وهـي تتمتـم بهـذه الكلـمات، وتركَـت رضـوان؛ فهـي لا تصـدق مـا حـدث اليـوم ولـن تصـدق، قـام مجموعـة مـن الأهـالي بدفـن رضـوان، وخيـم الحـزن عـلى العزبـة أيامًـا؛ فكـم كان محبوبًـا مـن الصغـير قبـل الكبـير، فـكان وجهًـا يـضيء ولا يعبـس في وجـه أحـد، فـكان مثـل الزهـرة التـي قُطِفَـت بيـدٍ خبيثـة لا ترحـم، مرَّت الأيـام متثاقلـة عـلى فريـدة؛ فكانـت تذهـب إلى المقابـر صباحًـا وتعـود قبـل غـروب الشـمس، تنظـر إلى الصخـرة وتقـول دامعـة:

- الأرض ابتلعت الكثير، والسماء أمطرَت على قلبي فجعلته يصرخ.

كانـت تبكـي دموعًـا مريضة تسـقط في براعـم تقتلها؛ فأصبحـت دموعها مثـل الـدم الفاسـد الـذي يـؤذي كل ما يسـقط فيـه؛ فكـم بكت! وكـم الحياة سـتبكيها بعـد اليـوم، كلـما ذهبـت إلى منـزل جدتها وجـدت رضـوان يصرخ هنـا وهنـاك، وجـدت أحلامـه التـي لم يحقـق منهـا حُلـمًا واحـدًا، ووجـدت صـوت عزيـزة يـتردد في أذنه وهـي تبـشّر بقـدوم المولود:

- سـيولد ابنُـك يـا رضـوان ولا يجـد مـن يقـول لـه ابنـي، مثلـك لم تجـد أحـدًا يقولهـا لـك.

صـادق أيـن ذهـب؟ عـاد كـما كان؛ فهـو فقـد إنسـانيته؛ فهـو علِـمَ أنـه سـيفقدها في يـوم مـن الأيـام، لـن تـدوم، فهـو يركـض خلـف أوزة أو أرنبـة كـي يجلـب طعامًـا ليحيـا ثـم يجـد مـالًا، يسـتغفر ربـه ويطلـب الغفـران، ينفـد المـال ويعـود كـما كان، وهكـذا تسـتمر الحيـاة.

وأيـن ليـلى؟ فهـي تبحـث عـن أختهـا التـي تركـض مـن هنـا إلى هنـاك

تبحث عن رضوان وكأنها ستجده في شارع من الشوارع يخرج لها وتتشبث بيده، فكانت تركض وتبيت في الشوارع، تجد من يعطف عليها بكسرة خبز تأكل قطعة وتترك الباقي تلفه في خمارها الذي نزعته من على رأسها أملًا في أن يعود رضوان، فسوف يأتي جائعًا؛ فلابد من أن تترك له نصيبه، كانت ترتمي أمام المنازل وتفيق في الصباح على الحجارة التي تسقط على رأسها، فوجدها اليوم الصبية شيئًا يعبثون به، كانت ترجمهم بالطوب ولكن تعود تنتحب في البكاء؛ فتجد من يدفع عنه الصبية الصغار الذين يستمتعون وهم يروا، تركض ببطنها المكوّرة، وتركض ليلى خلفها هنا وهناك لعلها تعود إلى رشدها وتأخذ بيد أختها؛ فهي تتعثر كثيرًا؛ فاليد التي كانت ترشدها قُطِعَت، فسوف تسقط إذا لم تجده.

تبدّلَ حال الأختين، فكم كانت حالة عزيزة رثة، تحوّلَت من آية جمال إلى لوحة رسمها طفل في كراسته، قررت فريدة أن تترك المنزل؛ فكل شيء يذكرها برضوان، ما زالت ملابسه الملطخة بالدم تُلقَى على الكنبة، أغلقت فريدة المنزل بعدما احتضنته بنظرتها وتنهدت بعمق، وكأنها تعبئ صدرها بالذكريات وتملأ عيناها؛ فهي لن تعود إلى هنا مرة أخرى، كل من سكن هذا البيت رحل ولم يبقَ لها سوى الألم والوحشة التي طغت على حياتها؛ فهي تسمع أنفاسهم وتتردد أصواتهم في كل ركن، تعذبت كثيرًا وتريد أن تتذوق الموت كي تنال راحتها، رأت أخاها صادق يركض، تبسمت ابتسامة خفيفة وتذكرت شعور أخيها؛ فاليوم غاب شعوره وتلاشى كل شيء بالنسبة له؛ فهو يريد أن يكون على سجيته.. يركض ويملأ فراغ الكون بما يفعله ويفخر به؛ فهو لا يتكلف ليرضي أحدًا، بل يفعل ذلك

وهو مغتبط؛ فسيترك نفسه على ما تريده دون أن يقيده ويفرض عليه تكلّفًا لا يرضيه؛ فهو لا يحب أن يكون خادعًا لنفسه وخادعًا لرب ذاته، فهذه النفس خلقت بهذا الداء؛ فسيتركه إلى أن يرحل عن هذا العلم؛ لعله يجد الدواء هناك؛ فهو يؤمن إيمانًا تامًّا أنّ النفس تعربد إذا كان هذا ما بداخلها أعظم من أن تتكلف أمام أشخاص وتخدع نفسها وتضلّ طريقها حتى لا تتراكم عليها شوائب، وتتكاثف ضباب النفس فتتوه في أرض جرداء.

قضت فريدة أيامها بين الصخرة التي تذكّرها بالحلو والمُرّ؛ فتبكي وتنفجر في البكاء دون أن تشعر، فكانت الأيام متثاقلة عليه وهي تدعو الله بأن يرحمها، وقف أستاذ أنور أمامها وهو يجذب ذراعها قائلًا:

- هيا سوف نرحل.

نهضت فريدة وهي تجذب يدها قائلة:

- إلى أين نرحل؟ وماذا تريد؟

- إلى مكان غير هذا، لم يعد هنا شيء كي تجلسي من أجله؛ فرضوان مات وحسن تزوج وللملوم انتصر، وأنتم الآن شراذم متفرقة.

- ولماذا تريد أن أذهب معك؟ اذهب بمفردك.

- تعلمين لماذا؟ لأنني أحبك، نعم أحبك من أول يوم خطَت قدمك فصل المعرفة وأنا أحبك، وأصبحت مريضًا بهذا الحب، لم أعد أتحمّل أن أراكِ تعشقين غيري؛ فأنتِ لم تبالي لحبي، كنت أجلس أستمع لكِ وأتركك وأنت تعشقين في حسن الذي تركك وتزوج؛ لأني لا أريد لكِ الألم، ظللتُ أكتم حبي داخل صدري، كم تحملت كَمَّ السنوات التي مرت وأنتِ لا تبالين لي ولا لحبي، فمن حقي أن أحصل منك على هذا الحب، وها أنا أريده حتى ولو قليلًا منه.

- هـل هـذا هـو اليـوم الـذي يتقاتَـل فيـه عـلى الحـب؟ هـل هـذا هـو اليـوم؟ ولمـاذا تطالـب بحبـك؟ ولمـاذا طالَـبَ هـو أيضًـا بحبـه؟!

- اتركـي كل هـذا الآن، لا أريـدك أن تفكـري سـوى فيّ أنـا، ونـترك العزبـة ونرحـل ونـترك كل شيء خلفنـا؛ فأنـتِ أردت قتـل لملـوم ولم تسـتطيعي، هـل سـتفعلين هـذا بمفـردك؟

قطبَت فريدة حاجبيها قائلة:

- مَـن الـذي قـال لـكِ أنـني أردتُ قتـل لملـوم ولم أسـتطع؟ لا أحـد يعلـم بالأمـر سـوى صـادق وأنـا، حتـى عزيـزة لم تتفـوه بكلمـة عندمـا أخبرهـا رضـوان.

- لا، مَـن الـذي قـال هـذا؟ بـل قـال لي صـادق، نعـم صـادق هـو مـن قـال لي.

ارتجف في حديثه؛ فنظرت له فريدة نظرة ارتياب، ثم قالت:

- كذب نعم كذب.

سارت نحوه وأمسكته من عنقه؛ فدفعها للخلف وهو يقول صارخًا:

كفـى، لم يقُـل لي أحـد، أنـا سـمعتُ في اليـوم الـذي أتيـتُ إلى المنـزل، نعـم سـمعت كل شيء وأخـبرت لملـوم بـما سـيحدث؛ فلذلـك أرسـل غـيره، وهـو مـن خطـف رضـوان، تعلمـين مـن الـذي قتـل رضـوان؟ أنـا، نعـم أنـا.

ضحك ضحكًا هستيريًّا ثم بكى، وارتجف وعاد يقول:

- كنـت أظـن أنـني أنقذكـم منـه، ولكـن أنـا غبـي، نعـم غبـي، اسـتغل ضعفـي عندمـا علـم أنـني أحبـك وأجـبرني عـلى قـ.. قتل رضـوان، فـإذا لم أقتلـه فسـوف يقتلـكِ أنـتِ، أرسـل لي حمـودة في منتصـف الليـل، ذهبـت لا

أعلـم بـشيء، ظننـت أنه سـيُخرِج رضـوان، ولكن وجدتـه يأمـر بقتله، وضع في يـدي السـكين ودفعنـي أمامـه، كان رضوان ينظـر لي نظرة تمتلئ بالتوسـل، لثـم يـده وأنـا أحتضنـه كـي لا أقتلـه، هـو لـن يسـتطع فعـل شيء، تمنَّـى أن يحيا يومًـا واحـدًا فقـط يرى فيـه أمه وأبـاه وابنـه الـذي لم يولد بعـد، ولكن لم أرحمـه.. نعــم لــ. آه، آه، مـا هـذا الذي فعلتـه؟! لم أقـدم له الرحمة، بـل طعنته وكأنني أطعنه شـعرت بـأن أنفاسـه تمتلئ بالعـذاب.. تمتلئ بالأحـلام، رأيتُ نظـرة طفـل مذعـور يتمنّى شـيئًا لم أسـتطع فهمه، مـات رضـوان، وهذه يدي اليـوم امتـلأت بالـدم، ودم مَن؟ أعزّ إنسـان على قلبـي، لماذا فعلـتُ ذلك؟ من أجـل حبـك، نعـم من أجـل حـب لم أسـتطِع الحصـول عليه.

- فعلـتَ مــن أجــل مــاذا؟! اليــوم قتلتنــي، نعــم لم يمُــت رضــوان بمفـرده، بـل قتلـتَ الكثـير معـه، نعـم الكثـير قُتِـل اليـوم، كـم دفـن تحت الـتراب بموتـه.

أزالـت فريـدة مخاطهـا في كُـمّ جلبابهـا وارتمت أرضًـا، تقلع العشـب بقوة وتـضرب الأرض بيدهـا وكأنه تخـرج غيظه فيهم، أمسـك بذراعهـا وأجبرها عـلى النهـوض؛ فنهضـت وهـي تدفعـه للخلـف، وركضـت فركـض خلفها وهـو يشـد عـلى ذراعها بقـوة، سـقطت أرضًا بعدمـا ألقت الـتراب في وجهه، وركـض خلفهـا، انحنـت عـلى الأرض وأمسـكت حجـرًا في يده وهـوَت به عـلى مؤخرة رأسـه، سـقط أرضًـا وامتلأ بالدمـاء؛ فاقتربـت منه رويـدًا رويدًا وجثـت على ركبتيهـا وهي تحـاول إيقاظه، ولكن لم يسـتجِب، قُطِعَت أنفاسـه فـمات، نعـم مات.

ابتعـدت بذعـر عنـه؛ فهـو مثـل الرجـل الذي شـعر بالحـر فوقف أسـفل الشـجرة يتظلّل بظلالها فسـقطَت عليه ومـات، كانت تنتظـر قدومه بالأخص

لتسقط، وها هو مات بحجر صغير تُلقَى الآلاف منه على أشخاص يستحقون أن تُلقى الصخور عليهم، ولكن لا تفعل شيئًا، فصاحبنا كان ميتًا قبل قدومه؛ فكان مللك الموت يلحق به ويتتبع خطواته، وها هو قبضَ روحه؛ فهو كان في عِداد الأموات، أخذَت خمارها الذي جذبتها منه وركضت من الخوف، فسقطت ودُفع جسدها بقوة إلى الصخرة حتى أصيبَت جبهتها وتلوثت أسماؤهم بالدماء، الأسماء التي حُفِرَت على الصخرة من خمس سنوات؛ فأين كل ذلك الآن؟!

جلست القرفصاء، ونظرت بطرف عينها إلى جثته وصرخت صرخة قوية أرادت أن تصرخها منذ زمن، منذ زمن سحيق، ولكن لم تعلم كيف تصرخ؟ فاليوم لها صوت كي تصرخ، والناس لها أذن كي تسمع، ولكن ماذا يفعلون سوى أن يضعوا أصابعهم في آذانهم ويعطوا ظهورهم ويرحلوا، انتحبت في البكاء وتشنّجَت، وقامَت ببعض حركات بهلوانية؛ فها هي سقطَت في بئر الصرع.. بئر الظلام والوحشة، فكانت تزداد حركاتها وكأنها تعرض فقرةً من الذلّ والهوان والخوف.

***

«مـاذا ينفـع الحـب في لحظـة ركـود الجسـد أسـفل الـتراب وتوقُّـف القلـب عـن شـعوره؟!»

(٣٠)

بسـطت الشـمس ضوءها عـلى الصخرة التـي التمعَت وكأنهـا قطعة ذهب وُضِعَـت خـارج العزبة، فداعبت الشـمس عينيها؛ ففاقت وهي تبتسـم وكأنها مـا زالـت نائمـة في غرفتهـا لم تتحـرك، نظـرت مـن حولهـا وسـارت بخطـى متثاقلـة، فكانـت تتخبـط في المارة وهـي تسـير، رأت الصبيـة يركضون خلف عزيـزة دون رحمـة؛ فتمنـت من قلبهـا أن تموت وترحـل؛ فالموت حيـاة، الموت الـذي يفرُّون منـه هاربين ومذعورين خلـف بوابته حياة وليـس موت؛ فالحياة هـي المـوت، كانت الأصـوات ترتفـع هنا وهنـاك.. مَـن يركض خلـف أرنبة كـي يمسـك بهـا، وهناك مـن يصعد على ظهـر حمار يرتفـع نهيقه ويشـتكي ألمه مـن كثـرة ما يحمـل، وهناك مـن تسـكب ماء أمـام منـزل جيرانها وتزعـم بأن الجـو يحتـاج لذلـك كـي يجلـب نسـمة هـواء؛ فتنهـض جارتهـا وتمسـكها من ضفيرتـه التـي تتـدلّى مـن أسـفل خمارهـا وتغمـر وجههـا في الطـين؛ فليس لها حـق أن تفعـل ذلـك؛ فهي تريـد أن يقـع البيت فوق رؤوسـنا.

تـترك فريـدة كل هـذا وتسـتكمل، ثـم تجـد في طريقهـا صبيًّـا يحـاول أن يتعلـم إعطـاء السرنجـة؛ فـكان يمسـك بالقطـة ويغمـز سـن الإبـرة في عظمهـا، وتـصرخ القطـة مسـتنجدة، بينـما تـرى البعـوض الـذي يتسـابق كـي ينتـشر في الجـو ويمـلأه حتـى يمتـص دماءَهـم، ابتسـمت فريـدة عندمـا رأت ذلـك، ثـم قـال بصـوت منخفـض:

- مسـاكين! يظنـون أنهـم يتجرعـون دمًـا صالحًـا، ولكنـه دم فاسـد، سيفسـد حالكـم ويهـدر صحتكـم أيهـا البعـوض.

سقط الخمار من فوق رأسها؛ فسارت ولم تشعر أنها تسير بدونه، كانت الناس تصفّق كفًّا بكف على ما أصابها من جنون، انزلقَت داخل المنزل ولم تجد أحدًا وكأنه خالٍ منذ فترة؛ فهي لم تعلم شيئًا عن أهلها بعدما رحلت، ألقَت بنفسها أرضًا، ثم تطلّعَت إلى السقف بقوة؛ فاليوم فقط تريد أن تزيل كل شيء عن كاهلها الوهن الذي يفعل الخطأ ولا يدركه؛ فالنفس تظل مغشيًّا عليها زمن طويل، تحسّسَت جبينها لأنه كان يؤلمها؛ فهذا ألم بسيط بالنسبة لها، فهي تريد قتل نفسها ألف مرة! أمسكت بين أصابعها جلد جسمها وظلت تنهش فيه بأظافرها، امتلأ جسدها بالدماء ولم تكتفِ، بل نهضت ونظرت للحائط نظرة مطولة، ثم ضربت رأسها بقوة في الحائط ضربة والثانية والثالثة، سقطت على الأرض تلهث، سمعت صوت أقدام فأصبتها رجفة شديدة، نظرت بعين زائغة مليئة بالخوف؛ فسكنت نظرتها في عين حسن الذي وقف أمامها وسقطت دموعه على حالها.

جلس بجانبها ووضع الخمار فوق رأسها، ونظر في عينيها التي اعتاد أن يرى بها الحزن والفرح معًا، ولكن اليوم رأى غير هذا.. رأى بحرًا تسبح فيه وتغرق، ولكن تضع سياجًا شائكًا حولها حتى تترك نفسها للموج الشديد بدون منقذ، لثم جبينها الذي يمتلئ بالدماء، ولثم يدها، ثم مسح بكُمّ قميصه، بينما هي أسندت رأسها للحائط وهو أسند رأسه، وغرق في التفكير قائلًا:

- لماذا تفعلين كل ذلك بنفسك؟ حاولي أن تفيقي مما أنت فيه، وسامحيني فأنا مَن سبّبَ لكِ ألمًا شديدًا، أنا من يستحق كل هذا وليس أنتِ، كانت شهوة ذلّت نفسي وخضعَت نفسي وجعلتني أنسى ما قلتُه لكِ يومًا ما، الجميع يخطئ؛ فنحن لسنا أنبياء مبرّئين من الدنس والخطأ،

واغفري لجدي هو الآخر؛ فهو في النهاية إنسان، نحن نظنّ أننا جبروت على الأرض، ولكننا مخدُوعون في ذلك؛ فالضعف يملأ نفوسنا ويقهرها، ويحمل القلب الخوف ويظل يترقب؛ فالنفس تخطئ، فماذا تتوقعين من نفس وضعَت نفسها في الضلال وسارت خلفه؟ أقسم لكِ أنني أحبكِ؛ فلا تحرمين نفسًا من ذلك الحب؛ فنفسي تتوجع على كل هذا، أنتِ بالنسبة لي الوجود، إذا رحلتِ فسوف يتلاشَى أمام عيني وأنا عاجز عن فعل شيء، لماذا لا تردّين على ما أقوله؟ انطقي ولو كلمة واحدة فقط.

لم تنبس فريدة بكلمة، سوى أن نظرَت له نظرة تحمل كلمات كثيرة، بل تحملُ كل شيء في حياتها، عادت تنظر إلى السقف وتنهش بأظافرها في جلد جسمها وتبتسم وكأنها تجد لذة في ذلك؛ فهي لا تتألم، سقط اليوم عن الجسد الألم، نهض وهو يبكي على حالها؛ فهو يعلم أن هذه هي النهاية لها، دفع الباب بقوة شديدة، فكان إدريس يترنّح من الخمر التي تثقل رأسه، فنظر لها ثم ضحك قائلًا:

- من أنتِ؟ يا ربي! هل أنتِ فريدة؟ سيصيب المنزل النحس الآن؛ فأنتِ وباء قاتل.

نظرت له فريدة، ثم نهضت وسارت نحوه، وقفت مبتعدة عنه بثلاث خطوات، وقالت بصوت مكتوم:

- ماذا تريد منِّي؟ هل تريد أن أقتلك؟ فأنا اكرهك منذ مولدي، ماذا رأيت منكَ سوى الألم والقسوة؟ ماذا أعطيتَ لي؟ فأنت قتلتني ودُستَ بقدمك هذه على جسدي دون رحمة، فإذا سمحَت لي الفرصة لقتلتك سأفعلها بدون رحمة، ولن أتردد حتى ولو لحظة، قل لي شيئًا.. ماذا استفدت أنت بما فعلته معي من كل هذا؟ ماذا استفدت؟ بل العكس

خسرتَ الكثير؛ فأنا كنتُ أموت كلما صفعتَنِي وتركت بصمةً على وجهي وجسدي؛ فأنت أفنيتَ روحًا غير قابلة للفناء، أردتُ أن أقول أبي بنفس مطمئنة لا تخشى شيئًا، ولكن كنتُ أشمئز بمجرد قولها، فلم أرَ فيك الأب الذي يستحق أن أقول له هذه الكلمة، ليتني وُلدتُ بلا أب وبلا أم، كنت على الأقل ظللتُ على أمل اللقاء بهم يومًا، أنت بالنسبة لي شخص ميت لا أريد رؤيته.

صمتَت؛ فنظر لها إدريس وبكى بشدة قائلًا بصوت يحمل الحنان:

- تريدين قتل أبيكِ؟

نظرت له، ثم قالت وكأن القسوة نقلت لها منه:

- نعم أكرهك وأريد قتلك؛ فأنتَ من جعلني أبكي، وجعلت الحزن يسكن قلبي ولم يبرحه.

أمسكت يده ثم أضافت متعجلة:

- هذه اليد هي قتلتني ووضعتني أسفل التراب، وسارت على جسدي بدون مراعاة لشيء، ماذا كنت تنتظر غير هذا قل لي؟ أنا لن أغفر لكَ، ولن أنسى ما فعلتَه بي.

سقط إدريس أرضًا وهو يرتجف، ركعت أمامه وهي تصرخ في وجهه وتقول:

- مُت كما قتلتني.

حدقَت به وهو يتنفس بعمق، وكان صدره يعلو ويهبط بقوة، ضحكت ثم قالت:

- قتلتُه بالحقيقة، نعم هو قتلني بالقسوة وأنا قتلته بالحقيقة التي صنعَت القسوة.

شعرَت بأنها تريد أن تحتضنه ولو لمرة واحدة؛ فأمسكَت يده ورفعت رأسه وهي تحركه يمينًا ويسارً قائلة:

- أبي انهض لم أقصد ذلك، بل كنت أعاتبك، كنت أطلب بعض الحب فقط، أنت من فعلت ذلك بي، لكن...

حملقَت به مرة أخرى؛ ففزعت فألقت برأسه أرضًا، وزحفت للخلف قليلًا وهي تقول:

- لا بل أكرهك، تعمدتُ قتلَك كما قتلتني، بل قتلتَ فتاةً ليس لها ذنب، ذنبها الوحيد أنها أرادت الحياة يومًا.

تشنجت وهي تحدّق به وتقول:

- قتلته بالحقيقة.

هذا ما كان يتردد على لسانها الذي انعقد، وسقطت مغشيًّا عليها، وغاصت في عالم مظلم ليس له معالم، له أرض ليس كهذه الأرض، بل تشعر أنكَ تحلق في الوقت ذاته، ما هذا العالم الذي يجعلك تشعر بالراحة واللذة والسّعادة؟ إنه عالم الأنا الأعلى.

***

«جـف حـبر قلمـي؛ ففاضـت نفـسي بالحـزن لتكتـب هـذا الـذي يُقـرَأ بعـين زائغـة».

(٣١)

الثقـل الـذي مـلأ صدرها سـتفرغه في هـذا العالم كـي تغمرها راحـة تمنّتها كثـيرًا، سـارت ثـم توقّفَـت، وتراجعـت خطواتهـا للخلـف قليـلًا؛ فهنـاك ضـوء خافـت جـذب نظرهـا، سـارت خلفـه إلى أن توقفـت فجـأة، ونظرت ليدهـا الملطخـة الدمـاء وتذكّـرت أنهـا قاتلـة، فراحت تركـض يمينًا ويسـارًا إلى أن سـمعت صوتًـا؛ فسـارت نحـو الصـوت فوجـدت أباها وأمهـا ولملوم يجلسـون، بينـما يركـض صـادق خلـف أرنبـة في وسـط النـاس، بينـما يجلـس رضـوان وبجانبـه عزيـزة وتغنّـي ليلى بصوتهـا الذي يمـلأ المكان، بينـما حمودة يلـوّح بعصـاه في كل اتجـاه ثـم ينزلهـا عـلى عنقـه بقـوة، بينما الـروخ يقفـز هنا وهنـاك وخلفـه حـارس الـذي أعطـى لمـرزوق ورقًـا وقلـمًا وظـل يـدوّن بلا توقف.

رأت فريـدة جدتهـا تجلـس وبجانبهـا مُنـى أختهـا، وحسـن يداعـب الفتـاة وهـو مسـرور، بينـما يحـدق لهـا أسـتاذ أنـور ويتحسَّـس مؤخـرة رأسـه ويبكـي، كادت أن تـصرخ مـن كل هـذا، ولكـن شـعرت أن شـيئًا يقيدهـا، نعـم.. كانـت نفـوس تحيـا في النقـاء ولكـن لم تـدُم طويـلًا فقبلـت غـيره، تطلّعَـت حولهـا وهـي واقفـة داخـل هـذا القفـص؛ فوجـدت وكأنهم في قاعـة محـاضرات، لا بـل محكمـة، لم تسـتطع الرؤيـة بوضـوح؛ فقـد كان الضـوء خافتًـا لدرجـة شـديدة، ارتفـع صـوت يقـول:

- أهلًا بكِ في محكمة النفس اللوامة.

أغلقَـت أذنهـا مـن شـدة الصـوت، تنهـدت بعمـق ثـم راحـت تبكـي

كالطفل؛ فلم تستطع الخروج من هذه الأذرع التي تقيدها، علَت أصوات الجالسين بين الابتسام والدموع، وبين القذف والسب، فجأة أرتفع صوت أمها تطلب من الجالسين الالتزام كي تبدأ المحاكمة، ارتفع صوت إدريس قائلًا:

- لماذا أتيتِ إلى هنا؟

قالت فريدة وهي تلتفتُ من حولها:

- أين أنا؟

ضحك إدريس ثم قال:

- لا تعلم نفسها أين هي، أنتِ يا عزيزتي في محكمة النفس اللوامة.

- نعم، أنا أتيتُ إلى هنا كي أخفّف عبئًا يملأ صدري وأفرغ ثقلًا ملأ نفسي، يا سيادة القاضي أنا قاتلة، وأرجو منكم أن تعاقبني على ما فعلته.

قال إدريس ساخرًا:

- أما زالت هناك ضمائر تريد العذاب لنفسها حتى تستريح؟! إنكِ مجنونة.

الجميع يبدأ في الضحك مرة أخرى، ثم تطلب فاطمة من الحضور التزام الصمت قائلة:

- لدينا أكثر من جريمة قتل، أنتِ الذي فعلتيها، أنتِ قتلتِ أستاذ أنور بحجرٍ فوق رأسه، ثم قتلتِ أباكِ بماذا؟ ما الأداة التي قتلتِ بها والدك؟

نظرت فريدة نظرة ارتياب، ثم قالت:

- قتلته بالحقيقة، نعم هذا ما قتلتُه به.

قال حسن وهو ينهض من على مقعده ويصفّق:

- إنـكِ لمعترفـة عظيمـة، إنها مبادئـك وأنـت تتمسـكين بها جيـدًا، إذا لمـاذا لم تعـترفي بحبِّـي لـكِ؟

طلبـت منـه فاطمـة أن يعـود إلى مكانـه، لم يـأتِ دوره كـي يقدّم شـكوته، تركـت الجـدة حليمـة العصـا التـي كانـت تخطّـط بهـا، ثـم قالت:

- هـي لم تقتلـه يـا سـيادة القـاضي، إنـه بريئـة بـراءة الذئـب مـن دم ابـن يعقـوب، نعـم بريئـة، هـو الـذي قتلهـا بقسـوته؛ فهـي لم تحـظَ بحـب منـه يومًـا مـا، انظـر لهـا بعـين العطـف؛ فهـي تسـتحق.

صرخت فريدة قائلة:

- لا أريـد العطـف، ولا أريـد شـيئًا مـن هـذه الأشـياء الكاذبـة؛ فأنـا أريـد تحقيـق العدالـة فقـط.

قال لملوم وهو يداعب مسبحته:

- إذًا أي عقاب تستحقين؟

- إذا كان الجـاني سيُسـأل كل يـوم عـن أيّ عقـاب يسـتحقه فيـما فعـل وارتكـب مـن جرائـم لـكان اختار أن يعـود إلى منزلـه، وكانت الحيـاة توقفت عـن السـير، وكان الله أسـقط عن نفسـه اسـم العدل؛ فهـو كان سـيخيّرنا بين الجنـة والنـار والنعيـم والجحيـم، ولكـن الحياة تسـير والمعـادل لم يسـقط منها عنـصر مـن عنـاصره؛ فلذلـك أطلـب أن أُعاقَـب حتـى أسـتريح مـن عذاب ضمـيري، ولكـن أريـد قـولَ شيء آخـر، إذا كنـتُ أنـا الجانيـة في نظركـم فأنا لسـتُ كذلـك؛ فالجـاني الوحيد هـو أبي، نعم هو من كان يسـتحق هـذا المكان الـذي أقـف فيـه الآن، وأنـا التـي أكون طليقـة أركض وأسـير بـدون توقف، وهـو الـذي يتوقَّـف عـن السير، بـل يمتنـع عنـه ويظـل خاضعًا تحت رحمة

قسوته التي فرضها عليّ وجعلني أحيا بها طيلة عمري، لماذا نأتي إلى هذه الحياة لماذا؟ بربِّك يا سيادة القاضي أي عقاب أستحقه؟ أتستطيع أن تعاقب المبادئ؟ أن تحكم على الضمير؟ ولكن من ظن أن المبادئ سقطَت والضمائر عُدِمَت في ساحة إعدام فهو مخطئ، بل هي تغفو فقط وتحتاج أن نوقظها بعد نوم عميق.

نهض حسن والتفّ حولها قائلًا:

- إنها لمحاضرة عظيمة يا سيادة القاضي، هي تستحق أبشع أنواع العقاب؛ فهي جعلت قلوبًا تشكي وجعًا بسبب مبادئها البالية.

- أنا لم أجعل قلب أحد يشتكي الألم، بل أنت، كل ما فعلتُه يا سيادة القاضي أنني رفضتُ شيئًا سئمتُ منه، لا أريد الحب الذي زال، ولا أريد أن أكون لصًّا من لصوص السعادة؛ فهو اختار وكان لا بُدّ من أن يقبل بهذا الاختيار ويستكمل سيره.

- كانت شهوة، ثم ماذا نحن بفاعلين سوى أن نقلّد آباءَنا الأولين.

- لا تقلّد أحدًا في خطأ ولا حتى صوابه، بل كُن أنت، ثم الشيء الذي يُؤخذ جبرًا لا يكون له مذاق، بل سيكون جبرًا عدمًا، وأنا لا أريد أن أفرض هذا الجبر علينا نحن الثلاثة؛ فهي ليس لها ذنب في شيء.

قال حسن صارخًا في وجهها:

- يا سيادة القاضي، أرجو أن تحقّقوا هذا الطلب لي، أنا أود أن تسجل قضية أخرى غير قضية القتل.

- وما هي هذه القضية؟

- صحوة الضمير وعذاب النفس!

- بربّكَ يا سيادة القاضي هذه قضية؟! لا بل افتراء.

- نعـم، في هـذا الزمـن تعتـبر قضيـة، وقضيـة تسـتحق النظـر لهـا بـدل المـرة ألـف مـرة.

- مـن يُعاقِـب نفسـه عـلى خطـأ، ويجعـل ضمـيره رقيبًـا عـلى فعلـه تعاقبـوه؟! كيـف هـذا؟ إنـه تعسـف غـير مقبـول.

قال إدريس وهو يطلب من الجميع التزام الصمت:

- حسـب تطبيـق قانـون المعذَّبـين بنفوسـهم في المـادة إحـدى عـشر أن مـن تُعاقِبـه نفسـه وضمـيره يطلـب الصحـوة يُسـجَن في حضيـض الظـلام خمسـة عـشر سـنة، وإذا لم يكُـفّ ضمـيره عـن هـذا فيجـبر عـلى أفعـال أخـرى كـي يمـوت ويُرجَـم بالحجـارة.

هلّـل حسـن وثنـى قدمـه اليمنـى، ومسـكه بيدهـا، وراح يسـير ويقفـز عـلى قـدم واحـدة قائـلًا:

- اليوم تحققت العدالة، العدالة، الـ.. عـ.. د.. ل.. ة، أي عدالة؟

- أي عـدل تتحدثـون عنـه؟! إنه تعسـف، نعـم.. هل أصبحت الإنسـانية منحطة لهـذه الدرجة؟

وقف حسن وهو يمد يده لها قائلًا:

- هيا، اليوم سوف تقبلين بحبّي وتغفرين لي.

قال فريدة صارخة:

- لا أريد شيئًا منك ولن أخالف مبادئي.

- أرجو أن تضيف قضية ثانية إلى الأولى، وهي الالتزام بالمبادئ.

راحت فريدة تصرخ، وتُمسِك في أذرع مَن حولها كي تخرج قائلة:

- كيف؟ كيف هذا؟

قال إدريس وهو يزمجر:

- أنت لا تكفِّين عن الثرثرة، هذه قضية أيضًا ولها عقاب أليم.

قالت فريدة بعنف:

- بـالله عليكـم أنتـم مـن تمثلـون العـدل، كل يـوم نفـوس تُقتَـل، وهـا أنا قتلـتُ نفسًـا وأنتـم لا تبالـون لـه، وتبالـون إلى المبـادئ وتحاكمـون كل يـوم عليهـا وتعدمونهـا في سـجون مثـل هـذه، وتتركـون القاتـل وتخيّرونـه كيـف يُعاقَـب، إذًا لمـاذا لا تخـيروني في هـذه القضيـة أيضًـا؟ أم أنتـم مـن تتحدثـون بـدلًا منـه؟! كيـف أنتم عادلـون؟ انقلبـت الموازين يا سـادة، وانقلبـت آية من آيـات الله تضعونهـا خلـف ظهوركم، مـاذا تقـول؟ (وإذا حكمتم بـين الناس أن تحكمـوا بالعـدل)، لكـن أيـن العدل؟ فهـو أصبـح إذا حكمتم بـين الناس احكمـوا بالقتـل والسـفك والظلـم والسـحل، أهـذا هـو؟ أنتـم عيـب عـلى الإنسـانية، نعـم عـار إذا أردتم، أنتم تشـبهون الأنعـام، الحيـاة تاهَت في أرض جـرداء بأفعالكـم وأفعـال آبائِكـم؛ فأتمنَّـى مـن الله أن تعـود الحياة التـي تمتلئ بالحـب والرحمة.

ضحـك الجميـع بأصوات مرتفعـة، ثم صـدرت همهمات؛ فطلـب إدريس أن يتوقَّـف الجميـع ثم قال:

- أنتِ تبالغين كثيرًا، إنها الجنة وليس الدنيا الدنية.

فقال لملوم وهو ينير المصباح الذي بجانبه قليلًا قائلًا:

- إنه حلم الفلاسفة يا عزيزتي.

- وما أعظم أن يتحول يومًا حلمٌ إلى حقيقة.

- لم يكُـن حقيقـة يومًـا مـا؛ لأن الفلسـفة تتمنَّـى وتخشـى أن تمـر وسـط الضبـاب كـي تنـال مـا أرادتـه.

- ألا تعلـم أن الفلاسـفة هـم مـن يسـيرون وسـط ضبـاب الكـون

ويـرون مـا فيـه؟

نهض أستاذ أنور وهو يبكي قائلًا:

- يـا سـيادة القـاضي، أحببـت هـذه الفتـاة وضحَّيـتُ وقتلـتُ، ولم تعطـي لي سـوى المـوت، لمـاذا تتركوهـا تقـرر مصيرهـا، وهـا هـي يدهـا ملطخـة بدمائـي.

قالت فاطمة وهي تنظر إلى رأسه:

- اجلس يا أنور، هي ترفض الحب منك ومن هذا الذي يجلس هناك.

- لا لم أرفضـه، بـل امتنعـت عنـه، هـو قتَـلَ مـن أجـلي؛ فمـن الممكـن أن يقتلنـي أنـا يومًـا مـا، مـن يلـوّث يـدَه وقلبـه بـشيء دنـس لـن يسـتطيع الخـلاص منـه.

نهـض رضـوان وهـو ملطّـخ بالدمـاء، وبجانبـه عزيـزة التـي تتشـبث بيـده قائـلًا:

- وأنـا أريـد أن أقدم شـكوى في رجـل يُدعى لملـوم؛ فهو قتلنـي وجعلني أتـألم كثـيرًا، وحرمني مـن ابني، كيـف تتركونـه يمثل العدالـة اليوم؟!

قال لملوم صارخًا:

- اذهـب واجلِـس؛ فأنتـم لا تفهمـون شـيئًا، كان يجـب وجـودي في هـذه الحيـاة! نعـم.. فأنـا أمثـل الخـوف والهـلاك، إنهـم عنـاصر مـن عنـاصر الطبيعـة، أليـس هـذا صحيحًـا يـا سـادة؟

علَـت الأصـوات والهمهـات، ووضعـت الجـدة أذنهـا في أذن أم رضـوان وكانـا يتحدثـان، بينـا ضحـك أبوهـا إلى أن ظـلّ يسـعل بشـدة، عـاد يقـول لملوم:

- كان لابـد مـن وجـودي، نعـم، تعلمـين لمـاذا؟ لأن الخـير والـشر أنـا

أمثّلهما، نعم؛ فالشر ينبع منه الخير، والفسق ينبع منه الفضيلة، يا عزيزتي كل ما ترين أنه ضلال فهو في حد ذاته تصريف للحياة وما بها؛ فلابد من الصراع؛ فالوجود مثل الرواية التي تثرثر صاحبتها الآن، لا بُدّ من الصراع داخلها حتى تشدّ انتباه القارئ؛ فالله عرض كتابه في صفحات عديدة ولم يعرضه في صفحة واحدة أو صفحتين؛ فالله قادر على ذلك، ولكن عُرِضَت في الألف؛ فنحن في حد ذاتنا صفحات داخل لوح محفوظ، فماذا يحدث إذا لخّصَ الأديب كتابه في نصف صفحة قائلًا: "أحمد تزوج مُنَى فهي تحبه كثيرًا، ولكن وقع أحمد في حب فتاة أخرى فتزوجها؛ فعلمَت منى بالحقيقة فتركته وعادت إليه عندما اشتد عليه الألم، فعلم أنها كانت الدواء له والأمل الذي يحصّنه، أدرك ذلك وهو على فراش الموت؛ فلم يبُح لها بحبه الدفين؛ فحزنَت مُنى عليه وعلمَت أنها تحبه أكثر من نفسها، فيا ليت انتُزِع قلبها من بين ضلوعها ولا كان رحل؛ فكانت تريد أن تطلب منه الغفران، ولكن الموت جعلهم يبدون وكأنهم خشب مسندة"، بربك إذا كان عرضها في صفحتين أو بضعة أسطر سنفهم؟ ولكن هو أراد الثرثرة؛ فيا عزيزتي هذه الثرثرة في حد ذاتها هي أنغام تطرب أنفسنا وتقشعر أبداننا منها، فكان لا بُدّ من وجود للوم، هذا الرجل الفاسق المجرم؛ فمن إجرامي نبع الكثير، ومن فسقي نبع أيضًا الكثير، فكل هذا وزنٌ معادل، وأنا تمثلت فيه هذه المعادلة؛ فإذا كانت العدالة والحب والإحسان والخير، بربك ألا تشعرين بالملل والفتور منهم؟ نعم كانت ستكون الحياة رتيبة ومملّة، لا لم أستطع أن أتخيل الحياة بدون صراع، ولا بدون مشاكل؛ فالمشاكل والقضايا تصرف الحياة وتضيف عليها الحركة الدائبة.

قال إدريس وهو يصفّق:

- إنه محق، وأيضًا القسوة التي تتهمين أباكِ بها فهي كان لا بُدّ من وجودها؛ حتى يولد الحب والرحمة، والله لولا القسوة لكان سكَن الوجود وما فيه.

- أنتم تبررون هذا لأنفسكم، وتقولون لولا هذا لما وجَدْنا ذاك، كيف؟

قالت فاطمة وهي تشير إلى مرزوق بإصبعها؛ فهو يحدث ضجة بالأوراق قائلًا:

- نزل آباؤنا الأولون من الجنة؛ لأنها لا تلائمهم، وهي ليست مكان للصراع؛ فالنفس يا عزيزتي صراع دائم مع كل مَن حولها، حتى مع ذاتها؛ فهذه النفس طلسم من طلاسم هذا الكون، ستظل هكذا حتى تتلاشَى وتزيل شوائبها وتتهذب.

- ولكن لماذا لا تكون الحياةُ حياةً بمعنى الكلمة؟ ولماذا كل هذه المعاني التي تحرفونها؟

- ليست تحريفًا، بل حقيقة مُسلَّم بها منذ زمن.

نهض حسن وهو يقول:

- إنها مجنونة، تظن أن الحب هو المحراب الذي يتعبَّد به الإنسان ليلَ نهار دون أن يخطئ، ولكن هذا المحراب وهِنٌ ضعيف، كان لا بُدّ من أن يخرج المتعبّد منه وينظر خارجه، ثم يكتب شكسبير مسرحيته وتُرفَع الأقلام في يد الجميع ليدوّن عن الحب وعذابه، فإذا لم يخرج ماذا كان سيكتب شكسبير وغيره؟

جلست فريدة وهي تلتفت حولها؛ فوجدت عزيزة ورضوان يتطلعان

إلى بعضهما البعض، بينما ما زال صادق يركض خلف الأرنب ولم يستطع أن يمسكه، وها هي ليلى عادت تغنِّي بصوت حنون، وجدتها راحت تبكِي عندما سقطَت داخل القفص، بينما مرزوق منخرط في الأوراق؛ فراح يُلقِي على الجميع الأوراق وينثرها بعدما مزقها إلى قِطَعٍ صغيرة، وإدريس تلفّتَ حوله، ثم يهبط أسفل مقعده ويرتشف رشفة من زجاجة الخمر، بينما جلسَت مُنى على حجر أمها وكانت تطعمها وكأنها عادت طفلة صغيرة، وها هو أستاذ أنور يتحسَّس رأسه ويبكي وهو يتطلع إلى رضوان الذي وقف بجانبه للوم وهو ينخفض ويعلو على المقاعد، بينما وقف الروح يتشبَّث بذراع حمودة وحارس ويتأرجح وهو مسرور، نظر له حسن وضحك؛ فأمسك يدَ الفتاة التي تشبه باربي وراح الاثنان يلعبان لعبة ثني القدم والسير على قدم واحدة، صرخت فريدة وهي تقول:

– من أنتم؟ ومن أنا؟ من أنا؟

سمعَت صوتًا يخرج ترتجف له النفس قائلًا:

من أنتِ يا نفسي؟! سؤال سُئِلَ كثيرًا ولم يحظَ به إلا القليل، ستعلمين به وأنت تجدُلِين في الطين، وها أنتِ تجدلين لتخرجي من رحم النور إلى الظلام، إلى الكل الذين يسبحون في فلك النعيم والجحيم، ويملؤون الكون ويتساءلون، ثم يبكون على حالهم وستبكين معهم، وتسبحين وكأنكم في فلكٍ تسبحون عن النفس التي بكم ولا تعلموا عنها إلا القليل.

***

(إلى أخي رحمه الله وأدخله جنة واسعة وسط الأبرار، فكم اشتقَتُ لك يا أخي؟ برحيلك الذي جعل قلوبنا يسكنه الحزن؛ فلن أنسى ابتسامتك وحديثك النقيّ، ووجهَك الذي اشتقتُ لرؤيته؛ فأنت كنت داخل بستان مريض وقُطِفتَ كي تجد ما تمنيتَه في حياتك المريرة، رحمك الله يا أخي)